LEE CHILD

PRESENTS

JACK REACHER

IN

61 Hours

رواية لي تشايلد

جرائم بلدة بولتون

ترجمة: خالد أمين

دار دَوِّن

ضاد
t.me/twinkling4

First published in Great Britain in 2010 by Bantam
Press an imprint of Transworld Publishers
Copyright © Lee Child 2010

لي تشايلد: جرائم بلدة بولتون، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٤\٤٤٥١ - الترقيم الدولي: ٩-٤٣٣-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب
لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

61 Hours

Lee Child

First published in Great Britain
in 2010 by Bantam Press
an imprint of Transworld Publishers
Copyright © Lee Child 2010

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضّاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

إهداء

إلى محررتي التي لا يمكن الاستغناء عنها أبدًا، ماريان فيلمانس

مقدمة المترجم

الرواية الماثلة بين يديك في تلك اللحظة تم تصنيفها على أنها أفضل رواية في سلسلة جاك ريتشر، الرواية قرأتها للمرة الأولى منذ قرابة التسعة أعوام، وظلت عالقة بذهني طيلة هذا الوقت، بالأخص مشهد صادم من تلك الرواية ؛ لذا دعني أقول لك إن هناك رحلة ممتعة وصادمة من الغموض والمغامرة في انتظارك، ستجد نفسك محاصرًا في بلدة صغيرة وسط الثلوج وتبحث عن قاتل غامض، تحاول حماية سيدة عجوز شهدت جريمة مروعة، لتقودك الأحداث لذروة التشويق والإثارة، ستجد نفسك على حافة مقعدك كما يقولون..

هناك شيء أحبه بشدة في روايات الغموض والتشويق والإثارة، وهذا الشيء هو قدرة تلك الروايات في أخذك لعالم آخر تمامًا يختلف عن كل ما يحيط بك، ضوضاء مختلفة، هواء مختلف، مبانٍ لم ترَها من قبل، مدن جديدة، ستقابل شخصيات أخرى من عوالم بعيدة، وتعقد صداقات مع بعضهم وعداوات مع آخرين، ستكون حياتك مثل حياة جاك ريتشر بالضبط..

بطل روايتنا هو ضابط الشرطة العسكرية السابق جاك ريتشر، الذي وُلد بقاعدة عسكرية لأب عسكري وقضى نصف حياته في المؤسسة العسكرية، وظيفته كانت غريبة بعض الشيء، هو ضابط شرطة داخل الجيش، مسئول

عن تعقب ومطاردة ومواجهة ضباط وجنود لا يجمعهم سوى شيء واحد مشترك وهو حقيقة أنهم جميعًا مدربون للقتل.. يستقيل ريتشر من الجيش لأنه يقرر فجأة أنه يريد تعويض كل ما فاته في حياته، ويصبح ترحاله وتجواله حرًّا بلا قيود، متنقلًا من بلد لأخرى، مغامر هذا العصر الحديث، قادم من سلالة شيرلوك هولمز وأرسين لوبين وجيمس بوند، لكن هناك شيء آخر يجب أن نعرفه بشأن ريتشر، وهو أنه لا يؤمن بالنظام القضائي، ويمتلك حس عدالة خاصًّا به، البعض يعتبره محققًا خاصًّا، وآخرون يرون أنه دومًا في المكان الخاطئ بالتوقيت الخاطئ، هو يعتقد أنه يجذب المشاكل بطاقة ما يمتلكها، لكن في نهاية الأمر فإن جاك ريتشر رجل يطبق العدالة بطرقه الخاصة.. ويمتلك عقلًا متقدًا وطرقًا استنباطية مبهرة تساعده في حل القضايا الغامضة التي يقوده حظه إليها خلال ترحاله وتنقلاته..

أمامك رحلة خاصة جدًّا من الأدرينالين والتشويق، أنا قد انتهيت للتو من تلك الرحلة فور قيامي- والحمد لله - بترجمة تلك الرواية، والآن قد حان دورك ؛ هل أنت مستعد؟ خذ نفسًا عميقًا، جرائم بلدة بولتون موشكة على الوقوع..

خالد أمين

الفصل الأول

الساعة الآن الثالثة إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن إحدى وستون ساعة..

توقفت إطارات سيارة المحامي وخرج منها لتطأ قدمه الأرض الثلجية، ظل يتأكد لدقيقة من أن حذاءه محكم الغلق؛ كي لا يتسلل الثلج إلى ساقه وقدميه، ثم وقف أمام السيارة وزفر بقوة قبل أن يضم ياقة معطفه على عنقه اتقاء للصقيع، فقد ظل الراديو يتحدث طيلة الرحلة عن العاصفة القادمة، وبالفعل كانت الرياح باردة وقوية، غير مبالية بشيء.

سار المحامي ببطء ودلف للمبنى من بوابة الزوار، حيث يقف حارس يبدو على وجهه الكسل ومعه جهاز كشف عن المعادن بعد الدخول من البوابة، هز المحامي رأسه للحارس، فهو يعتبر نفسه عضواً في نفس فريقه؛ لأن البشر بالنسبة للمحامي نوعان، المساجين وهؤلاء الذين يعيشون بالخارج، وهو ليس بسجين، ولا الحارس كذلك، إذًا فهما في نفس الفريق..

عبر المحامي بوابة السجن وهو يفكر: أنا لم أدخل السجن بعد.

أعطاه الحارس حقيبة بلاستيكية ليضع بها مقتنياته التي سيستردها بعد انتهاء الزيارة، بينما لاحظ المحامي حرارة الأجواء داخل السجن على خلاف حقيقة الطقس

بالخارج، لكنه كان يعرف السبب الذي يتمثل في مبدأ التوفير الاقتصادي ليس أكثر، فالحكومة تحرق زيوتًا إضافية في المدافئ لإبقاء الجو حارًّا بالداخل؛ تجنبًا لشراء قطع ثياب إضافية للمساجين..

أخرج بعدها حافظته ومفاتيحه وهاتفه الخلوي وبعض العملات النقدية ووضعهم مع سترته في الحقيبة البلاستيكية ثم مررها من جهاز الأشعة السينية قبل أن يتبعها بدوره..

ظل الحارس جالسًا مكانه فنظر له المحامي بحيرة عندما أتت حارسة بزي رسمي أزرق لتأخذ منه الحقيبة البلاستيكية وتضعها في الأمانات وتعطيه رقمًا معلقًا بحافظة بلاستيكية لاسترداد حقيبة مقتنياته، إضافة إلى بطاقة أخرى بها تصريح دخول.. ثم وقف المحامي مترددًا ومنتظرًا أحدهم كي يشير له بالتقدم للأمام، وهي عادة اكتسبها من كثرة السفر بالطائرات والتي توجد بها مضيفة مبتسمة تسمح لك بالدخول.

ظهر حارس قصير القامة مرتديًا نفس الزي الرسمي الأزرق وأشار للمحامي كي يتبعه، فتبعه الأخير بخطوات هادئة، كانت جدران السجن معدنية ولامعة، وهناك ردهة طويلة بها حواجز إلكترونية، عبر المحامي الحاجز الأول واستلمه حارس آخر فارع القامة، ثم مر بعدها بقاعة فاصلة بين الطابق الأول للسجناء وغرف المقابلات، وهناك أدخله الحارس غرفة متوسطة الحجم بها منضدة

ومقعدان، فجلس المحامي في صمت وخرج الحارس، وبعد مرور بعض الوقت عاد الحارس فارع القامة بصحبة سجين ضخم الجثة يرتدي زي السجناء برتقالي اللون، جلس السجين قبالة المحامي وخرج الحارس، فارتكزت عينا المحامي على أصفاد السجين للحظة ثم رفع رأسه صوب الأخير وقال : آسف على تأخري.

نظر له السجين في صمت فأردف المحامي : كيف حالك؟

لكن دون رد.. وهنا شعر المحامي بالصمت يختلط مع هواء الغرفة مسببًا له اختناقًا، فتنهد ونظر للسجين منتظراً حتى بدأ الرجل ذو الزي البرتقالي في الحديث- ببطء وحزم- يلقي عليهم كثيرًا من التعليمات، والتي كانت عبارة عن جمل عديدة مختزنة في ذاكرته أدلى بها كلها للمحامي، وكان المحامي يبذل قصارى جهده لحفظ كل شيء يقوله له السجين، إذ طلب منه كل حين وآخر أن يعيد ما قاله أو يبطئ من حديثه ليتمكن من متابعته، الحقيقة أن ذاكرة المحامي كانت قوية لكن التوتر جعله يهاب احتمالية أن ينسى شيئًا مما يقال له في تلك اللحظة، انتهى السجين من حديثه ونظر للمحامي مطولًا قبل أن يسأله : هل حفظت كل ما قلته؟

أومأ المحامي برأسه بالإيجاب..

***

الساعة الآن الرابعة إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن

ستون ساعة..

خرج المحامي من السجن بعدما استعاد مقتنياته ودخل السيارة وهو يستعيد كل ما قاله له السجين.. كانت السماء تمطر ثلجًا بقوة، بينما أدار المحامي محرك السيارة وهو يفكر: أربع عشرة جريمة، وهو الآن يرتكب الجريمة الخامسة عشرة من بينها التواطؤ والتآمر في شئون غير قانونية. بإمكانه تخيل المدعي العام وهو يلوح بإصبعه داخل قاعة محكمة ما في وجهه متهمًا إياه بالجريمة الخامسة عشرة..

قاد المحامي سيارته في الطريق العامر بالثلج وعقله لا ينفك عن التفكير، حتى أوقف سيارته بجانب الطريق وخرج منها وهو مرتعد الأوصال ثم أفرغ جوفه بجانب الطريق وعاد لسيارته مرة أخرى، ابتلع ريقه في خوف وحاول التحكم بانقباضة معدته، أمامه ثلاثة خيارات..

الخيار الأول: ألا يفعل شيئًا.

الخيار الثاني: الاتصال بالرقم الذي أعطاه إياه السجين، ولكن تهمة التواطؤ والتآمر مرت في ذهنه مرة أخرى..

الخيار الثالث: الاتصال بالشرطة..

في النهاية تمكن الخوف منه وقرر الاتصال بالرقم الذي أعطاه إياه السجين، وهو الأمر الذي كان يعرف أنه سيفعله من البداية، فالخيار الأول سوف يتسبب في قتله، كذلك الخيار الثالث، وهكذا وضع المحامي هاتفه الخلوي جوار أذنه وأجرى المكالمة..

سرت بجسده قشعريرة عندما أتاه الصوت من الجهة الأخرى للمكالمة، فقد كان صوت قادم من عالم آخر، قاسٍ وبه وحشية لا توصف، وهناك ابتسامة لذة على وجه صاحب الصوت، أغمض المحامي عينيه بخوف ثم فتحهم ونظر لانعكاس وجهه في مرآة السيارة بينما صاحب الصوت المخيف يقول : تفضل يا صاح، أخبرني بما لديك..

ابتلع المحامي ريقه مرة أخرى ثم بدأ في الحديث، مدليًا بكل ما حفظه من حديث السجين.. التعليمات، القوائم.. كل شيء.. وعلى بُعد سبعة أميال استقر جسر مغطى بالثلوج، جسر يصل بين الطريق السريع العام والطريق الفرعي المؤدي للسجن، وجد المحامي نفسه يقود السيارة بيد واحدة وهو يتحدث، أحيانًا في لحظات توترنا نقوم بأشياء لا ندركها إلا متأخرًا، وبعد ذلك اتجهت السيارة نحو الجسر الذي استقرت عليه لافتة تحذيرية مكتوب عليها : لا تعبر الجسر في حالة حلول عاصفة ثلجية..

يد تدير المقود وأخرى تمسك بالهاتف.. فمه يتحرك حركة آلية وهو يدلي بكل ما حفظه للصوت القادم من الهاتف..

دارت الإطارات فوق الثلوج التي تغطي الجسر، وطبعًا لم ينتبه المحامي للافتة التحذيرية ؛ إذ كان ذهنه محمومًا بمحاولة تذكر كل تفصيلة قالها له السجين، ومن على بُعد ظهرت حافلة تسير بسرعة محاولة الوصول لوجهتها قبل

حلول العاصفة الثلجية.. لم يرَ المحامي الحافلة بعدُ، لم ينتبه لحقيقة أن إطارات السيارة على وشك الانزلاق فوق الأرض الثلجية، لم يبطئ من سرعته، لم ينتبه حتى إنه يقود السيارة ليقلل من توتره أثناء حديثه، وأن خوفه جعله يزيد من سرعة السيارة..

واصل المحامي حديثه..

اقتربت الحافلة..

هنا أدرك أن سيارته تنحرف يسارًا فوق الجسر، أسقط الهاتف وقبض بكلتا يديه على المقود، أخبره الجزء الخلفي من عقله أن الحادثة قادمة لا محالة، حاول تهدئة نفسه بأن هذا لن يحدث وضغط المكابح بقوة، فأطلقت الإطارات صريرًا مزعجًا ودارت السيارة حول نفسها.. وحينها زفر المحامي في ارتياح بينما قال صاحب الصوت والمحامي يلتقط الهاتف بيد مرتجفة : لماذا توقفت؟

- انحرفت عن الطريق.

- انته من تقريرك أيها الوغد.

ابتلع المحامي ريقه للمرة الثالثة، وواصل حديثه.. وهو يعود لسرعته السابقة فوق الجسر، لنكون عادلين يجب الإقرار بأن المحامي رجل محترف وذو خبرة، وبالتأكيد يستطيع القيادة، لم يكن شابًّا يافعًا ولا رجلًا متقدمًا في العمر، وعقله يعمل بالطريقة الفعالة التي يفترض أن تعمل بها كل العقول، لكنه خائف ومرهق.. مشتت

العقل، يتحدث مع قاتل عبر الهاتف، وحياته تتوقف على المعلومات التي ينقلها لهذا القاتل في تلك اللحظة، وقد تسببت تلك العوامل في الحادثة فوق الجسر، حافلة مسرعة تحاول تجنب عاصفة ثلجية، ورجل مشتت الذهن يقود سيارته بسرعة، لكنه رأى الحافلة أخيرًا بعدما عاد له تركيزه، حيث انعكست فوق مقلتي عينيه وهو يصيح ويدير المقود بغتة، بينما حاول سائق الحافلة فعل كل شيء بشكل صحيح بدوره، ضغط المكابح، لم يحاول إدارة المقود تجنبًا لانقلاب الحافلة فوق الجسر، لكن كل من الحافلة والسيارة فقدا التحكم في سرعتهما بسبب الأرض الثلجية وحدث الارتطام، بعدما دارت الحافلة بشكل عرضي واصطدمت مقدمتها بحافة الجسر، وأعقب ذلك تصادم مقدمة سيارة المحامي بجانب الحافلة..

ساد هدوء وصمت بعد الارتطام وظلت عجلات الحافلة تدور حول نفسها بعنف لتنغرز أكثر وسط الثلوج..

وبداخل الحافلة بدأ الركاب في استيعاب أنهم لا يزالون على قيد الحياة، كلهم متقدمون في العمر، عدا راكب واحد، واحد وعشرون راكبًا في حافلة ذات أربعين مقعدًا، اثنا عشر منهم كانوا أرامل في العقد الخامس والسادس من العمر، وثمانية أزواج مسنون.. قادمون من سياتل.. كلهم متجهون لجبال «ماونت راشمور» في جولة سياحية..

أما الراكب الواحد والعشرون فهو رجل في العقد الثالث

من العمر، يجلس في المقعد الخلفي بالحافلة، يسافر وحيدًا بدون أمتعة.. وقد قطع تذكرة وانضم للحافلة السياحية بعد زيارتها لمتحف «داكوتا لاند»، وقد ظل صامتًا طيلة الرحلة دون الاختلاط بأحد منهم.. لكنه رغم هذا كان مهذبًا ولطيفًا، يمكنهم إدراك ذلك من نظراته وتعبير وجهه، حيث بدا لهم كلاعب رياضي متقاعد بقامته الفارعة وجسده القوي، بعضهم تعجب من كونه لا يحمل أمتعة، يرتدي ملابس بسيطة وغير متناسقة قليلًا، ربما أنه متطفل طرقًا سريعة، رجل يستقل الحافلات متنقلًا من مكان لآخر، لكنهم رأوه يتبادل حديثًا ما مع السائق ويدفع نظير الرحلة، ربما لو كانت نظراته حادة أو عدوانية لأصابهم القلق ؛ لأن وجود رجل عدواني بهذا الحجم معهم في الحافلة لم يكن أمرًا مستحبًّا، لكن تعبيرات وجهه ونظراته اللطيفة والمهذبة تنافت مع خطورة جسده، وجعلتهم يشعرون بالطمأنينة، كأنه من الجيد وجود رجل كهذا معهم في الطريق تحسبًا لأي مشكلة..

فكرت بعض الأرامل في تبادل حديث مع الشاب المهذب، لكنه التزم الصمت طيلة الوقت، على الأقل كانوا يعرفون اسمه، هذا الغريب الغامض الصامت، لقد عرّف نفسه بعدما صافحه أحد الركاب مبتسمًا وتساءل عن اسمه بعد ساعات على الطريق قبل الحادثة بالطبع، وحينها صافح الراكب الواحد والعشرين الرجل وقال : جاك ريتشر..

الفصل الثاني

فتح ريتشر عينيه واستفاق من نوم عميق فور اصطدام رأسه بالنافذة إثر حادثة الارتطام مع السيارة، بينما تلاحقت الأفكار داخل عقله، فهو على متن حافلة وقد وقعت حادثة، ثلج وسرعة زائدة.. كما أن هناك جسرًا.. الحافلة تتجه نحو الحافة في محاولة تجنب سحق سيارة أمامهم، الركاب يصرخون في رعب، بعضهم فقد الوعي من احتمالية السقوط في نهر ثلجي والموت متجمدين، لكن السائق كان بارعًا وأوقف الحافلة قبل الحافة ولم يسحق السيارة، مرت في ذهن ريتشر صورة تخيلية لحافلة عالقة وسط الثلوج وركاب مسنون يهيمون حولها قبل أن يلقوا حتفهم من الظمأ والجوع ويتحولوا لجثث متجمدة، ثم أدرك بعدها أن الحافلة لا زالت تنزلق فوق الثلوج، وهناك احتمالية لا بأس بها أن تنقلب، كاد أن يسقط من مكانه وتمسك بالمقعد بينما تدور الحافلة بقوة، رأى وجه السائق المذعور والركاب المسنين وهم يتأرجحون يمينًا ويسارًا، فالحافلة في مواجهة قوى الطبيعة الآن وريتشر يعرف النتيجة مسبقًا لأي مواجهة مع قوى الطبيعة، لثوانٍ مر بذهنه ملابسات استقلاله لتلك الحافلة، حيث كان يتنقل دون سبب أو هدف محدد في «مارشال» بـ«منيسوتا»، وركب مع رجل مسافر لـ«جنوب داكوتا»، ولسبب ما قرر صاحب السيارة التوقف عند استراحة في الطريق بالقرب من مكان يدعى «كافوار»، وكان

ريتشر يشرب القهوة السوداء المفضلة له بالاستراحة عندما وصلت الحافلة فقرر الصعود على متنها بعد إجراء صفقة مع السائق ؛ لأنه يحب فكرة الصعود بعشوائية على متن حافلة تقوم بجولة سياحية واستكشاف مناطق لم يخطط لزيارتها بعد، وقد تضمنت الصفقة مع السائق الذي بدا له كرجل نزيه عشرين دولارًا مقابل الوصول لمدينة «رابيد»، إذ تفاوض السائق مع ريتشر طالبًا أربعين دولارًا، واتفقوا في النهاية على ثلاثين دولارًا.. لكنها لم تبدُ كصفقة رائعة في اللحظة الراهنة، فالحافلة توشك على الانقلاب أو تهشيم حافة الجسر والسقوط من فوقه، ولا مناص من تلك الكارثة التي على وشك الحدوث، فكل قوانين نيوتن للحركة قيد العمل الآن.. والسائق يعيد ضغط المكابح ويدير المقود تلك المرة محاولًا إجبار الحافلة على التوقف عن الانزلاق..

أغمض ريتشر عينيه.. ثم فتحهما حتى توقفت الحافلة في اللحظة الأخيرة والأدرينالين يتدفق بجسده..

وقف ريتشر وسار بين مقاعد الحافلة وسط الركاب المذعورين واتجه للسائق قائلًا : أحسنت صنعًا يا رجل.

هز السائق رأسه وهو يحاول استيعاب كل ما حدث ثم قال : نحن أحياء أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنًا.

- أنت قمت بعمل رائع لقد أنقذتنا جميعًا.

- شكرًا لك.

مال ريتشر للأمام وحاول النظر من النافذة الأمامية قبل أن يقول : هل تستطيع إخراجنا من تلك الهوة التي حدثت بالجسر؟

- لا أعلم، لا أعتقد.

- هل لديك إطارات احتياطية؟ أو مسدسات إغاثة؟

- ماذا؟

- مسدسات إغاثة، أنت تعلم ما أعنيه، طلقات حمراء تضيء في السماء لكي تراها فرق البحث..

صمت السائق في حيرة ثم انحنى وفتح درجًا أمام مقعد القيادة ليخرج منه صندوقًا مغلقًا بني اللون، نظر ريتشر للصندوق وأضاف للسائق : هل تمتلك صندوق إسعافات أولية؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب سريعًا تلك المرة..

- هلا أخذته إذًا وتفحصت الركاب بعد تجمعهم بمنتصف الحافلة، تجنبًا لقدوم سيارة مسرعة أخرى تنزلق فوق الثلوج، فالجلوس في المنتصف هو الخيار الأكثر أمانًا في حالة الصدام..

- حسنًا.

أخذ السائق صندوق الإسعافات الأولية فقال له ريتشر

قبل أن يتحرك من مقعده : وافتح باب الحافلة أولًا، وأغلقه خلفي فور خروجي لإبقاء الحافلة دافئة..

خرج ريتشر من الحافلة بعدها وانغلق الباب خلفه، وفي يده مسدس الإغاثة الذي أخذه من الصندوق الآخر، رفع يده للسماء وتأكد من صحة موضعه ثم أطلق الرصاصة الحمراء التي أضاءت السماء بالوهج الأحمر، سار بعدها بصعوبة وقدماه تنغرزان في الثلوج حتى وصل لسيارة المحامي، والتي كان زجاجها مهشمًا وبابها منبعجًا، وقد انغرز جزء كبير منها في الأرض الثلجية، اقترب ريتشر من السيارة بحرص ثم انحنى ونظر للداخل حيث كان المحامي في حالة يرثى لها، والثلوج تغطي وجهه بينما يتكور حول نفسه داخل ما تبقى من مقعد القيادة..

- مرحبًا يا صاح، اسمي ريتشر، جاك ريتشر.. ستكون بخير.. فقط حاول تنظيم أنفاسك، هل تشعر بأي ألم عند التنفس؟

- كلا.

- جيد، لا ضلوع مهشمة إذًا بالقرب من قفصك الصدري، هل تتذكر جيدًا ما حدث؟

- ارتطام مريع.

- حسنًا حسنًا.. حاول أن تبقى محرك السيارة يعمل، حتى لا تتجمد بالداخل، علينا الحفاظ على الحرارة.

- كلا هذا خطر، خزان الوقود أصيب ويتسرب منه الكثير من الوقود، لهذا أطفأت المحرك.

- أنا لا أشم رائحة الوقود.

- لا أستطيع المخاطرة بانفجار السيارة، فأنا لا أريد أن أتجمد أو أموت حرقًا كذلك.

هز ريتشر رأسه مقتنعًا ثم قال : لا أستطيع محاولة إخراجك وأنت في تلك الحالة، هل لديك هاتف؟

ابتلع المحامي ريقه وأجاب بوجه شاحب : نعم.

- اتصل بالنجدة وصِح مناديًا لو احتجت شيئًا، سوف أذهب لتفقد ركاب الحافلة..

عاد ريتشر للحافلة، ليجد السائق قد حرّك عددًا من الركاب من الخلف للمنتصف ويعمل على جمع الباقي من الأمام، بعض النوافذ تهشمت تمامًا وبعضها منبعج وعلى وشك الانهيار، فقام ريتشر بإبعاد الركاب عن تلك النوافذ أيضًا تجنبًا لاحتمالية أي إصابات من الزجاج، كانت هناك سيدة عجوز تبكي جوار زوجها الذي أصيب في رأسه وينزف منها، وهناك أرملة وقور وعجوز تبدو كطائر رقيق البنية تسير منحنية في حيرة ولا تعلم إلى أين تتجه، ابتسم ريتشر مشيرًا لها كي تجلس بمقعد آمن في منتصف الحافلة، ثم بدأ في تفحصها بعد جلوسها، كان الانبعاج في كتفها يوحي له أن هناك عظمة مكسورة، لكنها تتحمل الألم ببسالة وصمت، أشار ريتشر لكتفها

وقال : هل تسمحين لي بإلقاء نظرة؟

- لكنك لست طبيباً.

- لقد تلقيت بعض التدريب في الجيش.

- هل كنت مسعفًا هناك؟

- كلا، شرطة عسكرية، لكننا تلقينا تدريب إسعافات أولية.

ارتجفت السيدة العجوز وقالت بوهن : أنا أشعر بالبرد.

أومأ ريتشر برأسه وقال : إنها تمطر ثلوجًا بالخارج كما أنك في حالة صدمة..

مد ريتشر يده وتفحص العظمة أعلى كتفها، كسر واضح..

سألته العجوز : هل الأمر سيئ؟

- كلا، تك العظمة أدت وظيفتها جيدًا ألا وهي حماية عنقك من الانكسار، لقد تصدت للهجوم وانكسرت بدلًا منه، لكنها سوف تلتئم.. لا تخافي.

- أنا بحاجة للذهاب إلى مشفى.

- سوف نفعل هذا قريبًا جدًّا.

واصل ريتشر مسيرته في تفقد الركاب بعدها، ليجد كثيرين في حالة صدمة ويعانون من كسور في العظام وكدمات بأماكن متفرقة من أجسادهم، هنا لاحظ أن

سائق الحافلة قد عاد للمقدمة، فذهب إليه ليرى أنه قد انتهى للتو من إجراء مكالمة هاتفية، ثم التفت ناحية ريتشر وقال : لدينا مشكلة.

- ما هي؟

- لقد اتصلت بالنجدة، شرطة الولاية على بعد ستين ميلًا شمالًا، ودورية المراقبة على بعد ستين ميلًا شرقًا، وهناك عاصفة هوجاء على وشك الحلول من كندا.. الأمر الأسوأ هو أن هناك عاصفة ثلجية قادمة من البحيرات، ولسوف يلتقيان هنا، عاصفتان يلتقيان ونحن في المنتصف بحافلة عالقة بالطريق..

صمت ريتشر في محاولة استيعاب تلك المعلومات قبل أن يسأل : وأين نحن بالضبط؟ موقعنا الحالي.

- جنوب داكوتا، وأنت تعرف ما يعنيه هذا، أننا لسنا في مدينة رابيد بعد أو عند شلالات سيوكس وإنما نحن في منتصف العراء واللاشيء، في قلب الطبيعة نفسها..

- لا بد أن هناك بلدة قريبة.

- الخريطة تقول إن هناك بلدة قريبة تدعى بولتون، ربما على بعد عشرين ميلًا.. بلدة صغيرة للغاية بالكاد تلمحها على الخريطة..

- ألا تستطيع طلب حافلة أخرى تقلنا.

- أي حافلة جديدة ستصل إلينا بعد أربعة أيام، نحن

محاصرون بالثلوج والعواصف والطرق مغلقة..

- هل يوجد مخفر شرطة ببلدة بولتون؟

- أنا أنتظر معاودة اتصال النجدة بي ليخبروني بباقي التفاصيل، أي محاولة لإرسال طائرات ستفشل كذلك بسبب..

- نعم نعم بسبب العاصفتين.. لكن ربما يكون لديهم شاحنات تقطر الحافلة في بولتون.

- لا بد أنهم يمتلكون شاحنات كتلك، لكننا سنحتاج ثماني شاحنات لقطر الحافلة..

- ما هي البدائل إذًا؟ ربما يرسلون حافلة مدرسية من بولتون كي تقل الركاب.

- آمل ذلك، أنا أنتظر مكالمة منهم.

- ما اسمك؟

- جاي نوكس.

- عليك أن تفكر بالأمر جيدًا يا سيد نوكس، أي حد سيصل إلينا سيكون خلال ساعات، وفي خلال ساعة واحدة من الآن ستتجمد الحافلة بالكامل.

- ما رأيك إذًا؟ ما الذي يجب علينا فعله؟

رن هاتف نوكس قبل أن يجيبه ريتشر.. فراقب الأخير وجه الرجل وهو يجري المكالمة، حيث كان تعبير القلق

يخف في البدء ثم يتزايد مرة أخرى، قال نوكس فور انتهائه من المكالمة : لديهم مخفر شرطة بالفعل في بلدة بولتون، وسوف يرسلون شرطيًّا إلينا، لكن هناك مشاكل ما، ولذا سوف يستغرق الأمر بعض الوقت.

- كم سيستغرق الأمر تقريبًا؟

- ساعة على الأقل.

- وما هي المشاكل التي يواجهونها في بولتون؟

- لم يقوموا بإيضاح تلك النقطة.

- حسنًا، عليك بتشغيل المحرك.

- لديهم معاطف تقيهم البرد.

- لن تكون كافية.

- أنا قلق بشأن الوقود.

- وقود «الديزل» مؤمن ومحصن بالحافلات على خلاف «الجازولين» بالسيارات.

- ومن أين تعرف هذا؟

- اعتدت العمل مع الشاحنات والمقطورات بالجيش، هل لديك كشاف؟

- لماذا؟

- سأتفقد قاع الحافلة للتأكد من عدم وجود تسريب،

سأطرق مرتين على الأرض من تحت لو بدا لي أنه لا يوجد تسرب، قم بعدها بتشغيل المحرك، لو رأيت أي وهج سأطرق مرة أخرى فتقوم بإطفائه فورًا..

- لا أعلم.. هناك مخاطرة في الأمر.

- لكننا نستطيع فعلها، انظر إليهم، يرتجفون من الصقيع بالفعل، علينا فعل شيء.

هز نوكس رأسه، وبحث في درج آخر ثم أخرج كشافًا وجرب تشغيله قبل أن يعطيه لريتشر..

خرج ريتشر من الحافلة وارتجف بردًا ثم ألقى نظرة صوب سيارة المحامي، وانبطح أرضًا بعدها ليبدأ في الزحف أسفل الحافلة واضعًا الكشاف في فمه مستخدمًا كلتا يديه لإزاحة الثلوج عن طريقه..

وصل أسفل الشاحنة وتعلق بالإطار الخلفي، سحب نفسه لأعلى والكشاف في فمه وواصل التقدم تجاه خزان الوقود، اقترب منه وتعلق بيد واحدة بالإطار محملًا طاقة جسده لأعلى، وصوّب الكشاف ناحية المحرك بعدما شغله ثم طرق به مرتين ناحية الإطار المعدني بعدما تأكد من عدم وجود تسريب..

هدر صوت المحرك وبدأ في العمل.. راقبه ريتشر بحرص والصقيع يهاجم جسده.. لا شرارة.. لا وهج.. لا نيران، قاوم ريتشر الصقيع وظل رابضًا بموقعه عدة دقائق أخرى وهو يراقب المحرك.. لم يحدث شيء..

زحف عائدًا لنهاية الحافلة ثم تدحرج ووقف بعدها نافضًا الثلج عن ثيابه، ارتجف مرة أخرى ثم ركض فوق الثلوج متجهًا لباب الحافلة، كان نوكس ينتظره بالداخل.. وفور دخول ريتشر أصدر المحرك صريرًا عاليًا ثم توقف عن العمل.

- ما الذي رأيته؟

- الكثير من الأشياء المكسورة.

- أنابيب محطمة؟

- نعم.

- إذًا لقد خرب المحرك ولن يعمل..

- اتصل بشرطة بولتون مرة أخرى يا رجل، الوضع خطر..

رفع نوكس هاتفه بتوتر وأجرى المكالمة، بينما التفت ريتشر ونظر للركاب الذين بدءوا في الارتجاف بردًا بالفعل..

انتهى نوكس من المكالمة فالتفت إليه ريتشر متسائلًا:

- إنهم بصدد إرسال سيارة على وجه السرعة.

- سيارة واحدة لن تكفي.

- لقد قلت لهم هذا.

- لن نصمد مع حلول العاصفتين.

ارتجف ريتشر من الصقيع وشعر بخدرٍ في أنامله.. ثم مد رأسه ليطمئن على الرجل في السيارة قبل أن يعقد حاجبيه في حيرة، لقد تمكن الرجل من الخروج من سيارته فيما يبدو ودفعها بأعجوبة ثم الرحيل بها، لكن كيف؟..

تأوه أحد الركاب المسنين فالتفت ريتشر للخلف وتشتت انتباهه إليهم.

ثم تلفت حوله شاعرًا بالعجز قبل أن ينظر للسماء في انتظار حلول العاصفة الأولى..

آملًا أن تصل سيارة الشرطي قبلها..

الساعة الخامسة عصرًا إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن تسع وخمسون ساعة..

عزيزي القارئ، هذه النسخة من رواية (جرائم بلدة بولتون) تم تجهيزها لصالح مكتبة ضاد الإلكترونية على تطبيق تيليجرام! فإن كنت قد تعبت في تحميل هذه النسخة من المواقع الإلكترونية الأخرى، فتذكر أنه بمقدورك تحميل هذه الرواية وأي رواية غير متوفرة بصيغة pdf بضغطة زر واحدة، وذلك عن طريق قناتنا على تيليجرام. رابط القناة (@twinkling4) نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة.

الفصل الثالث

الخوف يصنع المعجزات، وهذا ما حدث مع المحامي، لقد زحف خارج السيارة وظل يحفر الثلج بعيدًا قبل أن يدلف لمقعد القيادة ويزيح الزجاج المهشم، أخذ نفسًا عميقًا وأدار المحرك بعدما تأكد من أن مخاوفه بشأن خزان الوقود لم تكن في محلها، أغمض عينيه وهو يتمتم : أرجوك تحركي..

وتحققت المعجزة، حيث دار المحرك ومعه إطارات السيارة، وابتعد بها وسط الرياح العاصفة بعيدًا عن الحافلة..

وصل بيته بعد خمس وأربعين دقيقة في رحلة بطيئة وسط الثلوج، كان بيته يطل على حديقة، ويتكون من طابقين، ضغط على زر جهاز التحكم عن بعد وانفتح باب المرآب فدخل بالسيارة وخرج منها وهو يرتجف بردًا، ثم ضغط زر الإقفال لكن باب المرآب علق في المنتصف.. فزفر في ضيق وذهب ليجذبه بيده، فلا مجال لترك الثلوج تنهمر داخل المرآب ؛ لأن البوابة ستتجمد بعدها، نظر في ساعته بعدما انتهى.. ليجدها الخامسة وثلاث وخمسين دقيقة..

***

الساعة الخامسة وأربعون دقيقة..

حاول ريتشر تدفئة نفسه مع تزايد الصقيع بشتى الطرق،

وكذلك نوكس وباقي الركاب.. فقد كانت نوافذ الحافلة كلها مغطاة بالثلوج في تلك اللحظة.. والعاصفة بدأت تهب من الشمال، ثم سطعت أضواء مصابيح سيارة الشرطي، وتوقفت السيارة أمام الحافلة وينزل منها رجل فارع القامة قوي البنية يرتدي معطفًا ثقيلًا وقفازات، ثم سار ببطء صوب الحافلة وقدماه تنغرزان في الثلوج ودلف للحافلة بعدها.. نظر إليه ريتشر فقال الشرطي : اسمي أندرو بيترسون، من بلدة بولتون..

قالها مطمئنًا للركاب ثم بدأ في تفقد أحوالهم، كان يحاول أن يبدو لطيفًا معهم للغاية، لكن ريتشر لاحظ أنه يُخفي شيئًا ما خلف عينيه حادتي الذكاء، كأنه يفكر بمسألة أخرى أكثر خطورة من إنقاذ ركاب حافلة عالقة وسط الثلوج.. وبدأ انطباع ريتشر هذا في التحول لاستنتاج عندما أخذ أندرو بيترسون يطرح عليهم أسئلة من طراز «من أين أنتم؟» و«إلي أين كنتم تتجهون؟» و«هل لديكم حجوزات فندق مسبقة؟».. حيث لم يبدُ لريتشر أن تلك المعلومات مهمة في الوقت الحالي إلا لو كانت هناك أسباب خفية لهذا، بعدها تفقد بيترسون هوية نوكس سائق الحافلة ثم التفت لريتشر وقال بنفس الابتسامة اللطيفة : مرحبًا يا سيدي، أنا أندرو بيترسون من شرطة بولتون، هل تمانع أن تخبرني باسمك؟

كثير من رجال الشرطة كانوا رجال جيش سابقين، لكن لم يبدُ لريتشر أن بيترسون أحدهم، فقد بدا كرجل

لم يرتحل كثيرًا خارج بولتون، فعلى الأغلب أنه الطالب المثالي في المدرسة الذي التحق بمكتب المأمور وأكمل حياته في بلدته الصغيرة، أخبره ريتشر باسمه فسأله بيترسون : هل أنت جزء من الجولة السياحية؟

- كلا، لقد التحقت بالحافلة للرحيل من مينيسوتا لأبتعد عن هذا الطقس.

- ألا تحب أجواءنا؟

- ليس في اللحظة الحالية..

- هل دفعت مقابل رحلتك في الحالة؟

- نعم.

التفت بيترسون لنوكس فقام الأخير بتأكيد المعلومة، ثم أردف بيترسون : هل أنت في عطلة ما يا سيد ريتشر؟

- كلا.

- ما هو وضعك بالضبط؟

- وضعي؟ دعني أخبرك بحقيقة الأمر، إن وضعي لا يهم بتاتًا في تلك الآونة.. لا أحد منا يرغب في الوجود هنا في تلك اللحظة، لا يوجد رابط بين هويتنا ودوافعنا للسفر وكوننا تعرضنا لحادثة.. أيًّا كان ما يؤرق بالك فهو ليس على متن تلك الحافلة.

- من قال إن هناك شيئًا يؤرق بالي؟

- أنا أقول هذا.

نظر بيترسون بحدة لريتشر ثم قال : ما الذي حدث للحافلة؟

- افترض أنها انزلقت فوق الأرض الثلجية، لقد كنت نائمًا عند وقوع الحادثة.

- هناك لافتات تحذيرية في مقدمة الجسر ونهايته.

تدخل نوكس قائلًا : لقد مرت جوارنا سيارة مسرعة تسببت بانحرافنا عن الطريق.

- وأين تلك السيارة؟

- رحلت.

هم بيترسون بقول شيء آخر عندما أسرع ريتشر بالحديث : عليك إخراجنا من تلك الحافلة قبل أن نتجمد حتى الموت.

صمت بيترسون مفكرًا وبدا أنه يحسم أمره ثم قال بصوت جهوري محدثًا الركاب : لا تقلقوا يا سادة سوف نخرجكم من هنا وننقلكم إلى البلدة حيثما نتمكن من الاعتناء بكم جيدًا هناك.. سوف أبدأ بأخذ المصابين منكم وأرسل سيارات أخرى لأخذكم.

ثم أردف : السيدة ذات عظام الكتف المكسورة والسيدة ذات الرسغ المصاب سوف يرحلان معي الآن.

ساعده ريتشر في نقل السيدتين للسيارة ورحل بيترسون بعدها..

التفت ريتشر عائدًا للحافلة وسط العاصفة، بينما تطلق الرياح صفيرًا ويتساقط الثلج، لم يستطع ريتشر رؤية الحافلة وشعر أنه يسير في طريق ممتد للأبد وتخيل نفسه يسير حتى يسقط أرضًا ويتحول لجثة مجمدة.. لكنه حفر بقدميه للأمام بقوة وتبين طريقه بصعوبة في النهاية حتى وصل للحافلة.

السادسة إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن ثمانٍ وخمسون ساعة..

***

أربع عشرة جريمة، جلس الرجل الذي كان يتحدث مع المحامي عبر الهاتف فوق مقعده، وهو يكتب في ورقة ما قاله له المحامي المرتعد خوفًا عبر الهاتف، وعندما انتهى من الكتابة وقف ونظر من النافذة وهناك شبح ابتسامة على وجهه.

***

زفر نوكس وهو جالس بمقدمة الحافلة جوار ريتشر ونظر له في يأس، بينما يسري التخدير بأجسادهم إثر الصقيع، ثم لاحت أمام أعينهم حافلة تقترب من بولتون، في البدء ظنوا أنها حافلة مدرسية، ثم رأوا عبارة «إصلاحية بولتون لنقل السجناء» مكتوبة عليها، تبادلوا

نظرة قبل أن يقول نوكس : أفضل من لا شيء.

- أنا مستعد للدخول في أي مكان في سبيل التدفئة.

لم تتوقف حافلة نقل السجناء جوار باب الحافلة الأمامي المغطى بالثلوج، وإنما توقفت بالخلف، وقد فهم ريتشر سبب ذلك، وهو أن هناك باب خروج طوارئ بالخلف ولا بد أن بيترسون قد لاحظه، فهو رجل قوي الملاحظة..

بدأت عملية نقل الركاب وجرت بشكل أسرع مما توقعه ريتشر رغم سنهم، لا بد أن ظروف الطقس قد أعطتهم دافعًا قويًّا للحركة، فقد كانت الأرامل ممتنة لمساعدة ريتشر ونوكس في حملهم ونقلهم للحافلة الجديدة الشاغرة، في حين ساعد الرجال المسنون أنفسهم، حتى صاروا جميعًا بالحافلة الجديدة في النهاية، وقد رفع السائق مستوى التدفئة لدرجة قوية وسرعان ما سرى الدفء في أجسادهم، وهكذا تحركت حافلة نقل المساجين بريتشر وباقي الركاب وسارت ببطء في الطريق المثلج بقلب العاصفة، بعد برهة وقبل مرورهم بلافتة «مصلحة السجون، لا تتوقف لنقل المتطفلين» سألت إحدى الراكبات بشيء من التوجس الممزوج بالقلق : هل ستضعوننا في السجن لحين انتهاء العاصفة؟ وبدا لريتشر أن هذا سؤالًا حتميًّا كان لا بد من طرحه بعدما طاف بذهن الجميع، غمغم ريتشر : لا أعتقد ذلك، سوف نذهب لنزل أو شيء من هذا القبيل، ربما بيت لتأجير الغرف..

قبل أن تجيب السيدة قال السائق : لا توجد غرف شاغرة بالنزل.

تنهد ريتشر وتبادل نظرة صامتة مع السيدة، وواصلت إطارات الحافلة طريقها.

الساعة السابعة إلا خمس دقائق باقٍ من الزمن سبع وخمسون ساعة..

لامس جبين ريتشر زجاج نافذة الحافلة وعيناه تنغلقان في خلسة من النوم إثر الصقيع، ثم انتبه عند مرورهم جوار لافتة أخرى مكتوب عليها «مرحبًا بكم في بلدة بولتون، تعداد السكان اثنا عشر ألف ومائتان نسمة».

رفع ريتشر حاجبيه وعدل رأسه حين أدرك أنها ليست ببلدة صغيرة بعد كل شيء، لم يبطئ السائق من سرعة الحافلة ولم يزد منها بنفس الوقت، بل واصل القيادة كأن اللافتة لا أهمية لها.. ثم توقفت الحافلة في النهاية أمام مخفر الشرطة الخاص ببلدة بولتون، استطاع ريتشر تمييز المخفر وسط رياح العاصفة والثلوج المنهمرة بصعوبة، صفير الرياح يعوي كوحش ضرير، الحقيقة أن ريتشر لم يستطع رؤية ملامح البلدة عندما وصلوا إليها بسبب الأجواء الكابوسية المحيطة بهم، فتنهد مرة أخرى ووقف ثم ذهب لنوكس وبدأ كلاهما في حمل الحقائب ونقلها لمخفر الشرطة، ثم عاد الاثنان وساعدا الركاب في المرور من الحافلة للمبنى الصغير حيثما استقر مكتب استقبال شاغر،

ثم ظهر شرطي متقدم في العمر والذي بدا لريتشر أنه نسخة أكبر سنًّا من بيترسون شرطي البلدة بعد مرور خمسة عشر عامًا عليه.. كان يرتدي حزامًا ملتفًّا حول خاصره ومعلق به مسدس ساقية يستقر بغمده، وزي أزرق رسمي خاص بمكتب المأمور، ومثل بيترسون بدا الشرطي الكهل مشغول العقل بأشياء أخرى، قال لهم بعدما دخلوا جميعًا المخفر : مرحبًا بكم في بلدة بولتون، اسمي توم هولاند، وأنا المأمور هنا، غايتي هي راحتكم والاعتناء بكم جميعًا في تلك الليلة القاسية، الأخبار السيئة هي عدم توفر غرف بنزل البلدة، ولكن الخبر الجيد أن سكان بلدة بولتون الطيبين ليسوا معدومي حسن الضيافة والإنسانية، ولن يتركوا مجموعة من الغرباء وعابري السبيل لعاصفة هوجاء كتلك، ولذا كل واحد من أهل البلدة يعد غرفة الضيوف في بيته لاستقبالكم الآن، كضيوف مكرمين، بل كأصدقاء مقربين كذلك.

دارت غمغمة خافتة ممتلئة بالحيرة والدهشة بين الركاب وهم يستوعبون الأمر قبل أن تعتلي الغبطة وجوههم، وفكر ريتشر : ثلاثة عشر بيتًا لثلاثة عشر راكبًا..

كان يعلم أن اسمه غير مسجل بالسجلات الرسمية لركاب الحافلة، ولا بد أن الأمر لا يزال يثير التساؤلات داخل رأس بيترسون، وربما توم هولاند كذلك...

كانت ردهة المخفر مكتظة بالركاب، وبدأت عملية الإخلاء ونقلهم للبيوت، وبدا الإرهاق على وجه نوكس

الذي كان يستعد للذهاب بدوره، بينما ظل ريتشر واقفًا مكانه.. وفي النهاية رحل الجميع في حين ظل هو في موضعه، حتى نظر له توم هولاند ثم قال ببطء : لنتحدث في مكتبي..

الثامنة إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن ست وخمسون ساعة.

الفصل الرابع

مكتب المأمور هولاند كان كمئات المكاتب الرسمية التي رآها ريتشر من قبل، وأمام مقعد المأمور استقرت صورة عائلية داخل إطار تستند بكسل فوق المنضدة، وبداخل الصورة يقف هولاند وهو يحيط بذراعه كتف شاب يافع.. لم يتطلب الأمر الكثير من المجهود العقلي لكي يخمن ريتشر أن الشاب هو ابن هولاند، وجوارهم تقف امرأة مبتسمة تحمل طفلة، امرأة وقور ذات جمال شاحب وراقٍ، على الأغلب أنها زوجة هولاند.. بينما بدا لريتشر أن الطفلة تبلغ الثامنة أو التاسعة من العمر.

دخل هولاند المكتب بتثاقل ممزوج بروتينية وجلس على المقعد خلف المنضدة ثم رفع رأسه لريتشر الذي جلس أمامه، ساد الصمت لبرهة من الوقت، ولم يبالِ ريتشر بأي شيء في تلك اللحظة عدا الدفء القادم من جهاز التدفئة.. ثم قال في النهاية وهو يفرك أصابعه : حسنًا.

- لقد أردنا توفير مكان لك مثل باقي الركاب..

- لكن رجل وحيد ضخم الجثة في الثلاثينيات لن يكون مصدر أمان وراحة لسكان بلدة بولتون الطيبين.

ابتسم هولاند بإرهاق وقال : ليس بالضبط، لقد تطوع بيترسون لاستضافتك بنفسه لكنه مشغول الآن، ولذا عليك انتظاره.

- وفيم هو مشغول بالضبط؟

نظر هولاند لريتشر بطرف عينه وطقطق بلسانه محذرًا إياه من الفضول ثم رد بنبرة جافة : في الأشياء التي ينشغل بها رجال الشرطة.

- حسنًا، الحقيقة أن بلدة بولتون أكبر مما توقعت، خصوصًا أنها لم تكن موجودة على الخرائط الإلكترونية.

- لكنها محتفظة بمكانها في الخرائط الورقية، وهذا يعطيك سببًا آخر لكي لا تضع ثقتك الكاملة بالتكنولوجيا..

كف جسد ريتشر عن الارتجاف إثر فاعلية جهاز التدفئة، بل إنه بدأ في التصبب عرقًا.. وتابع هولاند كلامه : نحن بلدة صغيرة تكبر يومًا بعد يوم..

- لأن سجن المقاطعة يقع في حدودكم..

- وكيف عرفت هذا؟

- اللافتة على الطريق وحافلة الإصلاحية.

أومأ هولاند برأسه وقال بنوع من الفخر : لقد تنافسنا للحصول على إذن الوكالة الفيدرالية في إنشاء سجن المقاطعة في بولتون مع بلدان أخرى، أنت تفهم ما أرمي إليه، رواتب ووظائف وزوار من كافة الأرجاء، كل هذا ينشط التجارة والحالة الاقتصادية لبولتون..

- ولماذا كل غرف النزل مشغولة الليلة؟ هل هذا يوم الزيارة الكبرى بالسجن غدًا؟

- هذه هي الحقيقة بالضبط، غدًا موعد الزيارات الأسبوعية، نظامنا يعتمد ثلاث زيارات أسبوعية بمعدل أيام متفرقة مما يجبر الأقارب والزوار عمومًا على المبيت في البلدة، هذا يعني دولارات واردة للنزل والمطعم وغيره..

- وأين يقع السجن؟

- على بعد خمسة أميال، في الشمال.. موقع ممتاز لو طلبت رأيي..

- أنت مأمور سعيد الحظ جدًّا.

- لقد تعلمت منذ عقود ألا أثق بالحظ كحليف..

عاد نائب للمأمور حاملًا مفاتيح سيارة، كان يطمئن على توزيع واستقرار الركاب داخل بيوت أهل البلدة، ثم أعطى المأمور ملفًا أحمر اللون، التقطه الأخير وطالعه بعينيه بينما يبعده عن ناظري ريتشر الذي استطاع رؤية محتوى الملف بسهولة على انعكاس الزجاج الكبير القابع خلف المأمور، ما احتواه الملف كان صورًا لمسرح جريمة، صورة لجثة رجل مستلقٍ وسط غرفة معيشة ومن حوله الطبشور الأبيض الخاص بالطب الشرعي، لم يكن هناك دماء وفكر ريتشر أن أحدهم قد دق عنقه أو ضربه في مؤخرة رأسه حتى الموت، وتذكر ما قاله نوكس في الحافلة بعدما أجرى اتصاله ببلدة بولتون، عن أمر أنهم سيرسلون أحدهم لكنهم مشغولون بشدة في شأن ما.. بدا له أن هذا الشأن هو ما يوجد داخل هذا الملف الآن، ثم رفع المأمور رأسه

ونظر لريتشر في صمت..

الثامنة مساء في بلدة بولتون..

***

على بعد آلاف الأميال، سطع القمر في سماء «مكسيكو سيتي» حيث كان الجو أكثر دفئًا واستقرارًا.. وداخل تلك الفيلا المحاطة بسياج هائل وحديقة خضراء جميلة جلس الرجل الذي تلقى المكالمة من المحامي، وأجرى اتصالًا آخر، ولكن ليس بمحامٍ تلك المرة، بل بقاتل محترف.. وأكد له الأخير أن الأمر كله سيتم خلال اثنتي عشرة ساعة..

***

عاد أندرو بيترسون لمخفر الشرطة في التاسعة وعشرين دقيقة مساءً، أطل برأسه داخل مكتب المأمور توم هولاند فخرج له الأخير وتبادل معه حديثًا خافتًا في الردهة بعيدًا عن أذن ريتشر، الذي افترض بدوره أن بيترسون في مسرح الجريمة نفسه؛ ولذا لم يكن هناك حاجة له كي يرى الملف، عاد هولاند وبيترسون بعدها للمكتب والإرهاق بادٍ بشدة على أجسادهم، تعابير وجوههم تقول إنهم بحاجة لنوم طويل وعميق بلا تفكير، كان ريتشر يعرف هذا الشعور جيدًا، غمغم بيترسون بصوت متعب : هيا بنا يا ريتشر، سوف تبيت معي..

التاسعة وخمس عشرون دقيقة مساءً، باقٍ من الزمن

أربع وخمسون ساعة..

***

وقف الرجل في شرفته بالفيلا ذات السياج والحديقة الجميلة في «مكسيكو سيتي»، كان ينظر للسماء وهو يجري عملية حسابية داخل عقله.. اسمه بلاتو، وربما تلاحظ أنه قصير القامة لحد مدهش، يفترض الكثيرون أنه من أصل برازيلي بسبب اسمه، كما يفترضون كذلك أنه كعادة البرازيليين فإن اسم بلاتو اختصار لاسم أطول وأكثر تعقيدًا.. مثلما قرر لاعب الكرة الشهير تسميه نفسه «بيليه» بدلًا من أدسون أرانتوس دو ناسيمينتو، أو مثلما قرر ريكارد إيزسيون دوس سانتون ليتيا تسمية نفسه بـ» كاكا».. ولطالما اعتقد آخرون أن بلاتو كولومبي الأصل.. وهذا افتراض أكثر منطقية بسبب طبيعة عمله بينما يصر آخرون أنه مكسيكي قلبًا وقالبًا.. وربما يختلف المرء في تحديد جنسية بلاتو لكن لا يوجد خلاف على كونه قصير القامة رغم أنه لا أحد يجرؤ على التصريح له بهذا بشكل مباشر.. ليس بعد ما حدث لمارتينز على أي حال، لقد فقد الأخير أعصابه ذات مرة ودعا بلاتو بـ»القزم» وما حدث بعدها كان وصول مارتينز للمستشفى وهو فاقد الوعي، وقام الأطباء - الذين يعملون لدى بلاتو مثل كل المسئولين - ببتر كل أطرافه.. وأرسل بعدها بلاتو هدية لعائلة مارتينز، صندوقًا كبيرًا بدا أنه محمل بطعام مجمد، ولكن لم يكن هناك طعام داخل الصندوق بل

أطراف مارتينز الأربعة محفوظة داخل الفورمالين وترقد أمام أعين عائلة الأخير المرتاعة، ومن بعدها لم يدعُ أحد بلاتو بالقزم أو اتهموه بقصر القامة أبدًا..

وها هو الآن يقف في شرفته وهو يجري عملية حسابية بسيطة، سوف يرسل رجله، القاتل المحترف، للتخلص من الشاهدة.. لا يوجد حل أفضل من هذا.. ومن باب الاحتياط سيقتل المحامي كذلك..

على المرء دومًا أن يتوخى الحذر والحيطة رغم كل شيء.

الفصل الخامس

خرج كل من بيترسون وريتشر إلى قلب الليل المثلج ثم دلفوا لسيارة الأول الذي سأل ريتشر إن كان يريد تناول الطعام، وكان رد الأخير أنه يتضور جوعًا بالفعل، فقاد بيترسون سيارته لمطعم البلدة بالقرب من محطة وقود تطل على الطريق الرئيسي، ثم توقف بسيارته أمام المطعم ونظر للسماء قبل أن يتمتم : لقد توقفت الثلوج، لكن الصقيع مستمر رغم ذلك.. قاوم ريتشر الرجفة السارية بجسده وقال بينما يخرج من السيارة : كنت أعتقد أن هناك عاصفة عاتية في طريقها إلى هنا..

- هناك عاصفتان.. الصقيع هو مرسولهم..

- ومتى سيصلون إلى هنا؟

- عما قريب..

- وسوف تقل درجة الصقيع قبل أن تنهمر الثلوج أليس كذلك؟

- نعم سوف تقل..

- جيد، أنا أفضل الثلوج بدلًا من الصقيع في أي وقت..

- أنت لم ترَ صقيعًا بعدُ..

- أعلم ما ترمي إليه، لقد قضيت شتاء كاملًا في كوريا

الشمالية، كان الجو أكثر قسوة من هنا بكثير، لكن الجيش أعطاني معطفًا ثقيلًا يقي البرد وكل شيء.. كما أن كوريا الشمالية كانت.. مثيرة للاهتمام وهو ما ساعدني في تقضية الوقت..

دخل الاثنان للمطعم الذي كان شاغرًا تمامًا ونظر بيترسون لريتشر بعد عبارته الأخيرة ثم قال : بولتون مثيرة للاهتمام كذلك..

- هل تقصد بسبب الرجل المقتول؟

- نعم.. ها.. عن أي رجل تتحدث؟

ابتسم ريتشر لزلة لسان بيترسون وقال : لقد اعترفت للتو لا يوجد مناص أو وسيلة للتراجع.

- أرجوك لا تخبرني أن المأمور هولاند قد حكى لك عنه.

- كلا لكني ظللت في مكتبه لفترة لا بأس بها.

- بمفردك؟ تركك بمفردك في المكتب؟

- كلا، لم يتركني لثانية واحدة.

- إذًا هل جعلك ترى الصور؟

- لقد حاول قصارى جهده كي لا أراها لكن نوافذه النظيفة واللامعة قد أدت الغرض.

- همم وهل رأيت كل الصور؟

- لم أستطع التحديد هل هذا الرجل ميت أم فاقد للوعي؟

- وقمتَ بعدها بنصب نفخ لي واستدراجي بالكلام بموضوع كوريا هذا!

- أنا دومًا في حالة نهم للمعرفة، إنها سمة فضول تقليدية..

أتت بعدها نادلة في العقد الرابع من العمر تبدو مرهقة وتبغي النوم بدورها، طلب كلاهما الطعام وأضاف ريتشر القهوة السوداء في طلباتهم ثم سأله بيترسون بعد رحيل النادلة : كم من الوقت خدمت في الجيش كضابط شرطة عسكرية؟

- ثلاثة عشر عامًا.

- وتلقيت تدريبًا طبيًّا؟

- هل أخبرك ركاب الحافلة بهذا؟

أومأ بيترسون برأسه وأضاف : والسائق كذلك..

- لقد كنت تتفقد أمري إذًا؟

- بالتأكيد تلك هي وظيفتي.

- ورغم ذلك عرضت عليّ المبيت عندك؟

- هل لديك مكان آخر ترغب بالذهاب إليه لقضاء ليلتك؟

- أعتقد أنك عرضت عليَّ المبيت لأنك تريد إبقائي

تحت المراقبة.

وصلت النادلة حاملة أطباق الطعام ووضعتهم ثم رحلت في صمت فقال بيترسون دون أن يلمس طبقه : ما الذي كنت تفعله بالضبط إبان عملك في الشرطة العسكرية؟

- حل الجرائم.

- جرائم خطرة؟

- أحيانًا.

- جرائم قتل؟

- آه هه.

- وما هو مقدار تدريبك الطبي الذي تلقيته هناك؟

- هل أنت قلق بشأن تسمم الطعام هنا أو شيء كهذا؟

- بإمكانك القول بأني فضولي مثلك.

- حسنًا.. لم أتلقَّ تدريبًا طبيًّا حقيقيًّا لقد كنت أقول هذا لطمأنة الركاب ليس أكثر.

- لقد أشادوا بك.

- لا تثق بما قالوه فهم لا يعرفونني.

لم يعلق بيترسون وبدأ في تناول طعامه بشرود، بينما كان ريتشر قد اقترب من الانتهاء تمامًا وإفراغ طبقه.. ثم وجه سؤالًا لبيترسون.

- أين وجدتم القتيل؟ لقد رأيت صورة له وسط الثلوج لكن لم يكن هناك دماء، فارتأيت أنها ضربة من مؤخرة الرأس وأعتقد أنه قد قُتل في مكان آخر، وتم نقل جثته للثلوج، انطباعي الأول من وضعية استلقاء الجثة أنه قتل في غرفة معيشته ببيته، هذا أول تخيل جال بخاطري عند رؤية صورة الجثة وسط الثلوج..

واصل بيترسون تناول الطعام دون تعليق ثم قال في النهاية وهو يلوك الطعام ببطء : أين تقطن؟

كان هذا سؤالًا صعبًا بالنسبة لريتشر؛ لأن الإجابة لم تكن بسيطة أبدًا، هو يقطن بالإمكان.. طيلة عمره هو بلا منزل.. متنقل ورحالة.. من مكان لآخر.. ابن رجل عسكري وولد في منشأة عسكرية، أم أنهم يقولون إنها قاعدة عسكرية الآن، لا يهم، لا فارق في الأمر.. من الصعب دومًا الإجابة عن سؤال «أين موطنك؟» عندما يكون موجهًا لجاك ريتشر، فهو رجل بلا منزل..

- أنا رحالة، نوع من البدو(1)..

هز بيترسون رأسه ثم قال : «النوماد» أو البدو لديهم حيوانات يرتحلون لإيجاد خضرة من أجلهم.

- حسنًا أنا مثلهم ولكن بدون الجزء الخاص بالحيوانات.

- أنت مُشرد.

- ربما.

- ولا تمتلك حقائب ولا أمتعة.

- هل لديك اعتراض بشأن سفر المرء حرًّا وخفيفًا؟

- إنه سلوك غريب، وأنا لا أحب السلوك الغريب، الحقيقة أن كل رجال الشرطة لا يحبون السلوك الغريب.

- البشر يستغربون ما لا يعتادونه، لماذا تعتبرون الترحال من مكان لآخر لرؤية العالم بدلًا من البقاء بنفس البقعة من الأرض طيلة حياتك أمرًا غريبًا؟

صمت بيترسون وهو يفكر بهذا السؤال الفلسفي قبل أن يرد بنوع من الاحتجاج : الجميع يمتلكون أمتعة.

- لست في حاجة لامتلاك أمتعة.

ظل بيترسون صامتًا، وكان ريتشر قد انتهى من تناول طعامه وبدأ يحتسي كوب القهوة الضخم قبل أن يقول : لا تقلق يا بيترسون، أنا لست بمصدر خطر، أنا لم أسمع عن بولتون من قبل ولولا الحادثة لما سمعت عنها أبدًا، في الأغلب كنت ستجدني كسائح متحمس أتفقد جبال «ماونت راشمور».

هز بيترسون رأسه في تردد.. وغمغم : حسنًا.

العاشرة إلا خمس دقائق.. باقٍ من الزمن أربع وخمسون ساعة.

***

على بعد سبعمائة ميل - بالتقريب - جلس بلاتو في فيلته وهو يأكل أيضًا لحم ضأن تم استيراده خصيصًا له من الأرجنتين.. كان يتناول طعامه ببطء كحيوان بري انتهى للتو من تحجيم فريسته، ويرتدي بزة فُصلت له بعناية على يد خياط أوروبي محترف، انتهى بلاتو من تناول الطعام ووضع شوكته جانبًا ثم التقط هاتفه وأجرى مكالمة..

- لا يوجد سبب عملي للانتظار، أرسل رجلنا للتخلص من الشاهد الآن.

- هناك عاصفة ثلجية تعيق حركة الوصول.

- إذًا أرسله فور انتهائها.

- حسنًا.

- وتخلص من المحامي كذلك.

صمت محدثه قليلًا ثم قال : حسنًا.

أنهى بلاتو المكالمة بعدما أعطى الرجل للتو رخصة للقتل..

***

نظر ريتشر من نافذة المطعم للشارع المظلم ثم قال لبيترسون : أنا متعجب قليلًا من طريقة ترتيبك لأولياتك، لقد تأخرت على عشرين راكبًا مسنًّا عرضة للتجمد أحياء من أجل رجل واحد ميت.

- لم أفعل هذا عمدًا.

- أنت أخبرت نوكس أنه لا يوجد عنصر شرطة واحد متوفر للمساعدة.

- وهذا كان حقيقيًّا في هذا الوقت، نائب المأمور كان ينفذ مأمورية حينها.

- أي مأمورية تلك؟

- هذا لا يخصك، لو لديك شكوى ما بخصوص شرطة بولتون قدمها للمأمور هولاند.

- كان بإمكاني التعرض لحمى شديدة بسبب تأخر شرطة بولتون.

- لكن هذا لم يحدث.

- من المبكر تحديد هذا.

انتهى ريتشر عندها من كوب قهوته عندما رن هاتف بيترسون، حيث تلقى الأخير المكالمة باقتضاب ثم قال لريتشر : عليَّ الرحيل، انتظرني هنا.

- لا أستطيع فعل هذا.

نظر له بيترسون بتساؤل فأردف ريتشر : المكان يهم بالإغلاق، وأنا لن أتجول بالبلدة في هذا الطقس المروع..

عبس وجه بيترسون فأضاف ريتشر : سأنتظر في سيارتك بصمت.. اعتبرني غير موجود..

- حسنًا.

قالها بيترسون بعدم اقتناع، وترك ريتشر عشرين دولارًا بقشيشًا للنادلة المراهقة التي ابتسمت له عندما فعل هذا، ثم رحل مع بيترسون..

دارت عجلات سيارة بيترسون وسط الثلوج، ولم يتوقف عند أي إشارات مرورية أو حواجز تهدئة السرعة، ومرت السيارة جوار آلات شفط الثلوج دون أن تبطئ من سرعتها كذلك فقال ريتشر: إلى أين نحن ذاهبون؟

- بيوت الحي الغربي.

- لماذا؟

- هناك متطفلون ليليون.

- هل اقتحموا بيت أحدهم؟

- كلا، يجولون في الشارع والحارس الليلي، النوبتجي، قد أبلغ عنهم..

قالها بيترسون دون أي توضيح آخر فرفع ريتشر حاجبيه بحيرة.. أي نوع من المتطفلين الليليين هذا؟

***

انتهى الرجل في المكسيك من تلقي أوامر بلاتو بالقتل، التخلص من الشاهدة والمحامي.. ثم أجرى مكالمة بعيدة المدى بعدها للولايات المتحدة، الساعة الحادية عشرة

مساء بتوقيت المكسيك، وهناك فارق ساعة بينه وبين الولايات.. نقل الرجل تعليمات بلاتو للقاتل الأجير من باب التأكيد وأنهى المكالمة بعدما أعطاه الأخير تأكيدًا بالمهمة..

جلس الرجل دون أن يعاود الاتصال ببلاتو، لا يوجد سبب لفعل هذا، بلاتو لا يمتلك مفهومًا معينًا عن «التأكيد»، بالنسبة إليه الطاعة العمياء والتنفيذ هم أساس كل شيء، كلا لن يتصل به إلا بعدما تتحول الشاهدة والمحامي لجثث هامدة..

الفصل السادس

انبعثت من مذياع سيارة بيترسون عدة استجابات خاصة براديو الشرطة، كلها تتمحور حول المتطفلين الليليين بالحي الغربي.. بينما أدار بيترسون المقود يسارًا ثم انعطف يمينًا وهو يزيد من سرعة السيارة.. وأمام أعين ريتشر ظهرت عدة بيوت لها سياج صغير وتحيط بهم حدائق خضراء، بيوت من طابقين وقبو وملحق بهم مرآب صغير، هناك شارع مستوٍ يفصل بينهم، هذا هو الحي الغربي إذًا..

- ما هو عدد المتطفلين؟

- اثنان.

- هل جاءوا بسيارة؟

- كلا، سيرًا على الأقدام.

- وما الذي فعلوه على وجه التحديد؟

- يتجولون في المنطقة.

- لا أحد يتجول في المنطقة في هذا الجو دون سبب ولا سيارة، لا بد أنهم أخفوها في مكان ما.

عقد بيترسون حاجبيه مفكرًا بتلك الاحتمالية ثم واصل القيادة دون تعليق..

بعد أربع دقائق وجدوا المتطفلين الليليين، الاثنين.. يقفان في مواجهة ما مع رجل ثالث، ولم يكن الرجل

الثالث سوى المأمور هولاند.. سيارته تقبع خلفه وبابها مفتوح، تخيل ريتشر سيناريو البحث عنهم.. ثم إيجادهم.. الترجل من السيارة وإيقافهم، توم هولاند فعل كل هذا قبل وصول بيترسون وريتشر..

كلاهما فارعا القامة وبيض البشرة، يرتدون معاطف جلدية سوداء وسراويل تماثلهم في اللون.. قفازات سوداء.. أحذية سوداء.. نفس الملابس، نفس اللون، وفكر ريتشر وهو يتذكر ما رآه في ملف توم هولاند.. أن هذا نفس ما كان يرتديه الرجل الميت في الصورة كذلك كان توم هولاند يقف بتوتر أمام الرجلين اللذين بديا واثقين من أنفسهما.. وفهم ريتشر سبب توتر هولاند على الفور، حيث إن غمده كان خاليًا تمامًا من سلاحه، فهل سقط منه في الثلج؟ أم أنهم أخذوه منه؟ في كل الأحوال لم يبدُ الموقف إيجابيًّا بالنسبة لهولاند، أطال ريتشر النظر إليهم وسأل بيترسون : من هم؟

- أناس غير مرغوب بهم.

- لدرجة أن ينضم مأمور الشرطة بنفسه لعملية القبض عليهم.

- آه هه.

- ما الذي تريد فعله؟

- نتوخى الحذر فهم مسلحون في الأغلب..

- كذلك أنت.

- لا أريد أن أضع هولاند في موقف محرج بعدما فقد سلاحه.

- ليس خطؤه حقًّا في هذا الطقس.

لم يرد بيترسون وواصل متابعة الموقف بتأهب في حين أعاد ريتشر سؤاله : من هم؟

- لماذا أنت فضولي لتلك الدرجة؟

- لأنك خائف منهم.

- هذا ما تعتقده أنت.

- لو لم تكن خائفًا لكانوا مقيدين بالأصفاد في سيارتك الآن.

- هم راكبو دراجة بخارية ليس أكثر.

- لا أرى دراجات بخارية.

- ربما سقطت منهم في الثلوج.

- هذا هراء.

- ربما أنهم مدمنو مخدرات وهذا يجعلهم غير مأموني العواقب..

- هؤلاء ليسوا بمدمني مخدرات.

- هل تعرفهم؟

- ليس بالتحديد، لكنهم لا يبدون كمدمني مخدرات، كما أن ملامحهم مألوفة.

- هل تعرفهم بالاسم؟

- كلا.

- يقطنون بالبلدة؟

فكر بيترسون.. ثم فرك يديه طلبًا للدفء وهو يعتصر ذهنه قبل أن يتمتم وهو يضيق عينيه والبخار ينبعث مع أنفاسه : أعتقد أنهم يعيشون بجنوب البلدة، هم جماعة من الوافدين يشيدون نوعًا ما من المخيم ويقيمون به بدراجاتهم البخارية وستراتهم الجلدية السوداء، أهل البلدة لا يحبونهم كثيرًا..

- الرجل الميت هو أحدهم.

- نعم.

- ربما أنهم يبحثون عنه.

- أو يريدون الثأر.

على بعد ثلاثين مترًا وقف المأمور هولاند قبالة الرجلين وهو يرتجف من البرد أو الخوف لم يستطع ريتشر التحديد.

- آه بيترسون اعتقد أن عليك التدخل وفعل شيء ما..

لم يتحرك بيترسون فأردف ريتشر : إستراتيجية رائعة، ستتركهم يتجمدون حتى الموت.

لا تعليق من بيترسون.

ريتشر يتابع : لكن المشكلة أن هولاند سيكون أول من يتجمد..

ظل بيترسون مكانه بلا حركة.

- سوف آتي معك وأساعدك لو أردت يا بيترسون.

التفت بيترسون ونظر لريتشر قبل أن يقول بتردد : لكنك مدني.

- مجرد تقنيات.

- ملابسك غير مهيأة لهذا الطقس.

- لن يستغرق الأمر الكثير من الوقت.

- أنت غير مسلح.

- مع رجال كهذا لا أحتاج لسلاح.

- عصابة دراجات بخارية يتاجرون في «الماريجوانا» ليس بأمر يستهان به، فمن يتعاطونها لا يشعرون بالألم، وأنا أعلم من حركتهم الآن أنهم تحت هذا التأثير بالفعل.

- لا يوجد سبب لتواجد الألم كعنصر مؤثر، الأمر يتعلق بكونهم واعين وغير واعين، اذهب من اليسار وسوف أباغتهم من اليمين.

لمح ريتشر المأمور هولاند يقول شيئًا ما لهم، ثم تقدموا باتجاهه فتراجع للخلف.. وتعثر قبل أن يسقط جالسًا على ردفيه وسط الثلج، فقال ريتشر : لا وقت لنضيعه.

أومأ بيترسون برأسه وفتح باب السيارة..

وقال وهو يخرج منها: حاول ألا تصبهم بأذى ؛ فهم لم يفعلوا شيئًا حتى الآن.

- وماذا عن هولاند الجالس على الأرض؟

- المتهم بريء حتى تثبت أدانته.

لم يعلق ريتشر وسار كل منهما من اليمين واليسار باتجاه الرجلين اللذين صرفا انتباههم عن هولاند ونظروا لكل من ريتشر وبيترسون، دار الزمن ببطء وتراجع كل من الرجلين الملثمين بالأسود للخلف تاركين مجالًا لهولاند الساقط أرضًا كي يلتقط أنفاسه، ذهب بيترسون ووقف جواره بينما تحركت قدمي ريتشر ببطء وسط الثلج وهو يغلق ياقة سترته ويحكمها، ثم توقف الجميع وتبادلوا نظرات صامتة..

لم ينطق أحد بحرف.. صمت مطبق ونظرات محدقة..

الواقف منهم على يسار ريتشر كان فارع القامة وعريض المنكبين، الآخر أصغر حجمًا، ثم قطع ريتشر الصمت أخيرًا.

«حسنًا يا رفاق، إما أن ترحلوا عن هنا أو على أحدكم أن يعطيني معطفه فورًا».

كشر أحدهم عن أسنانه وزأر كحيوان وحشي في حين ظل الآخر صامتًا، ردة فعله كانت إخراج مدية من

جيبه وهذا ينقض مسألة «المتهم بريء حتى تثبت إدانته» بالنسبة لريتشر، وتحرك الاثنان بشكل متجاور وفعل ريتشر المثل، هنا صاح هولاند وهو يعتدل : اغربوا عن بلدتي أيها الملاعين، تجاهلوه تمامًا وأعينهم ترتكزان فوق ريتشر، بينما يقف بيترسون بتأهب، وكثير من العصبية ويتابع بعينيه ما يحدث، إنه هدوء ما قبل العاصفة، الثلج يتساقط كأنه جمهور في مباراة الملاكمة التي توشك على البدء، هنا انقض أحد الرجلين وصرخ الثاني ملوحًا بالمدية في وجه ريتشر الذي انحنى متفاديًا اللكمة واعتدل واقفًا موجهًا ضربة بكوعه كالقذيفة في وجه الرجل الأول، حتى سمع بيترسون من موضعه صوت تحطم عظام وجه الرجل، أنفه وفكه، وخر الرجل أرضًا، لثوانٍ تجمد الرجل ذو المدية مكانه وهو يشاهد ما حدث لصديقه ثم واصل انقضاضته حتى تلقى ركلة في ساقيه من ريتشر، فنفخ الرجل تعبيرًا عن الألم وأطلق ريتشر ذراعه الأيسر موجهًا لكمة أخيرة لصدغ الرجل لكن قدمه تعثرت بالثلج فأصابت اللكمة فك الآخر ذي المدية، فأعقبها ريتشر بلكمة أخرى ثم هوى بسيف اليد على مؤخرة عنق الرجل الذي سقط أرضًا يتمرغ في الثلج جوار الآخر فاقد الوعي، كان هولاند متجمدًا مكانه وفاغرًا فاه وهو يراقب ما حدث، أما بيترسون فقد غمغم : يا إلهي، ثم استدار بسرعة وذهب لسيارته ليتحدث عبر اللاسلكي قبل أن يعود قائلًا : لقد اتصلت بالإسعاف، وأضاف هولاند : ما الذي سنقوله لهم؟.. أعاد ريتشر وضع يديه داخل جيوبه طلبًا

للدفء وقال : لقد تعثرت.

- ها ! هذا ما سنقوله للإسعاف إنك تعثرت ؛ انزلقت فوق الثلج فارتطمت بهم، هكذا فحسب.

- كلا، لقد تعثرت فوق الثلج وبسبب ذلك لم تصب لكمتي رأس صاحب المدية، لو لم أتعثر لكان في عداد الموتى، وحينها ستطلب سيارة إسعاف وسيارة نقل موتى..

نقل بيترسون عينيه بين ريتشر وهولاند ثم غمغم : أنتظر في السيارة يا ريتشر.

***

لامست رأس المحامي الوسادة وهو متدثر بين الأغطية في فراشه، أطفاله قد سبقوه للنوم، بينما عبارة محدثه عبر الهاتف لا زالت تتردد داخل ذهنه : تخلص من الشاهد.

***

جلس ريتشر داخل السيارة بوجه مصاب بخدرٍ خفيف من الصقيع، فرك يديه ثم أعاد وضعهم داخل جيوبه، بينما يقف هولاند مع بيترسون ويتبادلون حديث بدا من الواضح أنه يدور عنه، فتنهد ريتشر..

وفي الخارج كان هولاند يتساءل : هل من المحتمل أن يكون هو الرجل؟

- لو كان هو الرجل، فلقد هاجم اثنين من حلفائه وسوف يرسلهما للمستشفى، لا يبدو هذا منطقيًّا..

- ربما هذا نخ من نوع ما، أو أن أحدهم كان على وشك الإدلاء بمعلومة مهمة فقرر إسكاته..

- لقد كان يحميك يا هولاند.

- هممم!

- وكان يدافع عن نفسه.

- إذًا أنت واثق أنه ليس الرجل؟

- بنسبة مائة في المائة هو ليس الرجل..

- ولم يتسبب أيضًا بالعطل في الحافلة.

- الوسيلة الوحيدة لفعل ذلك كانت الجري عبر الممر ومهاجمة السائق أمام جميع الركاب..

- وماذا عن احتمالية كون السائق هو الرجل المطلوب؟

- ستكون مخاطرة قصوى أن يعرض نفسه لمثل هذه الحادثة.

- ليس بالضرورة، دعنا نفترض أنه يمتلك خبرة بالطريق.

- لقد تسببت سيارة ملاكي مرت من أمامه بالحادثة.

- هذا ما يقوله هو.

- كان من الممكن أن يتعرض للموت أو لإصابة بالغة، أو يموت الركاب فيذهب هو للسجن بتهمة القتل الخطأ..

- لا زلت أرى أن هناك شبهة ما حول السائق، ربما قام بمراوغته تلك لنرحب به في بلدتنا كأنه الفارس المغوار الذي أنقذ الركاب.

- حسنًا بإمكاني التحدث مع ريتشر الليلة، هو شاهد بعد كل شيء على ما حدث في الحافلة.

- إنه رجل مخبول، أريده خارج البلدة..

- الطرق مغلقة.

- إذن أريده في زنزانة.

- حقًّا؟ ريتشر يبدو كرجل ذكي، ويجيد عمله، لقد أنقذك من التعرض لأنف مكسور، وجنبني احتمالية استخدام سلاحي لإطلاق الرصاص عليهم، لقد أسدى لكل منا صنيعًا بما فعله.

- لم تكن هذه هي نيته.

- أعتقد أن تلك بالضبط كانت نيته.

تمعن هولاند النظر لوجه بيترسون ثم غمغم : ما الذي تراه بالضبط في جاك ريتشر؟

- أعتقد أنه من نوعية الرجال الذين يرون الخطر قادم بخمس ثوانٍ أسرع من أي أحد آخر، لقد أمضيت وقتًا معه ونحن في طريقنا هنا وهذا هو انطباعي عنه.

فكر هولاند قليلًا.. هز كتفيه ثم قال : حسنًا تحدث معه

لو كنت تريد هذا حقًّا.

- ربما يمكننا فعل ما هو أكثر من الحديث إليه.

- ما الذي ترمي إليه؟

- لقد كان ضابط شرطة عسكرية سابق، يمكنه مساعدتنا، بشأن ما يحدث في الغرب.

عقد هولاند حاجبيه، ونظر للسماء فطفق هولاند ينتظر رده.

- أنت معجب بقدرات هذا الرجل؟

- لا يهم إن كنت معجبًا بهم أم لا، المهم أننا قادرون على الاستفادة منها..

ثم أردف بيترسون وهو يحدق بهولاند : سيكون من الحماقة ألا نستعين بقدراته في مثل هذه الظروف.

- هذا اعتراف بالهزيمة.

- كلا هذا اعتراف بالمنطق، وفي موقفنا هذا لا بد أن نطلب المساعدة.

- وما هو مقدار ما سنحكيه له؟

- الحكاية كلها أو أغلبها، فهو سيخمن المسأله كلها لو أعطيناه الوقت.

- هل هذا ما ستفعله لو كنت في موضعي؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، تبًّا، حسنًا يا بيترسون.. أخبره بكل شيء..

الحادية عشرة إلا خمس دقائق، باقٍ من الزمن ثلاث وخمسون ساعة.

الفصل السابع

قاد بيترسون سيارة العمل لبيته وريتشر جالس بجواره بينما تعجب الأخير من تلك الفكرة، إذ كان يعتقد أن رجال الشرطة يركنون سياراتهم الرسمية في مرآب المخفر، ولكن بيترسون أخبره أن لوائح بولتون مختلفة، بشرط أن يكون بيت الضابط على بعد عدة أميال من مرآب المخفر، واصل ريتشر النظر من زجاج النافذة للثلوج المتساقطة بينما هولاند يقود بصمت حتى وصلوا لبيت الأخير المكون من طابقين وقبو ومرآب جانبي، وحديقة صغيرة ؛ بيت أمريكي تقليدي، أو الحلم الأمريكي، هكذا فكر ريتشر عالمًا أنه لم ولن يحصل على بيت كهذا أبدًا، ترجل هولاند من السيارة تاركًا ريتشر وقام بفتح باب المرآب ثم عاد وقاد السيارة للداخل، انغلق باب المرآب بعد خروجهم، وللحظة أراد ريتشر العودة للمرآب حيث محرك السيارة والدفء ثم عزا نفسه بفكرة أن باب بيت هولاند يقبع أمامهم، نظر هولاند لريتشر نظرة اللاوعي الخاصة بالمضياف، أنت في بيتي الآن فرحبًا بك، لم يقلها لكن ريتشر استطاع قراءتها في عقل مضيفه، الباب الذي وقف ينتظرهم كان من خشب مدهون بالأحمر، وقد انفتح فور اقترابهم منه لتظهر من خلفه امرأة، ينبعث من خلفها ضوء ساطع، وقد عقصت شعرها للخلف، وترتدي سروالًا أسود وسترة ثقيلة، إنها زوجة بيترسون بلا ريب.. لثوانٍ توقف ثلاثتهم في لحظة تهذيب وارتباك وبدت

الزوجة متلهفة لدخولهم كي تتخلص من تيار البرودة الذي اقتحم البيت إثر فتح الباب وهم أيضًا بدوا متعجلين للدخول طلبًا للدفء الذي أراهم ابتسامة سريعة فور انفتاح الباب..

فور أن صاروا في غرفة المعيشة تحدث بيترسون بصوت خفيض معرفًا كلًّا منهم على الآخر وخمن ريتشر من طبقة صوت بيترسون أن هناك أطفالًا نائمين بالدور العلوي، ابتسمت الزوجة - التي اتضح أن اسمها كيم - وهي تصافح ريتشر الذي فعل المثل، كانت تعرف مسبقًا كل شيء عن حادثة الحافلة، ثم أردفت بنبرة معتذرة : لقد أعددت فراشًا في غرفة الضيوف، قالتها وكأنها تعتذر عن تقديم غرفة النوم الرئيسية لريتشر..

- هذا ممتاز وبإمكاني النوم على مرتبة فوق الأرض صدقيني، أنا آسف للغاية لاقتحام ليلتكم بهذا الشك وآسف على كل المشقة التي شعرتم بها.

- لا يوجد مشقة على الإطلاق.

- ولسوف أرحل في الصباح الباكر.

- لن تتمكن من فعل هذا، الثلوج سوف تتزايد في الصباح.

- ربما في المساء إذًا.

- سيظل الطريق مغلقًا، أليس كذلك يا أندرو؟

وجهت الجزء الأخير من سؤالها لبيترسون الذي غمغم : في الأغلب.

التفتت كيم لريتشر وعقبت : أنت مرحب بك للبقاء هنا طالما شئت.

- هذا كرم بالغ منك يا سيدتي.

- هل لديك أمتعة في السيارة؟

أجاب بيترسون نيابة عن ريتشر : إنه لا يحمل أمتعة.

قطبت كيم جبينها دون أن يظهر أي تعبير على وجهها وهي تحاول هضم تلك المعلومة الغريبة، ثم تفحصت بعينيها ملابس ريتشر، وقالت : سوف أذهب للمتجر غدًا ولسوف أبتاع لك ملابس ثقيلة، هذا ما أفعله أسبوعيًّا مع أندرو كما أنك سوف تحتاج لمعطف ثقيل.

هنا قال بيترسون وقد تحول لزوج مرحب ونسي كونه شرطيًّا : آه انتظر هناك معطف ثقيل هنا بالفعل يخص حماي، نبقيه هنا ليرتديه عند زيارته، إنه في نفس حجمك.. وهناك قفازات وقبعة معه كذلك، لقد حالفك الحظ يا صاح.

ذهب الزوجان وأحضرا المعطف لريتشر، غاب الاثنان لثوانٍ ووقف ريتشر بالغرفة، يريد الجلوس لكن اللباقة أجبرته على أن ينتظرهما واقفًا، عادا بالمعطف وأعطياه إياه بيترسون، ارتدى ريتشر المعطف وترك الدفء ينساب

لجسده قبل أن يلاحظ نوعية المعطف فقال ريتشر لكيم: والدك شرطي متقاعد؟

- تلك حقيقة، شرطة مرور الطريق السريع، ولقد احتفظ بمعطف العمل بعد تقاعده.

كان هناك فرو في ياقة المعطف ولم يمانع ريتشر هذا..

واتضح أن معطف والد كيم لم يكن في حجم ريتشر بالضبط، لقد كان أكبر منه، لكن لا ضرر في كونه أكبر، ابتسم ريتشر وهو يستمتع بالمعطف، متجاهلًا رائحة القبعة التي قالت بوضوح إنها تخص رأس رجل آخر..

- شكرًا لكم، على كل شيء...

أروه بعدها الفراش المعد بغرفة المعيشة جوار المطبخ، وأضافت كيم : هناك حساء ساخن سيعمل العجائب في جسدك، وطبق من الطعام الذي لم يبرد بعد.. هذا هو فراشك، تفضل.

افترض ريتشر أن تلك هي نهاية الليلة لكنه فوجئ ببيترسون يتبعه للداخل وكيف تضيف مداعبة : هو يريد الحديث معك لأنه يخاصمني..

***

المهنة : قاتل مأجور، وسيضيف هو «محترف».. هذا ما فكر به الرجل الذي تم إرساله لقتل الشاهدة والمحامي وهو ينظف مسدسه من نوع غلوك 17.

***

غرفة الضيوف كانت صغيرة وتقع بالركن الخلفي للبيت، هناك نافذتان بالداخل والستائر سميكة، الجدران بنفس لون الباب الأمامي، وجوار الفراش الصغير استقر مقعد جلدي مريح..

جلس ريتشر فوق الفراش وأخذ بيترسون زجاجتي جعة من الثلاجة وعاد للغرفة ليجلس فوق المقعد الجلدي، وأعطى زجاجة لريتشر قبل أن يقول : نحن نواجه مشكلة في بولتون.

- أنا أعرف هذا بالفعل.

- وما هو مقدار ما تعرفه؟

- أنت تخاف من راكبي الدراجات البخارية اللذين واجهناهم منذ قليل، وهم أرادوا تهديدكم بشأن ما..

- نحن لسنا خائفين منهم، أكمل..

- لديك مخفر شرطة كبير الحجم وهذا مؤشر لقوة لا بأس بها من رجال الشرطة بالبلدة.

- ستون شرطي.

- وحقيقة أنك والمأمور استجبتما لأمر راكبي الدراجات يقول إن البلدة خالية من الستين شرطيًّا، كلهم يعملون في حواجز الطرق لمواجهة.. العاصفة على ما أظن.

- ما تظن؟

- أعتقد أن الحواجز، وإحكام غلق البلدة ليس لمواجهة العاصفة الثلجية فقط، أنت قلق بشأن قدوم أحدهم من الخارج.

أخذ بيترسون نفسًا طويلًا، أطلق زفيرًا، ثم قال وهو ينظر لريتشر : هل كانت حادثة الحافلة حقيقية؟

- نعم، أنا لست الرجل الذي تقلق بشأنه يا بيترسون.

- نحن نعلم هذا، هولاند وأنا، لكننا قلقون بشأن السائق، ربما يكون هو الرجل المطلوب وأمر الحافلة كله ملفق..

هز ريتشر رأسه نافيًا الاحتمالية فأضاف بيترسون : هل كان حقًّا يحاول إنقاذ الحافلة؟

- نعم، الحادثة لم تكن ملفقة والرجل بذل قصارى جهده لإنقاذنا.

- لكن لا يزال هناك احتمالية بكونه متورطًا.

- كل شيء محتمل، لكن طبقًا لما حكاه لي هولاند، فإن أفضل طريقة للقدوم خلسة لبولتون هي التظاهر بأنك زائر للسجن..

- إنهم كثيرون بالفعل ولا يبقون فترات طويلة لكننا اعتدنا وجوههم المألوفة.. وأغلبهم نساء وأطفال، ونحن نبحث عن رجل..

تجرع ريتشر من زجاجة الجعة، واستمع لصوت طنين الثلاجة من على بعد مفكرًا فيما يقوله بيترسون الذي تابع : لقد استغرقت عملية تشييد السجن عامين كاملين وأحضرنا خمسمائة عامل لإتمام المهمة، وأقمنا لهم مخيمات ليقيموا بها.

- ومتى كان هذا؟

- منذ عام.

- وما الذي حدث بعد رحيل العمال؟

- ظهرت عصابات راكبي الدراجات البخارية ذوي السترات الجلدية السوداء، وأقاموا بتلك المخيمات، مثل الهيبز والغجر، لكنهم أشد خطرًا، عددهم يقارب المائة ونشاطهم المتاجرة في الماريجوانا، وقبل أن تسالني لماذا لم أقبض عليهم دعني أجيبك مقدمًا، أنا أحاول بالفعل لكن الأمور ليست بتلك البساطة، إنهم حريصون للغاية وأنت تعلم على ما أظن سهولة حرق معامل تصنيع المخدرات لإخفاء الأدلة، وطبعًا نشاطهم توسع بعد ذلك للهيروين، لكني لم أُصَبْ باليأس وظللت أحاول حتى حصلت على فرصتي أخيرًا، عندما أتى تاجر من شيكاغو ليتم صفقة معهم، وكانت معه عينه من مخدراتهم في شاحنته التي توقف بها أمام المطعم الذي ذهبنا إليه الليلة، وأتم الصفقة هناك، والآن هل أنت مستعد لمعرفة قلب الأزمة؟ هناك شاهدة، رأت الصفقة كلها وهي تتم أمام عينيها.. وقد

تمكن التاجر القادم من شيكاغو من الفرار لكننا قبضنا على مندوب رجال الدراجات البخارية وأخذنا عينة المخدرات كذلك.. والحقيقة أن مندوبهم - الذي يقبع بداخل زنزانة الآن - هو من أفضل رجالهم، لكننا لم نستطع استخراج أمر بتفتيش المخيمات رغم ذلك، لأن الوغد الذي قبضنا عليه يدعي أنه لا يقيم هناك ولا توجد صلة بينه وبين رجال الدراجات، وأن ارتداءه لنفس الملابس واقتناءه لذات الدراجة البخارية محض صدفة، وخطتي الحالية هي الضغط على هذا الوغد لكي يشي بعصابته مقابل صفقة مع الحكومة لكنه لم يوافق بعد لأنه ينتظر معرفة موقف الشاهدة، هل ستنسى ما حدث أم تتراجع في شهادتها.. لعله يأمل في موتها.. الحقيقة يا ريتشر أن الأمر كله، وأعني بذلك نشاط تلك العصابات وتجارة المخدرات وما يجري داخل تلك المخيمات، يتوقف على تلك الشاهدة، وهي سيدة عجوز لطيفة، في السبعين من عمرها، كانت معلمة وأمينة مكتبة.. وأنا أتخوف أنهم سيحاولون إرهابها أو إيذاءها.

- ولهذا أنت خائف من قدوم الغرباء للبلدة؟

- نعم.

- ولماذا تفترض قدوم غريب لإتمام المهمة؟ لماذا لا يقوم أفراد عصابة الدراجات البخارية بالأمر؟

- لأننا نراقب كل تحركاتهم ونضغط عليهم بكل الوسائل

المشروعة.

ساد الصمت وتبادل ريتشر وبيترسون نظرة طويلة قبل أن يقول الأخير : أحدهم قادم للتخلص من تلك السيدة العجوز، شخص غريب لا نعرفه، في طريقه إلى بولتون، وربما يكون قد وصل بالفعل.

الفصل الثامن

تعالى صوت طنين الثلاجة، وشرد ريتشر قليلًا محاولًا تخيل شكل تلك المخيمات وما يجري بها، وهو يهضم كل ما قاله بيترسون ثم قال : أؤكد لك أن سائق الحافلة لا علاقة له بالأمر، ما هو مقدار المال الذي يبيعون به جرام المخدرات؟

- مائتي دولار على الجرام الواحد.

- وهذا يعني أنهم قادرون على تحمل تكلفة إيجاد قاتل محترف.. ونوكس، سائق الحافلة ليس قاتلًا أجيرًا، كن واثقًا من هذا.

- حسنًا، ومن الجهة الأخرى نحن نراقب ونتحرى سجل زوار السجن، ولا توجد شبهات حتى الآن.

تنهد ريتشر ثم سأل : أين الشاهدة؟

- في بيتها، اسمها جانيت سالتر، وهي امرأة نادرة بحق، نموذج مثالي للجدات الموجود في الروايات، عجوز مثقفة وذات قيم ومبادئ وقلب حانٍ.. ولدينا سيارة دورية تمر ببيتها يوميًّا.

- هذا ليس كافيًا لحمايتها.

- أعرف هذا لكن مواردنا محدودة.

- متى يحين موعد المحاكمة؟ واستدعاؤها لمنصة الشهود؟

- ربما شهر واحد لو حالفنا الحظ.

- وهي لن تترك بيتها بالطبع، ترفض هذا بحكم كونها معلمة سابقة وأمينة مكتبة عنيدة ذات قيم وحس انتمائي لبيتها حتى لو عرضتم عليها عطلة في جزر الكاريبي لتزجية وقت هذا الشهر.

ابتسم بيترسون وأومأ برأسه وعقب : أنت محق في تخمينك، حتى بعد أن أخبرناها بخطورة المسألة كلها.

- ولهذا كنت تشعر بالقلق بشأن مقابلة راكبي الدراجات تلك الليلة؟ أنتم في حالة حرب معهم.

تحركت عقارب الساعة المعلقة بالحائط لتشير إلى أنها الخامسة فجرًا.. باقٍ من الزمن اثنتان وخمسون ساعة..

شعر ريتشر بالطقس يهدأ قليلًا بالخارج، نظر للساعة على الحائط بلامبالاة قبل أن يفكر قليلًا، ثم قال لبيترسون : هل هولاند كفء لتلك المهمة؟

- هو رجل جيد وذو ضمير.

- تلك ليست بإجابة لسؤالي.

- هل كنت تناقش مدى كفاءة رؤسائك إبان عملك في الجيش؟

- طيلة الوقت.. عندما كنت أتحدث مع من هم في نفس رتبتي.

- وهل نحن متساويان في الرتبة؟

- أعتقد ذلك.

- وهل كانوا جميعهم أكفاء؟ رؤساؤك؟

- بعضهم، البعض الآخر كان شديد الحماقة.

- حسنًا، هولاند رجل جيد وذو ضمير.. لكنه مثقل الكاهل، زوجته توفيت مؤخرًا وابنته رحلت بعيدًا.

- لقد رأيت صورة لعائلته في مكتبة.

- ذكرى من أيام أكثر سعادة بالنسبة إليه.

- إذًا هو كفء للمهمة أم لا؟

- كفء بالدرجة الكافية لطلب المساعدة عندما يحتاجها.

- طلبها ممن بالضبط؟

- منك أنت.

انتهى ريتشر من زجاجة الجعة ووضعها جانبًا، وغمغم : وما الذي يمكنني فعله؟

- هناك منشأة عسكرية قديمة، خالية، ليست بعيدة عن المخيمات، تم بناؤها منذ زمن سحيق، هل تعرف الغاية من وجودها؟

- بإمكانها أن تكون أي شيء، الجيش اعتاد بناء

وحدات كثيرة في الخمسينيات دون استكمالها، تجارب لم تنته وكل هذا.

- نحن نعتمد على ذاكرة السكان هنا وهم يقولون إنهم يتذكرون قدوم مئات المهندسين شهريًّا لزيارة تلك المنشأة العسكرية، والحراسة كانت مشددة للغاية.

- لقد سمعت عما هو أغرب.

- نحن بحاجة لمعرفة الغاية من تلك المنشأة، لأننا سنذهب للمخيمات لإجراء عمليات اعتقال عديدة ولا أريد أي مفاجآت هناك.

- لماذا لا تتصل بوزارة الدفاع لإجراء استفسار رسمي.

- جربت فعل ذلك دون نفع.

- كم عمر القوم الذين تعتمد على ذاكرتهم بالضبط؟

- ها؟

- أريد معرفة سنة بناء تلك المنشأة بالضبط، وهل رأوا المهندسين بأنفسهم أم أنها مجرد حكايات تداولها البعض من آبائهم، وهل رأوا جنودًا؟

- لم يروا جنودًا ؛ لأن المنشأة لم تستخدم رسميًّا من قبل الجيش.. وعمرهم يقارب الخمسين عامًا.

- إنها منشأة تخص الحرب الباردة إذًا مع الروس، لم يكتمل بناؤها في الأغلب بسبب تغيير طقم الإدارة

العسكرية حينذاك، تلك كانت طبيعة الأمور إبان الحرب الباردة، في يوم ما تتبلور فكرة منشأة عسكرية في الريف كالتماس عبقري وفي اليوم التالي تتحول لفكرة شديدة السوء، تغيرات الخطط العسكرية كان أمرًا شائعًا في هذا التوقيت، الكل يجرب ولا أحد يمتلك فكرة حقيقية عما يفعله..

- نحن بحاجة للتأكد؟ بإمكانك إجراء اتصال ما بمعارفك في الجيش.

- لقد تركت الجيش منذ فترة طويلة.

- بإمكانك الذهاب وإلقاء نظرة بنفسك على المنشأة.

- منشآت الجيش كلها تتشابه، ما الذي تشك به؟

- إن تلك المنشأة في الحقيقة تعد بنية تحتية، حيث يوجد معمل تصنيع المخدرات الخاص براكبي الدراجات، لقد بحثنا عنه كثيرًا دون جدوى، وأعتقد أن تلك المنشأة تخفي سرًّا.

هز ريتشر كتفيه دون تعليق ولثوانٍ اعتقد أن المحادثة انتهت ثم رأى تعبير وجه بيترسون الذي وقف فجأة وسار ذهابًا وإيابًا عاقدًا ذراعيه خلف ظهره، ثم قال : هناك المزيد.

- بلا ريب.

- لدينا رجلهم، بحوزتنا القانونية وكل هذا، لكنه لا يزال

على تواصل معهم عن طريق محامٍ على ما أظن..

ثم عاد بيترسون للصمت والسير في تردد فقال ريتشر: لا تقل لي إنك حاولت التنصت على محادثته مع محاميه، هذا كفيل بإسقاط مشروعية محاكمتك بالكامل أمام المدعي العام.

- أنا لا أنتوي استخدام ما سمعته كبرهان قانوني، والمدعي العام لن يعرف أبدًا، إنها وسيلة احترازية فقط لحماية الشاهدة، والحقيقة أننا تنافسنا للحصول على الميزة الاقتصادية الخاصة بتشييد السجن في بولتون.

- لقد أخبرني هولاند بهذا.

- وأجرينا صفقة مع الحكومة.

- لم يخبرني بهذا لكن هذا أمر معتاد.

- الصفقة تنص على أنه في حالة حدوث حالة هروب من السجن يتوجب على كل أفراد شرطة بولتون التحرك للطريق السريع لإجراء حصار مروري، وهذا يعني أنه في حالة إطلاق نفير الإنذار بالسجن سنضطر جميعنا لترك جانيت بدون حماية..

الفصل التاسع

- هذا جنون مطلق.

قالها ريتشر فهز بيترسون رأسه وأضاف بحزنٍ : لكنه جنون حقيقي وقابل للحدوث، وعلى الجهة الأخرى جانيت سالتر ترفض النزوح من بيتها، ما قالته بالتحديد كان «على الصبية ذوي الدراجات أن يرحلوا عن بولتون بدلًا مني».

- هذا مأزق حقيقي.

- أتفق معك.

- لكن الجو ليس بمثالي لحدوث حالات هروب، قد يتجمد السجين الهارب حتى الموت..

- لا أحد يهرب على الأقدام الآن، وإنما يندسون داخل شاحنة نقل مؤن أو طرق مشابهة.

- لماذا إذن تقام صفقة إقامة الحواجز المرورية وتحرك أفراد الشرطة خارج بولتون؟

- لا أحد يدعي منطقية خطط مواجهة الأزمات الحكومية.

- إذًا تحايل على الأمر واترك رجل شرطة في بيت السيدة جانيت سالتر في كل الأحوال.

- لا يمكنني فعل هذا؛ لأنهم سيقومون بإحصاء عدد رجال الشرطة المتواجدين عند الحواجز المرورية ويقارنونهم

بسجلاتنا.

- ألا تستطيع أخذ السيدة سالتر في سيارة دورية عند حدوث هذا.

- من الممنوع اصطحاب مدنيين في حالات كتلك.

- ولم يهرب أحد حتى الآن.

- كلا.

- إذًا عليك أن تكون متفائلًا.

- لا يوجد مجال للتفاؤل، الرجل الذي يريد التخلص من جانيت سالتر واسع النفوذ، ولديه رجاله داخل وخارج السجن، بإمكانه افتعال حالة هروب لكي نتركها وحيدة وتصبح الفرصة سانحة له كي يقتلها، وهناك شق أسوأ في عقد السجن، في حالة حدوث شغب يتوجب علينا جميعًا الذهاب لإخماده فورًا.

- تبًّا.

- ولا داعي كي أقول لك إن حالات الشغب بالسجن لا تستغرق الكثير من التخطيط كي تحدث، وإنما تنتشر كالنار في الهشيم.

هز ريتشر رأسه وشعر أنه بحاجة لزجاجة جعة أخرى، لكنه لم يجد ما يبغيه، فكر في مدى سهولة اندلاع حالات الشغب داخل السجون، سجين يتشاجر مع آخر، الباقي يصيحون في الخلفية، فيأتي حارس متحمس لتهدئة الأمور

بوجه مكفهر، لينقض عليه أحد السجناء ويوسعه ضربًا، هنا تتزايد حالة الجنون ويلتمع البريق في الأعين، شغب.. فوضى.. عنف.. كل طاقم الشرطة الخاص ببلدة بولتون يهرع للسجن، السيدة جانيت وحدها في المنزل..

تنهد ريتشر.. ثم غمغم : هذا ليس بأمر جيد على الإطلاق.

- ولذا يمكنك المساعدة.

- أنا مجرد عابر سبيل.

- بإمكانك الاتصال بمعارفك العسكريين.

- قلت لك إني تركت الخدمة منذ فترة طويلة.

- يمكنك المحاولة.

- حاول أن تفهم تلك النقطة جيدًا يا بيترسون، أنا لا أمتلك معارف هناك وموظف خدمة استقبال الاتصالات لن يحولني لرجل مهم يعمل بمكتب ما ذي مدخل خاص ومكيف هواء.

- تبًّا للمعارف، زملاء قدامى، أي شيء يا ريتشر، بإمكانك القدوم معي غدًا لمخفر الشرطة، يمكننا إعطاؤك مكتبًا وهاتفًا، انتدابك رسميًّا للعمل معنا..

- أنت تريد مني المجيء معك لمخفر الشرطة؟ كنت أعتقد أنك لا تثق بي كليًّا.

- اسمع يا صاح، أنت تبيت هنا، داخل منزلي حيثما ينام أولادي وزوجتي، هل أبدو وكأني لا أثق بك؟

قال ريتشر معتذرًا : لا جدال في تلك النقطة، آسف!

لكن كيم بيترسون لم تكن نائمة، فبعد مرور عشر دقائق على رحيل أندرو بيترسون من غرفة المعيشة حيثما يرقد ريتشر، قرر الأخير أنه منزعج من رائحة الجعة المنبعثة من الزجاجة الفارغة فأخذها وخرج من الغرفة بحثًا عن صندوق قمامة، فقط ليجد كيم تقف أمام الثلاجة وتمد أناملها لالتقاط زجاجة مياه، وضوء الثلاجة الأصغر يغمر جسدها، كانت منحنية وهي ترتدي روبًا حريريًّا ناعم يلتف حولها وشعرها منسدل فوق كتفيها، رفعت رأسها ونظرت لريتشر الذي رفع زجاجة الجعة في تساؤل صامت عن مكان صندوق القمامة، أشارت كيم بإصبعها وهمست : أسفل الحوض.

انحنى ريتشر وفتح غطاء الصندوق ثم وضع الزجاجة بداخلها، فسألته كيم : هل تحتاج أي شيء؟

- كلا، شكرًا لك.

- هل طلب منك أندرو مساعدته في العمل؟

- أرادني أن أجري بعض المكالمات الهاتفية.

- بخصوص المنشأة العسكرية.

هز ريتشر رأسه فسألته كيم : هل ستجري تلك

المكالمات؟

- سأحاول.

- جيد، هذا المكان يثير جنونه.

ثم قالت فجأة بعد لحظة صمت مربكة : أتمنى أن تساعد زوجي، إنه مسئول عن كل ما يحدث في البلدة، هولاند ليس في أفضل أحواله المعنوية، فقط أوعدني أنك سوف تساعده.

رفع ريتشر حاجبيه فكررت كيم في إصرار : أنت تبدو كرجل يلتزم بوعده، عدني أنك ستساعده.

- أعدك.

***

الخامسة والنصف فجرًا، باقٍ من الزمن إحدى خمسون ساعة..

الفصل العاشر

استيقظ ريتشر في السابعة صباحًا وعشر دقائق، تقلب في الفراش لعدة دقائق، والحقيقة أن الفراش كان ناعمًا ودافئًا للغاية، ولم يبدُ إليه أن الطقس قد تحسّن على الإطلاق، وحين تلاعب مزيج البرودة والدف بجسده أغلق عينيه وعاود النوم..

وفي هذا التوقيت صار يتبقى من الزمن سبع وأربعون ساعة..

على بعد مئات الأميال في الجنوب، وبفارق ساعة في التوقيت الزمني، جلس بلاتو في فيلته الأنيقة يتناول وجبة الإفطار، كان يمتلك غرفتين للطعام، الأولى مخصصة للإفطار والغداء والأخرى معدة لاجتماعات العشاء الرسمية، أغلب تلك الاجتماعات كانت تنعقد مع شركائه الروس، قضم بلاتو من رغيف خبز فرنسي بعدما مزجه بلحم مقدد وبيض مقلي، وهو يفكر في شركائه الروسيين، الحقيقة أنه فخور بنفسه لقدرته على فهمهم وتحليل شخصياتهم، وبراعته في إجراء الصفقات معهم، لقد تلقى اتصالًا من أحدهم هذا الصباح، محدثه كان يتوسط لقريب له كي يشتري بضاعة من بلاتو، وقد اغتبط الأخير لهذا العرض، ربح وافر ووسائل نقل مريحة، أو تهريب، مؤَمَّنة لروسيا، لكن معامله وجماعته في تصنيع المخدرات بجنوب داكوتا، عليهم الانتهاء من مشاكلهم وبسرعة،

ولذا.. بعدما انتهى من تناول الإفطار، أجرى بلاتو اتصالًا برجله ليؤكد على أهمية وسرعة الانتهاء من المهمة..

***

فتح ريتشر عينيه للمرة الثانية واستيقظ تلك المرة بعدما عمت الضجة في بيت أندرو وكيم بيترسون، لقد استيقظ الأطفال، وتلى ذلك استيقاظ والديهم، سمع ريتشر صوت أبواب دورة المياه تنفتح وتنغلق، وغليان الماء في آلة صنع القهوة، صوت البيض بينما يتم قليه في الزيت، وللحظة طفق في مكانه يفكر في ماهية الخطوة التالية، هل يخرج بكل لطافة وينضم للعائلة على الإفطار؟ أم أنه سيخيف الأطفال؟ هذا يتوقف على معدل أعمارهم في نهاية الأمر، دخل الحمام الصغير الإضافي الملحق بالغرفة واستحم ثم خرج وقد عاودته الحيرة التي سرعان ما انتهت عندما انفتح باب الغرفة وأطل طفل برأسه، طفل ربما في السابعة من العمر، بدا كنسخة مصغرة من أندرو بيترسون، حدق الطفل بريتشر لوهلة قبل أن يقول بشك : ماما تقول لك ائت لتناول القهوة..

ثم اختفى الطفل، نظر ريتشر لانعكاسه في المرآة، البارحة كان بحافلة تعرضت لحادثة والآن هو في بيت تلك العائلة ويهم بتناول الإفطار معهم، خرج ريتشر من غرفته وذهب للمطبخ وسمع صوت الأطفال وهم يركضون على السلم ذهابًا للطابق الثاني بعدما انتهوا من تناول الطعام، شعر وكأنه في فيلم رسوم متحركة، وتوقع للحظة أنه سيرى

الغبار في الهواء الناجم عن ركضهم، ألقى بالتحية على أندرو وكيم اللذين جلسا في صمت وهما يرتديان نفس ملابس الليلة السابقة، أندرو مندس في زيه الرسمي وكيم ترتدي نفس السروال القماشي والسترة الشتوية، صب ريتشر لنفسه القهوة، وذهبت كيم لتفقد الأطفال، وفور أن انتهى ريتشر من تناول القهوة قال له بيترسون : هيا بنا.

تنهد ريتشر، لقد غفلوا عن حقيقة أنه لم يتناول أي طعام، لكن هذا لم يشكل له مشكلة حقيقية، فهو معتاد على شعوره بالجوع أغلب الوقت، لم يكن هناك نظام حقيقي لوجباته، فهو يأكل فقط عندما تتسنى له فرصة خلال تنقلاته، وعندما تتسنى تلك الفرصة يأكل بنهم..

تحركت إطارات سيارة بيترسون حاملة إياه برفقة ريتشر للمخفر، وطوت إطارتها الأرض طيًّا..

الثامنة صباحًا، باقٍ من الزمن أربع وأربعون ساعة..

***

ارتدى المحامي معطفًا ثقيلًا وغطاء رأس، وبحث لفترة عن مجراف الثلج حتى وجده، رغم أن هذا هو روتينه الصباحي، جرف الثلج قبل الذهاب للعمل يوميًّا، لكن خوفه وتوتره شتته عن إيجاد المجراف تلك المرة، لفترة على الأقل، لكنه وجده في النهاية وخرج من بيته الجميل ذي الطابقين ووقف وسط الثلوج، رفع المجراف عاليًا ثم هوى

به على الثلوج.

***

شعر ريتشر وهو يجلس داخل السيارة أن العالم كله قد تحول لكتلة ثلجية، ثلوج تنهمر في كل صوب، كل شيء قد أصبح أبيض وبالكاد تستطيع رؤية شيء.. وامتن للدفء داخل سيارة بيترسون التي كانت تقترب بدورها من المخفر..

بعد عشر دقائق كان كلاهما داخل المخفر، لم يرتدِ ريتشر القفازات وقبعة الرأس واكتفى بالمعطف بعدما شعر أنهم أشياء شخصية للغاية، سيقتني قفازات وقبعة عندما يجد متجراً ما في تلك البلدة، المخفر نفسه كان في حالة مختلفة تمامًا عن الليلة السابقة، مكتظًّا برجال الشرطة والملفات ورنين الهواتف، وهناك وحدة كاملة لمتابعة أمور السجن، وبدأ ريتشر في تفهم الحمل الثقيل على كاهل هولاند، لقد كان الأخير متقدمًا في العمر ويعاني من مشاكله الشخصية ليستطيع تولي كل تلك الأمور، وعليه أن يتقاعد.. وغمغم بيترسون لريتشر : هل ترى كل هؤلاء؟ كبار ويافعون في السن، راقب ما سيحدث خلال العشر دقائق التالية، سوف ينطلقون جميعًا لإقامة الحواجز المرورية وتفقد سلامة الطرق قبل العاصفة، مثلما سيحدث في حالة اندلاع شغف أو هروب أحد السجناء، بعد عشر دقائق ستجد نفسك في مخفر شرطة فارغ..

تنقلت عينا ريتشر بينهم وهم يفعلون بالضبط ما وصفه بيترسون، وخلال عشر دقائق أصبح المخفر كله فارغًا عدا شرطيين أحدهما يدعى كابلر والآخر يدعى لويل، حسب بطاقات التعريف المعلقة في صدورهم..

كلاهما لا يحملان حزام الشرطة الرسمي حول خاصرهم، لا أسلحة ولا أصفاد، التفت ريتشر لبيترسون وقال : وماذا عن هذين الاثنين؟

- لديهما أعمال مكتبية.

- هذا هراء، ليس وأنتم بحاجة لكل الطاقة البشرية المتوفرة.

- ما هو تخمينك إذًا؟

- نوع من التأديب، لقد ارتكبوا خطأ ما فأخذ هولاند أسلحتهم وأبقاهم هنا في المخفر.

- لا أستطيع إخبارك.

- هل هما مستجدّان؟

- لويل رجل محلي وقد مضى وقت طويل على تواجده معنا، نازح من عائلة قديمة في البلدة، لكن كابلر مستجد.. مقارنة بلويل على الأقل، لقد أمضى عامين معنا هنا بعدما انتقل من فلوريدا..

- لماذا سيرحل أحد من فلوريدا لبولتون؟ كنت أعتقد أن الأمور تسير بالعكس.

- لقد كان بحاجة لوظيفة.

- لماذا؟ ما الذي حدث في وظيفته السابقة؟

- ولماذا تفترض حدوث شيء في وظيفته السابقة.

- لأنه، ومع كامل احترامي، لن يترك شرطي مكانه في فلوريدا للانتقال لبلدة صغيرة كبولتون دون حدوث شيء في وظيفته السابقة!

- لا أعرف كل التفاصيل سوى أنه تم توظيفه من قبل هولاند والعمدة.

- همم، حسنًا!

- ولويل رجل مختلف قليلًا يمضي وقته في قراءة الكتب.

- ألن تخبرني عما فعلاه لكي يستحقوا العقاب من هولاند؟

- لن أستطيع، على أي حال، لدينا عمل الآن، اختر مكتبًا ولنقم بالاتصالات لمعرفة ماهية تلك المنشأة اللعينة..

***

اختار ريتشر مكتبًا يقع في الخلفية بحيث يلاصق ظهره الحائط، بحكم العادة ليس أكثر، ليتمكن من إلقاء نظرة شمولية على المكان دون القلق بصدد من سيأتي من الخلف، وقال بيترسون مشجعًا إياه وهو يعطيه الهاتف : لا

بد أنك تتذكر رقمًا ما بخلاف الأرقام الرسمية.

التقط ريتشر سماعة الهاتف واتصل برقم يتذكره ثم أدخل كودًا معينًا فقط ليتلقى بريدًا صوتيًّا من نبرة لم يميزها، وكان نص الرسالة كالآتي «أنت تتصل بقسم الحسابات الخاص بوحدات كاليفورنيا العسكرية، اترك رسالة بعد سماع الصفارة»..

وضع ريتشر السماعة وقال له بيترسون إزاء تعبير وجهه : ألا تعرف رقمًا آخر؟

- كلا، هذا الرقم كان يخص وحدة تحقيقات خاصة في الشرطة العسكرية، لكنه لم يعد كذلك.

- الأشياء تتغير بعد مرور الوقت.

- هذا صحيح.

ثم قال ريتشر فجأة : أو أنهم لا يتغيرون، ليس بشكل كلي.

واتصل بالرقم مرة أخرى لكنه أدخل كودًا مختلفًا.. وتلقى صوت حي يجيبه تلك المرة بدلًا من بريد صوتي، وميز لكنة جنوبية في الصوت، يعود لرجل ربما في أواخر العشرينيات، رقيب في الأغلب، قال له ريتشر : أنا بحاجة للحديث مع قائدك.

- قائد من؟

- قائدك أنت.

- مع من تظن أنك تتحدث بالضبط؟

- أنتم الوحدة 110 في مقر قيادة الشرطة العسكرية بفيرجينيا.

- حقًّا؟

- هذا لو لم تغيروا الرقم.. في المعتاد هناك مسئول تلقي مكالمات عوضًا عن البريد الصوتي، وعليك طلب كود (110) من هذا المسئول.

- من أنت؟

- لقد اعتدت العمل معكم.

- الاسم؟

- ريتشر.

ساد صمت لدقيقة كاملة فقال ريتشر : هل تبحث عن الاسم وسط قائمة؟

- لو كنت قد عملت في تلك الوحدة فأنت تعلم مسبقًا أن هذا الخط يخص الطوارئ، لذا أعطني سببًا عاجلًا لمكالمتك تلك.

- أنا بحاجة للحديث مع قائدك.

- بخصوص؟

- خدمة ما أحتاجها منه، صنيع كي يسديه، أيًّا كان

المسمى، فقط أخبره أن يتقصّى عن جاك ريتشر ويعاود الاتصال بي على هذا الرقم.

أنهى الرجل المكالمة دون رد، **التاسعة صباحًا، باقٍ من الزمن ثلاث وأربعون ساعة..**

الفصل الحادي عشر

رن الهاتف في التاسعة والنصف، لكن المكالمة لم تكن لريتشر الذي أعطى الهاتف لبيترسون، استمع الأخير قليلًا لمحدثه ثم أخبره اسمه ورتبته، وقال عبر الهاتف لأي كان من يحدثه أن يبقى على تواصل وأعطى السماعة لريتشر الذي أعادها مكانها، ثم قال بيترسون : تلك المكالمة كانت من مكتب المدعي العام، قسم مكافحة المخدرات، وأعني بهذا القسم الرئيسي التابع للوكالة الفيدرالية في العاصمة، نحن بحاجة لمعرفة ما يدور داخل تلك المنشأة العسكرية على وجه السرعة، لقد استمع رجال مكافحة المخدرات لمكالمة لرجل يدعى بلاتو في المكسيك وهو يتحدث بخصوص صفقة مخدرات ستجري هنا من المخيمات، طبعًا لا يوجد دليل لأن التنصت غير قانوني والحديث كله في المكالمة كان بالشفرات، لقد استخدموا جملة «عقارات للبيع».. وأنا لا أستطيع إخبار قسم مكافحة المخدرات أني لا أعرف ما الذي يوجد داخل منشأة تقبع على حدود البلدة وعمرها أكثر من ثلاثين عامًا هذا سيجعلنا نبدو كالحمقى!

تنهد ريتشر ونظر للهاتف متسائلًا إن كان سيتلقى ردًّا ما من وحدة الشرطة العسكرية أم لا، لقد كان رئيس تلك الوحدة في حياة أخرى لفترة وجيزة، ثم تمتم : بلاتو يبدو كاسم غريب لرجل مكسيكي، الاسم يميل للبرازيلية أكثر..

- أو يوغسلافي، يبدو كاسم حاكم مجنون قديم من العصور الوسطى..

- بلاتو كان فيلسوفًا إغريقيًّا، تلميذ سقراط ومعلم أرسطو..

عاد كابلر ولويل للمخفر، وهما يحملان دفاتر مكونة من أوراق بيضاء كبيرة، تنهد بيترسون وهو يتابعهما بعينيه مغمغمًا : لقد أنهوا أعمالهم والآن أمام استراحة طويلة من خمس ساعات حتى موعد انتهاء نوباتهم، يا لها من مضيعة للموارد البشرية!

- أخبرني بما فعلاه.

- لا أستطيع.

- هل الأمر بهذا السوء؟

- حسنًا، سوف أخبرك، لقد تغيّبوا عن العمل لمدة ساعة دون الإجابة عن اللاسلكي ونحن لا نستطيع القبول بأمر كهذا خصوصًا مع كل ما يحدث!

رن الهاتف قبل أن تتسنى فرصة لريتشر كي يرد، التقط سماعة الهاتف وأتاه صوت امرأة.

- الرائد ريتشر؟

- نعم.

- هل تعلم من أنا؟

- واصلي التحدث وسأحاول تخمين الصوت.

- أنت ألقيت تدريبًا إبان عامك الأخير في الخدمة، عن المخابرات العسكرية والتحقيقات، لقد كنت واحدة من الجنود في هذا التدريب.. ألم تتعرف على صوتي؟

- واصلي التحدث وأنا واثق أني سوف أتذكر.

- ما الذي تريدني أن أقوله؟

قالتها بنبرة هادئة وباسمة، والحقيقة أن ريتشر أرادها أن تقول الكثير، صوتها كان هادئًا وجميلًا، ممتلئًا بالحياة، دافئًا ويكاد أن يكون عطر الرائحة، من أفضل الأصوات التي سمعها في حياته كلها، كان معجبًا بطريقة نطقها للحروف، وتخيل شفتين ساحرتين تقومان بتلك المهمة، ربما أنها شقراء، في منتصف الثلاثينيات، ممشوقة القوام وجذابة، رغم كل هذا لم يميز صوتها، فقالت إزاء صمته : أنا أشعر بخيبة أمل وقليل من الألم، أنت حقًّا لا تتذكرني؟

- أنا بحاجة للحديث مع قائدك.

- ليس قبل أن تتذكرني.

- هل تريدين معرفة ما أعتقده؟ هذا مجرد نفخ للحمقى، قائدك طلب منك فعل هذا لتبين إن كنت ريتشر أم لا، لو أخبرتك أني أتذكرك رغم أننا لم نلتقِ من قبل إذًا فأنا أفّاق، وصدقيني من نبرة صوتك تلك أتمنى أن نكون قد التقينا حقًّا لكن هذا لم يحدث..

- لكني كنت في صفك التدريبي.

- هذا لم يحدث، أنت قرأت فحسب أني ألقيت هذا التدريب في سجلي الوظيفي، لأن التدريب كان تحت مسمى المخابرات العسكرية والاستجواب لكن مضمونه الحقيقي كان يدور عن كيفية مراوغة الحكومة الفيدرالية.

ابتسامة ودلال في صوتها وهي تقول : عظيم، لقد عبرت الاختبار.

- من أنت إذًا؟

- أنا أنت.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- أنا قائدة الوحدة 110.

- رائع، وكيف تجري الأمور عندك؟

- كما لك أن تتخيلها بكل دقة، وبالمناسبة أنا أجلس في مقعدك القديم بتلك اللحظة.

- لقد جلست في مقاعد عدة.

- أتحدث عن مقعد معين في «روك كريك»..

أغمض ريتشر عينيه وجال بخاطره تفاصيل المقعد الذي تتحدث عنه، مقعد حكومي تقليدي يستقر قبالة مكتب كلاسيكي، تابعت المرأة : هناك فجوة بجانب المقعد، الإشاعات تقول إنك ضربت به رأس أحدهم!

- هم يقولون هذا؟

- نعم، أساطير عدة تدور حول هذا المقعد!

- أعتقد أن العمال هم المسئولون عن تلك الفجوة.

- أعتقد أنك كاذب.

- ما اسمك؟

- أعطني أنت اسمًا.

- ماذا؟

- لإبقاء تلك المكالمة خارج إطار الرسمية، أعطني اسمًا.

- إنها مكالمة خاصة إذًا.

- ليس بشكل تام، الشاشة أمامي تقول بوضوح إنك تجلس في قسم شرطة بلدة بولتون.

- حسنًا، واصلي الحديث ولسوف أجد اسمًا يناسب صوتك.

- ما الذي تريد مني قوله بالضبط؟

الدلال والنعومة في صوتها مرة أخرى، شعر ريتشر أنه على وشك فقدان صوابه.

- بإمكانك الإدلاء بالحروف الأبجدية، لن أمانع هذا بالتأكيد.

تتزايد الابتسامة في صوتها ويخلج قلب ريتشر.

- الإشاعات تقول إن هذا الانبعاج بالمقعد ناجم عن رأس الكولونيل في هذا الحين وأنا أتفهم ما فعله.

- آماندا، هذا اسم مناسب لك.

المزيد من نعومة ورقة الصوت، تقول بهدوء : أنا آماندا إذًا، لو احتجت مكالمتي مرة أخرى فقط نادني بهذا الاسم.

- اتفقنا، والآن.. بمناسبة بلدة بولتون هناك منشأة عسكرية مغلقة هناك، أريد معرفة ماهيتها بالضبط.

- لن أستطيع التصريح بمعلومات كتلك أيها الرائد ريتشر.

- هممممم!

- ألا تستطيع تحديد هذا بنفسك.

- لم أرَها بعد وأعتقد أن تبين طبيعتها أمر صعب، أتمنى أن تتفقدي السجلات من أجلي.

سمع صوت أصابعها - التي افترض أنها جميلة - تعبث في لوحة المفاتيح الخاصة بالحاسوب الماثل أمامها، ثم قالت له : هل تبدو المنشأة كبيت عادي؟

سال بيترسون فأومأ بالإيجاب، قال ريتشر : من الأعلى فقط.

- أنت لا تريدني أن أقطع كل هذا الطريق كي آتي لإلقاء نظرة معك عليها أليس كذلك؟

- لن أمانع حدوث هذا على الإطلاق، لكن هناك عاصفة ثلجية وكل شيء، أعتقد أن السجلات ستقول لك.

- اتصل بي في المساء إذًا.

وانتهت المكالمة ليرحل صوتها ويغمغم ريتشر : صوت مثير بحق.

باقٍ من الزمن اثنتان وأربعون ساعة.

الفصل الثاني عشر

جلس المحامي في مكتبه شارد الذهن وهو ينقر بإصبعه على المكتب وعيناه تطالعان ملف القضية رقم 517713، تلك القضية العاجلة التي ربما ستنهي حياته عما قريب.

***

ذهب ريتشر لدورة المياه ثم أعدّ لنفسه بعض القهوة وبحث عن إفطار فلم يجد، عاد إلى بيترسون الذي كان ينظر لملف وصور الجريمة الخاصة بالرجل المقتول الذي وجدوه البارحة، وتمتم بيترسون : لقد حصلنا على تقرير الطبيب الشرعي، لقد تم نقله من مكانه كما قلت.

- والإصابات الناتجة عن تحريك جثة؟

- موجودة.

- هل هناك أماكن خطيرة بالبلدة من الممكن أن يتم قتله فيها قبل نقله؟

- نعم.

- عليك بتفقد الحانات.

- لماذا؟

- أرضية ممسوحة جديدًا بها بقع داكنة.

- أنت تعتقد أنه قتل في مشاجرة حانة؟

- ربما.

- لماذا؟

- مجرد تخمين، لقد ضُرب على رأسه أليس كذلك؟ بسلاح مستدير، مصنوع من معدن أو خشب زان، ربما سقط وارتطم رأسه بحافة أريكة أو كومود، أو سياج به أسلاك خارج الحانة، لكن ما أعتقده حقًّا هو أداة الجريمة كانت مضرب «بيسبول»، وتلك المضارب ليست منتشرة في الشتاء، الكل يحتفظ بها في القبو ويخزنونها لحين حلول الصيف ؛ لذا فقد أتى أحدهم بمضرب بيسبول لتلقين الرجل درسًا، أو ضربه بمؤخرة بندقية..

طفق بيترسون مفكرًا بكل تلك الاحتمالات وتابع ريتشر : أي حانة يذهب إليها حراس السجن للتسكع؟

- أنت تعتقد أن أحدهم هو القاتل.

- إنهم معتادون على المشاجرات والضرب بالعصيّ.

مط بيترسون شفتيه وعاد لتفكيره العميق..

- سأذهب للتجول قليلًا وتناول الطعام وسوف أعاود الاتصال بآماندا عندما أعود.

- من هي آماندا؟

- قصة طويلة ومعقدة.

ترك ريتشر بيترسون وخرج يتجول وسط شوارع بولتون،

شعر على الفور أن الطقس يستقبله بطريقة حافلة ومؤلمة، إذ كادت الرياح أن تقتلعه من مكانه، وطبعًا لم يرَ شيئًا حوله إثر الثلوج المنهمرة.. هناك شارع يقود لزقاق ينتهي بدوره عند ميدان به متجر ما، ربما يكون مطعمًا أو مغسلة للملابس، تساوت كل الاحتمالات في تلك اللحظة، سار ريتشر منحنيًا وحافرًا طريقه وسط الثلوج لكي يصل للمتجر، الذي اتضح أنه مطعم، دلف ريتشر للداخل وانقطع صفير الرياح عن أذنيه فور دخوله، وجد جاي نوكس -سائق الحافلة - يجلس وحده فوق منضدة.. سار إليه وبادله التحية ثم أمسك بالمقعد في تساؤل مهذب إن كان سيجلس مع نوكس أم لا، لم يبدُ الاهتمام على وجه السائق، بدلًا من ذلك وجده ريتشر بوجه قنوط وشارد، فجلس ريتشر وقال : لماذا تجلس وحدك؟ ألم تستضفك عائلة لطيفة من البلدة؟

- آه نعم، فعلوا ذلك، لكني لم أرد التطفل عليهم في وقت الإفطار فأتيت إلى هنا، حسنًا الحقيقة أني لم أحبهم.

لم يعلق ريتشر فهز نوكس كتفيه فيما معناه أن الأمور السيئة تحدث ثم قال : وأين ذهبت أنت؟

- عند بيت الشرطي الذي أقلنا من الحافلة.

- ولماذا أنت هنا؟ لم يعطوك إفطارًا؟

هز ريتشر كتفيه بدوره ثم قال لنوكس : ألا توجد أخبار جديدة؟

- الشركة قامت بإرسال قاطرتين وصلا في الصباح الباكر وقاما بسحب الحافلة عن الطريق السريع، وهناك حافلة بديلة ستأتي مساء اليوم بعد انتهاء العاصفة.

- جيد.

- لكن الحافلة قادمة بسائق خاص بها وهذا يعني أني سأكون مجرد راكب لا يتقاضى أجرًا في رحلة العودة.

- هذا ليس بأمر جيد، هل رأيت أحدًا من الركاب؟

- بعضهم، ولا يبدون منزعجين مما حدث لتلك الدرجة، هناك حالة تفهم لأحوال الطبيعة، وأعتقد أن بعضًا منهم يستمتع بالرحلة كجزء من المغامرة والغموض الخاصة بالجولة السياحية..

رحل نوكس بعدما أعطى ريتشر هزة رأس، ثم أتت النادلة وطلب ريتشر أكبر وجبة إفطار ممكنة مع الكثير من القهوة..

الخامسة صباحًا، باقٍ من الزمن إحدى وأربعون ساعة.

***

خرج المحامي من مكتبه وجلس بسيارته ينظر للا شيء عبر زجاج النافذة، تلفت حوله لبرهة ولاحظ أن يديه ترتعشان ولم يكن الصقيع هو السبب!

***

كان ريتشر في منتصف وجبته عندما وصل بيترسون فجأة للمطعم، وشعر ريتشر أن الأول أراده أن ينبهر بسهولة تعقب أثره والعثور عليه، لكن ريتشر لم يبالِ حقًّا، فالبلدة صغيرة والقليل من التحليل المنطقي سيقودان بيترسون لاستنتاج أن ريتشر بالمطعم، اتجه إليه بيترسون ليجذب مقعدًا ويجلس قائلًا : أنا آسف أنك لم تتناول الإفطار عندنا!

بفم ممتلئ هز ريتشر رأسه بمعنى أنه لا عليك من هذا فتابع بيترسون: الحقيقة أن كيم تصاب بالوحدة، خصوصًا بعد ذهابي للعمل..

لم يعلق ريتشر، وواصل المضغ وهو يستمع لبيترسون..

- هل تشعر بالوحدة أحيانًا يا ريتشر؟

- آه هه.. كل حين وآخر.

- لو قلت هذا لكيم سيكون ردها «أنت لن تجرب معنى الوحدة الحقيقي حتى تجلس فوق أريكة بجنوب داكوتا في بولتون في بيت بلا زوج»..

- أليست كيم من الريف؟!

- نعم من هنا لكن كونك من مكان ما لا يحتم بالضرورة قبولك له.

- على أي حال لقد امتثلت لنصيحتك وتفقدت الحانات، واحدة منها كانت ذات أرضية نظيفة مسحت

مؤخرًا وبها بقع داكنة، وهي الحانة التي يرتادها بعض حراس السجن، لا يعني هذا أن استنتاجك صحيح وأن أحدهم ضرب الرجل حتى الموت بمضرب بيسبول لكني لا زالت أتفقد تلك الاحتمالية.

- لا شهود؟

- كلا، لكن النادل مفقود حتى الآن، ربما سيارته تعطلت في الثلوج، نحن نبحث عنه.

- حسنًا.

- شكرًا لك على مساعدتك.

- على الرحب والسعة.

- هل لديك أفكار أخرى؟

- لقد تخيلت طريقة تواصل السجين مع العالم الخارجي، وهي عن طريق محامٍ بلا ريب، يقول بنقل تعليماته لشخص ما، عليك البحث عن هذا المحامي..

- حسنًا، وماذا بخلاف ذلك؟

- أنا بحاجة لمتجر ملابس.

- بإمكاني تفهم هذا.

***

أصيب ريتشر بالقليل من الحيرة وهو يبتاع سروالًا وقميصًا قطنيًّا ثقيلًا، ثم اختار اللون الأزرق في النهاية لأن

هناك فتاة أخبرته ذات مرة أنه يليق به، ابتاع كذلك قفازات وغطاء رأس، وأحكم غلق المعطف بعد ذلك، تبًّا فالجو لا يزال باردًا.. وقد سبقه بيترسون للمخفر وعندما ذهب ريتشر إلى هناك بعدما انتهى، وجد حالة فوضى عارمة.

باقٍ من الزمن أربعون ساعة.

***

فوضى عارمة تسود بالمكان، هواتف لا تكف عن الرنين، العديد من أفراد الشرطة يهرعون هنا وهناك، جبين بيترسون يتعرق رغم الصقيع وهو يستمع لمكالمة عبر الهاتف بينما يتحرك إصبعه بعصبية، ريتشر يقف جواره محاولًا استنباط ما يحدث، هناك جريمة ما.. أحدهم قد قُتل في شرق بولتون، انتظر لحظة.. أليس هذا مكان الشاهدة؟ السيدة جانيت سارليت؟ هذا اسمها أليس كذلك؟ عقد ريتشر حاجبيه وهو ينظر لبيترسون منتظرًا، وضع الأخير سماعة الهاتف وزفر بقوة قبل أن يقول متحركًا دون أن ينظر لريتشر : لقد كنت محقًّا.

- ها؟

- لقد وجدوا رجلًا مقتولًا رميًا بالرصاص في سيارته، رصاصة فجرت نصف رأسه، هويته تقول إنه محامٍ، إنهم يتخلصون من كل الأدلة، لقد قتلوا المحامي بالفعل وهذا لا يعني سوى شيء واحد..

- أن رجلهم، القاتل المحترف، ليس في طريقه للبلدة، وإنما وصل هنا بالفعل..

الفصل الثالث عشر

حاول بيترسون الخروج مرتين من المخفر لكن في كل مرة يعيده رنين هاتف مكتبه للداخل، فقد تلقى مكالمتين أخريين ثم هرع للخارج قبل أن يرن الهاتف للمرة الثالثة وهتف لريتشر : تعال معي لو أردت.

- انتظر، أنا بحاجة كي أكون في مكان آخر.

توقف بيترسون ونظر لريتشر نظرة بها قليل من الحيرة وتساءل «هل ستجبن وتتخلى عنا الآن؟».. قال ريتشر : أريد الذهاب للسيدة جانيت سالتر..

- إنها في أمان لا تقلق بشأنها هناك حراسة مشددة تحيط بيتها.. أم.. لحظة.. أنت تعتقد أن قتل المحامي لهي وسيلة كي نتشتت كي يغتالوها..

- ثق بي، لن يحاولوا قتلها اليوم، لأن هناك إجراءات ما سيقوم بها الرجل مثل تبليغ رئيسه أنه قد قتل المحامي والعملية تمت بفاعلية، لكن من الواضح أني سأبقى هنا عدة أيام، وأنا أريد المساعدة، وخير وسيلة للمساعدة هي ذهابي للسيدة سالتر الآن.

- بإمكانك المساعدة في مسرح الجريمة.

- أنت ستجيد تولي تفاصيل الأدلة هناك.

- حسنًا!

- أبلغ رجالك القابعين أمام بيت السيدة سالتر أني ذاهب إلى هناك لا أريدهم أن يعتقدوا أني الغريب المنتظر ويرمونني بالرصاص.

- لكنك لا تعرف أين تقطن.

- لا تقلق، سوف أجد البيت..

رماه بيترسون بنظرة متعجلة ثم قفز في سيارته ورحل، تنهد ريتشر ورفع رأسه ناظرًا للسماء مغمغمًا : كان الأمر ليستغرق مني عشر دقائق فحسب لإيجاد بيت السيدة سالتر لو كنا في فصل الصيف..

وليبرهن قوله انغرزت قدمه وسط الثلوج فاستغرق نصف دقيقة كي يحركها ويأخذ الخطوة التالية، سار ريتشر في الشارع الخالي، لا يكاد يرى شيئًا من حوله، كل شيء لونه أبيض، الهواء لونه أبيض، الثلوج تتساقط والرياح تصفر، شد ياقة معطف والد كيم حول عنقه، وفرك يديه المختبئتين خلف القفازات، ها هو المطعم، والمخفر خلفه الآن، انعطف يسارًا، متجهًا لغرب بولتون، وهو يدندن بلحن أغنية للويس أرسيدونج، ظل يسير بصعوبة، مفكرًا : لم يكن هناك داعٍ للتباهي، كان بإمكاني الذهاب مع بيترسون في سيارته لرؤية جثة المحامي ومسرح الجريمة الخاص به قبل زيارة السيدة سالتر..

لكنه كان يثق بحدسه، والذي يقول له أن يذهب إليها الآن رغم شعوره بأنها ليست في خطر محدق باللحظة

الراهنة، رأى ريتشر سيارة الشرطة أخيرًا في نهاية الشارع ولم يمتلك سوى أن يضحك، لقد كانت السيارة مغطاة بالثلوج حتى تظنها تلة صغيرة، تعمد ريتشر الالتفاف ليراه الشرطي في السيارة وهو قادم من أمامه بدلًا من مباغتته من الخلف، لا يريد أي رد فعل أخرق، أنزل الشرطي زجاج نافذته على مضض وقال بصوت مرهق من الصقيع : أنت ريتشر؟ هز الأخير رأسه، وقد أجبره البرد على إبقاء فمه مغلقًا، لم يعد لديه طاقة ولا قدرة على الحديث.. بطاقة تعريف الشرطي التي اعتلت قميصه تقول إن اسمه مونتغمري، كان طليق اللحية وممتلئ الجسد في أواخر العشرينيات، لم يكن من عينة الرجال الذي سيصمدون في الجيش أكثر من أسبوع، قال مونتغمري : منزل سالتر هو آخر منزل على اليسار..

كان المنزل يطابق وصف بيترسون لصاحبته، كأن بيتها قد اكتسب جزءًا من شخصيتها الكلاسيكية، بيت فيكتوري جميل وعتيق، تشعر وكأنه هنا منذ عام 1890، منزل يلائم «الجدة التقليدية في الحكايات» طبقًا لوصف بيترسون لها، معلمة في المدرسة وأمينة مكتبة، تخيلها ريتشر، بنظارة وظهر منحنٍ، وجه به تجاعيد، شعر أبيض معقوص للخلف، وابتسامة ودود، عينين زرقاوين، وربما كوب شاي وكتاب في يدها، ثم نفض ريتشر رأسه، لقد تخيل الشكل الكلاسيكي للجدة فعلًا بعدما زرع بيترسون تلك الفكرة في ذهنه، لكن الحقيقة أنه كان متحمسًا

لمقابلتها فهو لم يقابل أيًّا من جدتيه أبدًا، جدته من أمه تُوفيت وهو رضيع، وهناك صورة له وهو ابن العام الواحد على حجر سيدة، قالوا لها إنها جدته من أبيه، لكن لم يرَها أبدًا كذلك، هنا لاحظ وجود تلة أخرى اتضح أنها سيارة شرطة مغطاة بالثلوج، الكشافات غير مضاءة وعينا الشرطي الجالس بداخله تتابعان ريتشر بحرص، ثم فتح الشرطي باب سيارته وقال بصوت جهوري : أنت ريتشر؟

- آه هه.

- سوف أقوم بتفتيشك.

- من الذي صرح بأمر كهذا؟

- نائب المأمور.

- وعلام ستفتش بالضبط؟

- أسلحة.

- المرأة في السبعين من العمر، هل سأحتاج لسلاح لو أردت إيذاءها.

- كلا لكنك سوف تحتاجهم لمواجهتنا.

هذا الشرطي كان أنشط وأكثر ذكاء من الأول، رياضي الجسد وحازم الوجه، فيما يبدو أن قسم شرطة بولتون ينقسم لقسمين، رجال فاقدون الشغف ولا يعبئون لشيء، وآخرون في أتم الصحة البدنية والذهنية ويأخذون عملهم

بكل جدية، هز ريتشر كتفيه وفتح معطفه على مضض قبل أن يرفع يديه فاقترب منه الشرطي بوجه جامد وفتشه قبل أن يشير للبيت ويقول : إنهم في انتظارك.

لم يعلق ريتشر واستدار ثم سار بتؤدة صوب البيت وهو يغلق أزرار المعطف، وبينما تعتلي قدماه عتبة البيت شعر أنه سيرى سانتا كلوز يخرج منه ولسوف يسمع صوت أجراس الكريسماس، مد يده وطرق على الباب ولم تمر ثانية قبل أن تفتحه شرطية ضئيلة الحجم ذات شعر أسود متوسط الطول، ترتدي الزي الرسمي بمسدس في غمدها، لكن يدها كانت فوق السلاح بعدما أزالت غطاء الغمد، رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت : أنت ريتشر؟

أراد للحظة أن يخبرهم أن طريقتهم تلك خاطئة في سؤال أي شخص غريب يقترب من البيت إن كان ريتشر لكنه آثر الصمت، وهز رأسه إيجابًا فقالت له: «ادخل»..

مدخل البيت كان مطليًّا باللون الداكن والجدران مزينة باللوح الزيتية، هناك سلم يقود للطابق العلوي مقابل للباب وعلى يمينه ترتمي غرفة معيشة أنيقة ممتلئة بالزهور، هناك بيانو ذهبي اللون، ومكتبة أنيقة تجاور غرفة المعيشة، قالت الشرطية لريتشر : السيدة سالتر تنتظرك في المكتبة.

المكتبة كانت كبيرة بحق ويحيط بها سقف عملاق يظلل مئات الأرفف وآلاف الكتب، هناك باب زجاجي يقود للحديقة الخلفية، حيث توجد شرطية أخرى تتولى نوبة

الحراسة في الحديقة، التفتت ونظرت إليهم لثوانٍ، تلاقت عيناها مع الشرطية الواقفة جوار ريتشر ثم عادت لحراسة الحديقة، لكن ريتشر لم يُلْقِ بالًا لها، كان ينظر لتلك السيدة العجوز الجالسة داخل مقعد مريح بذراعين ممتلئين، المعلمة المتقاعدة، أمينة المكتبة، السيدة جانيت سالتر..

نظر كلاهما للآخر في صمت، ثم ابتسم كل منهم وقالت السيدة سالتر بلطف : هلّا تناولت الغداء معي؟

الخامسة عصرًا.. باقٍ من الزمن تسع وثلاثون ساعة.

الفصل الرابع عشر

أعدت جانيت سالتر الغداء بنفسها وراقبها ريتشر وهي تتحرك بخفة وتلتقط الأطباق من حاملهم وتذهب بهم للموقد وتحرك الإناء ذا الماء المغلي، كانت تختلف تمامًا عما تخيله ريتشر وعن وصف بيترسون، نعم هي في السبعين من العمر وذات شعر أبيض لكنها بدت كامرأة لطيفة للغاية ومرنة وليست حازمة أو صارمة أو حتى تقليدية كما أن واقع بيتها يقول إنها ليست حرفيًّا بجدة، لا خاتم زواج ولا صور لأبناء، سألته وهي تغرف الطعام : أنت أحد أصحاب الحظ العسر من ركاب الحافلة أليس كذلك؟

- أعتقد أن الآخرين كانوا أكثر سوءَ حظٍّ مني، خاصة من أصيبوا برتوش أو كدمات على الأقل..

- فهمتك، فقد تطوعت كي أستضيف أحدهم في هذا البيت بالطبع، توجد مساحة وافرة وأستطيع استضافة عائلة كاملة لكن المأمور هولاند رفض بشدة.. نظرًا للظروف الراهنة..

- هذا قرار حكيم منه.

- لأن وجود أفراد إضافيين سيعرقلون من عمل الشرطة؟

- كلا، لأن وجود أفراد إضافيين في ظل الظروف الحالية سيعرض حياتهم للخطر.

- تلك إجابة صادقة، أنا أقدر الصراحة، لقد أخبروني

أنك خبير، رجل جيش سابق، ضابط عسكري حسبما قالوا وقائد لوحدة عسكرية كذلك..

- ليس لفترة طويلة.

- وحدة رفيعة المستوى؟

- هذا ما حاولنا إقناع أنفسنا به.

- هل تعتقد أني اتخذت القرار الصائب يا سيد ريتشر؟

- بأن تشهدي في المحكمة؟ هذا يتوقف على ما رأيتيه، على قدر ما رأيتيه أقصد.. هل سيكفي للزج بهذا الرجل في السجن أم لا؟!..

فكرت قليلًا في كلامه ثم قالت وهي تحرك الملعقة وتقلب الإناء : لقد رأيت ما رأيته، محادثتهم معًا وتبادل البضائع بالمال من على مسافة عشرين ياردة، كنت أجلس داخل المطعم وأطل برأسي من النافذة.

- هل كان الزجاج نظيفًا؟ أم معبأ بالبخار؟

- نظيف.

- كانوا أمامك مباشرة؟

- نعم.

- وحالة الطقس؟

- صافٍ وبارد..

- والتوقيت؟

- بداية المساء.

- نظرك سليم أليس كذلك؟

- بلى، أعني أحيانًا أرتدي نظارة إبان القراءة، لديّ طول نظر بمقدار قليل لو أردت معرفة التفاصيل.

- وما هي البضاعة التي كانت محور الصفقة؟

- هيروين يا سيد ريتشر، لم أعتقد أن سيأتي وقت في حياتي وأستخدم تلك الكلمة البغيضة، هيروين، مسحوق أبيض معبأ في أكياس بلاستيكية محكمة التغليف..

- وأنت تمكنت من رؤية هذا من مسافة عشرين ياردة؟

- تلك هي ميزة طول النظر..

- لم تحتاجي لتخمين أو ملء فراغات المشاهد بأي محتوى من عقلك؟ أنت واثقة بشكل كلي مما رأيتيه؟

- نعم.

- حسنًا!

وابتسم ريتشر مضيفًا : أنت شاهدة مثالية وممتازة..

ابتسمت له وهي تحضر طبق سلاطة للمنضدة، ثم عادت وأحضرت طبق خضراوات أعقبته ببيض مسلوق ساخن، يداها صغيرتان للغاية كالأطفال، لم تكن ترتدي أي مجوهرات، أظافرها مُقلمة، رفع ريتشر عينيه من

على يدها ونظر لوجهها، كانت امرأة راقية بحق، وبدا له أنها تنتمي لعالم آخر، على الأقل بيترسون كان محقًّا بهذا الصدد، جدة من حكايات الأطفال..

بدأ كلاهما في تناول الطعام ثم سألها : كم كان عدد رواد المطعم في تلك الليلة؟

- خمسة، ستة لو حسبنا النادلة.

- وهل رأى أي منهم ما حدث؟

- أعتقد أن جميعهم قد شاهدوا ما حدث لكنهم تظاهروا أنهم لم يروا شيئًا.. الخوف عامل قوي يا سيد ريتشر.

- هل تتذكرين عندما بنى الجيش منشأته العسكرية في بولتون؟

- كلا، لقد سألني كل من المأمور هالتون وسيد بيترسون عن تلك المنشأة، لكني أعلم مقدار ما يعلمونه بالضبط، لقد كنت مسافرة في بعثة تعليمية وقت بناء تلك المنشأة.

- ولم تسمعي شيئًا عنها عند عودتك؟ الإشاعات تقول إنهم قد استغرقوا أشهرًا في بنائها..

- ولم تتسنَّ لك الفرصة لرؤيتها في يوم عطلة على سبيل المثال.

- أنا كنت ببعثة علمية خارج البلاد، في أوكسفورد، إنجلترا..

اعتلت الدهشة ملامح ريتشر، فابتسمت سالتر مضيفة برفق : كنت تعتقد أني شغرت وظيفة معلمة بمدرسة محلية ببولتون، امرأة عجوز لم ترَ العالم من قبل..

عاد الاثنان لتناول الطعام وحرص ريتشر على تناوله بدقة أمام تلك السيدة النبيلة التي لو كانت بزمن آخر لكانت جان أوستن أو امرأة أرستقراطية تحيا مع الشاعر شيلي!

ثم عادت سالتر للحديث بعدما انتهت من تناول طعامها، ثم حاول ريتشر الرد عليها قبل أن يلوك ما في فمه.

- أنا أعرف كل شيء، يا سيد ريتشر، عن الأزمة الحالية بالسجن.

وجد ريتشر نفسه يقول بطريقه مباغتة : لا تقلقي يا جانيت، لو سمحتِ لي بدعوتك جانيت، أنا هنا من أجلك..

***

أنهى بلاتو مكالمة تليفونية مع رجله، المحامي قد مات، رصاصة فجرت نصف رأسه، هز بلاتو كتفيه وواصل التهام الطعام، فهو رجل يقدر الطعام، ففي نشأته كانت فكرة إيجاد وجبة طعام تلك أشبه بالحلم بالنسبة إليه، ولكي نكون عادلين مع بلاتو، تاجر الهيروين والقاتل الذي يكتفي بإعطاء الأوامر، فقد أراد الأرض كلها نفسه، رجاله

يسيطرون على المخيمات بالفعل، لكن منزل تلك السيدة اللعينة، هذا البيت الفكتوري الذي يحجز باقي الرقعة، ستكون جائزة إضافية حصوله على أرضها بعد موتها لتوسيع نطاق عمليته أكثر.

***

بعدما انتهوا من تناول وجبة الغداء وجد ريتشر نفسه جالسًا في غرفة الضيوف أمام لوحة زيتية لفتاة صغيرة تلعب في العشب، ابتسمت جانيت وهي قادمة تحمل طبقًا عليه قدحا شاي أخضر اللون وهندي المصدر، ناولت ريتشر قدحه وقالت بابتسامة واسعة وهي تنظر للصورة : هذه أنا برفقة أبي، لقد كان رسامًا ورباني على حب كل أنواع الفن، لكن القراءة هي من سرقت قلبي.. هل تعلم عن الميثامفيتاين؟ أو الكريستال ميث؟ هذا هو جوهر مخدراتهم التي يصنعونها بالمعمل والذي يشك بيترسون بدوره أن هذا المعمل في المنشأة العسكرية الخاصة بكم.

- بهم يا سيدتي، أنا لم أعد مع الجيش.

قالها ريتشر بابتسامة لطيفة.

أومأت برأسها كأنها تقدر أهمية تلك المعلومة رغم أنها لا تعني لها شيئًا، لكن بما أنها تعني شيئًا لك فأنا أهتم أيضًا، كانت من تلك النوعية المراعية من البشر.. وأردفت: في الماضي كانوا يدعون هذا المخدر بـ»بيرفيايين» حين اكتشفوه خلال الحرب العالمية الثانية، هذا المخدر السام،

كان بمثابة الشوكولاتة، حيث يُستخدم للجرحى والمصابين، لتسكين آلامهم مثل المورفين بالضبط، ثم تغيرت الأشياء بالطبع بعد الحرب وأصبحوا يصنعونه بشكل غير قانوني، يمكنك الآن ابتياعه من بعض البؤر المشبوهة في ضواحي تكساس.. ولا تأخذ الفكرة الخاطئة عن المأمور هولاند، فهو لم يُصَبْ بالكسل، وإنما.. آه ما هو التعبير.. فقد شغفه.

- الجميع يفقدون شغفهم الآن، هذا ليس بمبرر لأي شيء.

- لقد ماتت زوجته ورحلت ابنته.

طفق ريتشر برأسه ثم سألها : لقد عرضوا عليك برنامج حماية الشهود الفيدرالي لكنك رفضتِ!

- ربما كان يجب عليَّ القبول لكني فضّلت البقاء في بيتي.

ثم أخذت نفسًا طويلًا كأنها على وشك شرح شيء غاية في الأهمية وقالت : أنا لم أمتلك عائلة، وبعض الأماكن لها ذكريات، هذا البيت، الحديقة، المكتبة، هو عائلتي.. لن أستطيع تركه أبدًا.

دارت عينا ريتشر في البيت وشعر بالأخير يومئ برأسه لها موافقًا، ثم سألها برفق : أليس لديك أحفاد؟

- كلا، لم نحظَ بأطفال، أردنا ذلك بشدة، أنا وزوجي،

لكنه تُوفي قبل أن تتاح الفرصة، لقد كان رجلًا إنجليزيًّا، لماذا تسأل عن الأحفاد؟

ابتسم ريتشر مرة أخرى وهو يقرر الوشاية ببيترسون وأردف : لقد وصفك بيترسون كأنك جدة من حكايات الأطفال.

- أوه حقًّا.

ثم نظرت إليه باهتمام وسألته فجأة : أين ترعرعت يا سيد ريتشر؟

- في مختلف القواعد العسكرية.

- هذا غريب.

- القصة تقليدية، أبي جندي مارينز، ولدت أنا وأخي في قاعدة أمريكية بألمانيا، كل يوم بيت جديد ومدرسة جديدة، اعتدت على الترحال، والدتي فرنسية وقد وقعت في غرام جندي المارينز، ربما كانت تعتقد أنه من سلالة إلفيس بريسلي، لكنه لم يكن، كان أبًا رائعًا رغم هذا وعلمني الكثير، وكذلك والدتي..

- أبي ولد هنا بجنوب داكوتا، وأنشأ هذا البيت بنفسه، هذا البيت كان حلمه، وقد مات سعيدًا وهو ينظر لحلمه ماثلًا أمام عينيه، وعائلته تحيا داخل هذا الحلم..

تنهد ريتشر متخيلًا حياة تلك الرجل، يعمل كادحًا ليحقق حلمه، والآن تأتي شرذمة من المجرمين محاولين

تدمير هذا الحلم، التفت صوب جانيت التي كانت شاردة، هل كانت تفكر في نفس ما يفكر به وهي تنظر لصورة جدها، أتت الشرطية وألقت نظرة عليهم لتطمئن أن كل شيء يجري على ما يرم، أن ريتشر لم يخرج سلاحًا فتاكًا وقتل جانيت، تفقدت عينا ريتشر المكتبة، شعر أنه في قصة 451 فهرنهايت، تلك هي العجوز الوحيدة التي تقرأ الآن قبل أن يعلنوا عدم قانونية نشر الكتب ويحرقونها في رواية الخيال العملي تلك، هناك أيضًا روايات لديكنز، ميلر، جان أوستن، ماري شيلي، مط ريتشر شفتيه في إعجاب، الجدة التي لم يحظَ بها، هي حقًّا امرأة ساحرة تحيا داخل عالمها الخيالي، عالم سحري مثل أليس في بلاد العجائب، هنا عرضت السيدة سالتر الطعام على الشرطية وأعطتها كوب قهوة، آه لشدة ما يحب ريتشر القهوة، لو تسنى له الاختيار فلسوف يقضي حياته يشرب القهوة بدلًا من المياه، رغم أن هذا لن يجعله يصمد أسبوعًا واحدًا على قيد الحياة، هنا وصل المأمور هولاند وجلس معه ريتشر داخل المكتبة العريقة.. أفاقت جانيت من شرودها ونقلت ناظريها بين ريتشر وهولاند ثم قالت مبتسمة : سأعد لكم مزيدًا من القهوة وفطيرة محلاة.

قال ريتشر لهولاند فور رحيل جانيت : هل هناك جديد بشأن الرجل القتيل، المحامي؟

- لا أعلم إن كانت نظريتك التي أدليت بها لبيترسون حقيقية أم لا، ربما الأمر لا يتعدى كونه سرقة تحولت

لقتل عمد، وربما هو حقًّا - المحامي - حلقة وصل بين السجين وبلاتو وقرروا التخلص منه، هناك شيء آخر..

- ما هو؟

- الرجل كان محاميًا لكننا لم نجد معه حقيبة عمل، هل تتخيل ذلك؟ محامٍ بدون حقيبة؟!

- همم، هل وجدتم حافظته وساعة يده؟

- نعم.

- لكنهم أخذوا حقيبته، إنها ليست سرقة إذًا، ربما لم يحضر حقيبته لأنهم نصبوا له كمينًا، مكالمة هاتفية تستدعيه لشأن طارئ وغير قانوني؛ ولهذا لم يأخذ حقيبته معه..

- هل لديك قائمة بعملائه؟

- آه هه، كلهم مجموعة من الأوغاد قبضنا عليهم خلال العام السابق.

استمع ريتشر لصوت غلاية القهوة لثوانٍ وابتسم في عقله وهو يتخيل جانيت تقف بكبرياء أمامها، ثم انتبه لصوت هولاند الذي يردف : أنا قلق بشأن السيدة سالتر، قلق للغاية، لو حدثت حالة شغب واحدة في السجن أو هرب فلسوف نضطر لجمع كل قواتنا وإرسالهم بعيدًا وستظل هي دون حماية، وأنا واثق أنهم سيسعون للتخلص منها قبل المحاكمة.

ثم تنهد هولاند وأردف : مكتب مكافحة المخدرات

يضعون كل ثقلهم ضد بلاتو والطرف الروسي، وفجأة أصبحت السيدة سالتر أهم عنصر في تلك المعادلة، لأنها رأت المهرب وهو يتبادل المخدرات مع رجل عصابة الدراجات البخارية، وهي الوحيدة التي تمتلك الشجاعة كي تشهد ضدهم، بلاتو لن يهدأ له بال، أعني أنه تخلص من المحامي بالفعل وفقًا لنظريتك..

صمت هولاند عندما دخلت جانيت سالتر المكتبة حاملة القهوة، في إناء صيني فاخر وهناك ابتسامة لطيفة على وجهها، وجد ريتشر نفسه يبتسم لها بتلقائية، كانت تحمل ثلاثة أقداح من القهوة والكريم والسكر في الإناء الصيني، وبدت الشرطية سعيدة بقدح القهوة الخاص بها، جلست جانيت سالتر معهم عندما رن هاتف هولاند فأجابه بعجالة واستمع لصوت عبر الهاتف ثم أنهى المكالمة ونظر لريتشر قائلًا : لقد قبضنا على الرجل الذي أردى المحامي قتيلًا.

***

باقٍ من الزمن ثمانٍ وثلاثون ساعة..

الفصل الخامس عشر

ذهب ريتشر مع هولاند لقسم الشرطة حيثما استقبلهم بيترسون بابتسامة المنتصر، لكن ريتشر لم يكن مرتاحًا للأمر كله، النتائج السريعة الإيجابية غالبًا ما تكون مصدرًا للشك، تلك هي قوانين الطبيعة بالنسبة لجاك ريتشر، سأل بيترسون فور رؤيته : من القاتل؟

- جاي نوكس، سائق الحافلة..

ثم حكى لهم بيترسون ما توصل إليه، أحد رجال الشرطة القدامى ذوي الخبرة الذين يعملون بقسم شرطة بولتون لاحظ شيئًا غريبًا، وهذا الشيء كان جاي نوكس، يتجول وحيدًا وسط الثلوج، وقد أثارت طريقة سير جاي نوكس وردود أفعاله ريبة الشرطي الذي استوقف نوكس وقام بتفتيشه إثر حالة التأهب العاملة للبلدة ووجد مسدس غيار غلوك 17 في جيب نوكس، اعتقل الشرطي نوكس وقادة لمخفر الشرطة، وحاليًّا يقبع نوكس في زنزانة مع ملاحظة أنه لم يطالب بحقه في محامٍ حتى تلك اللحظة، ذهب هولاند ليلقي نظرة على نوكس في زنزانته، وبدا لريتشر كسائح متحمس يريد إلقاء نظرة على حيوان مفترس تم القبض عليه في حديقة الحيوان، بقي بيترسون مع ريتشر، وبدا للأخير أن الأول يفكر في منطق الجريمة، ويقنع نفسه بأن نوكس هو القاتل، سأله ريتشر : «كم رصاصة وجدتموها في جسد المحامي؟»

- واحدة، في صدغه..

- عيار تسعة مليمترات؟

- نعم.

- هذا رصاص شائع الاستخدام.

- أعرف هذا.

- هلا أريتني ملف الأدلة وصور مسرح الجريمة؟

أخرج بيترسون الملف وأعطاه لريتشر الذي جلس بهدوء فوق المقعد في غرفة التحقيقات وطالعت عيناه الملف، مسدس من طراز غلوك 17، تلك النوعية من الأسلحة التي لا تكشف عنها أجهزة الكشف عن الأسلحة في المطارات، لكن لا توجد مطارات هنا في بولتون، بعد هذا يتضح نوعية عيار الرصاصات، أو الرصاصة للدقة، ثم ثلاث صور للقتيل، جثة تقبع وسط الثليج، بقعة من الدماء في جانب رأسه، عينان شاخصتان لرجل عرف سر الحياة قبل موته، الصورة الثانية كانت للسيارة الخالية، تلك السيارة التي تسببت في حادثة الحافلة لكن كلًّا من ريتشر وبيترسون لم يعرفا هذا، الأول كان نائمًا والآخر لم يكن هناك ليشهد تلك الواقعة، الصورة الثالثة كانت لوضعية مختلفة لجثة المحامي، غمغم ريتشر : صور جيدة وواضحة.

- لقد بذلت قصارى جهدي.

قالها بيترسون بسخرية مريرة..

- لا توجد بصمات.

- كلا، في الأغلب ارتدى قفازات.

- السيارة يابانية الصنع، من طراز «إنفينيتي»، موديل في 6، سيارة عملية مجهزة للتعامل مع ثلوج جنوب داكوتا.

واصل ريتشر مطالعة باقي الصور والأدلة ثم قال : ما هي المطابقة الرسمية للجريمة؟

- المحامي يقود سيارته، يرى نوكس واقفًا وسط الثليج، يتوقف لمساعدته ويفتح باب سيارته لتستقر رصاصة نوكس في رأسه.

- من الذي وجد الجثة وأبلغ عنها؟

- مسافر كان يتجه شرقًا في سيارته.

- هل نوكس أيمن أم أعسر؟

- لا أعلم، لكن في الأغلب أيمن، أغلب القوم كذلك.

- هل وجدت غلاف الرصاصة؟

- كلا.

- لو كان نوكس رجلًا أيمن الساعد واستخدم مسدسًا من طراز غلوك 17 فلسوف يرتدّ غلاف الرصاصة يسارًا ويترك أثرًا على يده.

- حسنًا!

- كما أن لا بد لنوكس أن يكون راميًا بارعًا للغاية لتستقر الرصاصة داخل رأس المحامي بهذا الشكل، هل نوكس رامٍ بارع؟

- لا أعلم.

- عليك محاولة اكتشاف إجابة لهذا السؤال.. بالمناسبة لقد قابلت نوكس هذا الصباح.

- وكيف كان حاله؟

- لم يكن في أفضل مزاج، الحقيقة أنه كان متعكر البال وقلقًا بشأن فقدان وظيفته.

- في الأغلب كان متوترًا بشأن مهمته كقاتل أجير لكي يتخلص من المحامي.

لم يعلق ريتشر، لكنه لم يكن مقتنعًا على الإطلاق بكون نوكس هو القاتل المحترف القادم للبلدة ليتخلص من جانيت سالتر والمحامي.. ثم سأل ريتشر : كيف عرف نوكس أن المحامي سيكون على هذا الطريق؟ هل قرر الانتظار وسط الثلوج آملًا أن يمر الأخير؟ أنا غير مقتنع بفكرة وصول نوكس لبولتون من الأساس، الحادثة لم تكن مفتعلة، اعتقدت أنك قد قبضت على رجل بريء.

- تلك ليست بجملة يحب رجل شرطة أن يسمعها.

- أعرف هذا، لكن هذا لا يقلل من صحتها.

- لقد وجدنا معه مسدسًا تم إطلاق رصاصة منه.

- إذًا القضية مغلقة ! أنت واثق من كونه القاتل؟

- نعم، واثق.

- إذًا اسحب رجالك من بيت جانيت سالتر، هي في أمان الآن.

- هذا قرار يعود لهولاند.

- لو كان قرارك ؛ ما الذي كنت لتفعله؟

- لا أعرف يا ريتشر الأمور ليست بتلك البساطة.

كرر ريتشر : لا أعتقد أن نوكس هو القاتل.

***

باقٍ من الزمن سبع وثلاثون ساعة.

الفصل السادس عشر

رفض المأمور هولاند إخلاء الحراسة الخاصة بجانيت سالتر، ليس لأنه يؤمن ببراءة جاي نوكس لكن لثقته أن بلاتو سيرسل قتلة آخرين للتخلص من الشاهدة، بعد ذلك تعقدت الأمور أكثر عندما تحدث جاي نوكس وأدلى بشهادته، قال لهم إنه كان في حالة غضب شديدة وقانط على مديره والشركة والحادثة اللعينة وكل ما حدث، ولم يرتح مع مستضيفيه في البلدة، وانزعج للغاية من تطفل ريتشر عليه في المطعم فقرر التجول وحيدًا وسط الثلوج للتنفيث عن غضبه، وقادته قدماه للجسر واللافتة التحذيرية، موقع الحادثة، وفي وسط غضبه أخرج مسدسه - الذي يحمل رخصة له ويأخذه معه للحماية إبان رحلاته - وأطلق رصاصة غاضبة على اللافتة، وكان مستعدًّا للاعتذار عن تلك الفعلة، ثم واصل مسيرته الطويلة حتى استوقفه الشرطي، ذهبوا بعدها وطابقوا شهادته باللافتة التحذيرية ووجدوا رصاصة مستقرة بداخلها بالفعل مطابقة لمسدس نوكس، أفرجوا عنه بعد هذا لكنهم احتفظوا بسلاحه المرخص، ورآه ريتشر وهو يخرج بوجه مكفهر من مخفر الشرطة، وعادت حالة التأهب القصوى لقسم بلدة بولتون، حتى إن المأمور هولاند أرسل الشرطين المعاقبين - كابلر ولويل - للعمل الميداني..

الكل عاد للعمل والبحث عن غريب في البلدة، وجه غير مألوف، هناك قاتل بيننا يا سادة.

أخرج بيترسون ملف القضية مرة أخرى ورماه فوق درج مكتبه وهو يقول : لقد أضعنا الكثير من الوقت وتصرفنا بحماقة!

- لم تهدر هذا القدر من الوقت كما أن نظريتك صحيحة بشأن استدراج المحامي وقتله وسط الطريق أنت كنت مخطئًا فحسب بشأن نوكس، عدم وجود آثار أقدام جوار سيارة المحامي يقول إن سيارة مسرعة مرت جواره، وسائق تلك السيارة رفع ذراعه وأطلق رصاصة واحدة من نافذته المفتوحة لتستقر بصدغ المحامي، نحن نتحدث هنا عن طلقة انطلقت من مسدس في يد ثابتة تعود لسائق سيارة متحركة، هذا رجل محترف، سريع وصامت، يقتل باقتضاب، هل تفهم ما يعنيه هذا؟ خبرة، الكثير منها، هذا الرجل قتل مسبقًا، وعدة مرات، أما بشأن استدراج المحامي وخروجه بدون حقيبته في هذا الطقس فهذا دليل آخر على كونه طرف الاتصال بين السجين وبلاتو أو أيًّا كان اسمه، هذا المحامي خرج وسط عاصفة ثلجية دون سبب رسمي؛ لأنه كان خائفًا ومتورطًا في عمل غير قانوني..

ثم تابع ريتشر : بلاتو يعرف كيفية تنفيذ مهامه القذرة جيدًا.

***

انتهى بلاتو من هرولته المسائية ثم عاد لفيلته ليتحمم،

صفف شعره وسط بخار المرآة وارتدى ملابسه وذهب بعدها للقبو الخاص بالفيلا حيثما رقد رجل عاري الجذع مقيد الأصفاد ينزف، هذا الرجل تجرأ وحاول سرقة بلاتو، وعقاب الأخير للرجل كان بمثابة تحذير أسطوري من العصور الوسطى للجميع الذين يفكرون بالتطاول على الملك، لقد قطع قدم الرجل وتركه ينزف أو ينفق من الظمأ في تلك الزنزانة بالقبو، لكنه ترك خيارًا آخر للرجل، وهي بلطة ملقاة بجواره، بإمكان الرجل أن ينهي حياته بها أو يختار الطريق الطويل للموت والأكثر عذابًا، ابتسم بلاتو وهو ينظر للرجل ثم صعد ليتناول العشاء.

***

نظر بيترسون لساعته ثم قال لريتشر : لِمَ لا تتصل بوحدتك العسكرية لعلهم وصلوا لإجابات بشأن المنشأة؟

ثم تابع بينما ريتشر يتجه للهاتف : ما هو انطباعك عن السيدة سالتر؟

- امرأة مثقفة للغاية.

- كشاهدة أعني.

- شاهدة مثالية، وباسلة للغاية لكنها خائفة.. ولا أستطيع لومها على ذلك..

- لِمَ لا تطلب من الفيدراليين أو مكتب مكافحة المخدرات إرسال رجال لحمايتها؟

- وسط تلك العاصفة سيكون هذا أمرًا مستحيلًا.

- عليك حماية تلك السيدة الباسلة.

- لقد أخبرناها أن الأمر كله اختياري، لا يوجد إجبار لكونها شاهدة، الأمر كله اختياري..

- بالنسبة لسيدة مثل جانيت سالتر، فالأمر كله يقع تحت طائلة الإلزام والواجب، فهي ستشهد بما رأته.

تنهد ريتشر والتقط سماعة الهاتف، ثم أجرى الاتصال بالوحدة العسكرية.. أجابه نفس المتحدث السابق، قال له ريتشر : أريد الحديث مع آماندا..

ساد صمت وسمع ريتشر صوت تحويل المكالمة قبل أن يأتيه صوتها الدافئ، الناعم والجذاب وهي تقول بهدوء : أنت مزعج للغاية ومثير للمتاعب.

- لقد قيل لي ما هو أسوأ.

- هممم!

- لماذا أنا مزعج ومثير للمتاعب؟

- لأني لم أجد أي سجلات بشأن منشأة تابعة لنا في بولتون، وقد أثار هذا فضولي.

- ربما هي لم تستخدم قط وعليه لا توجد سجلات بشأنها، ربما تم بيعها للقطاع الخاص.

- لقد بحثت في سجلات عمرها خمسون عامًا.

- ولم تجدي شيئًا؟

- كلا، والجيش لا يبني منشأة دون سجلات رسمية، وهذا يعزز احتمالية كونها منشأة سرية.

- أغلب منشآت الجيش سرية.

- البعض أكثر سرية من الآخر.

- لكنها مهجورة الآن.

- لو كان الأمر مهمًّا بالنسبة لك بإمكاني البحث أكثر، لكن هذا سوف يكلفك.

- ماذا سيكلفني بالضبط؟

تنهيدة ساحرة أنثوية، شديدة الحميمية ثم قالت : أريد معرفة القصة الحقيقية وراء الانبعاج في المقعد..

- لكنك مشغولة للغاية.

- في تلك اللحظة أنا أتسكع وأزجي الوقت بانتظار مكالمة هاتفية.

- بخصوص شيء مثير للاهتمام.

- آه هه.

- أخبريني بشأن هذا الصدد المثير للاهتمام.

- تلك ليست صفقتنا، من المفترض أن تخبرني أنت بقصة المقعد..

- لا أريد الحديث عبر مكالمة محولة رسمية.

- لا أحد يتنصت لا تقلق.

- حسنًا سوف أخبرك عندما نتقصّى أكثر بشأن المنشأة.

- أنت صعب في التفاوض.

- أنتِ كذلك.

- أعطني تلميحًا على الأقل.

- حسنًا، لم يكن الأمر متعلقًا بكولونيل، كان جنرالًا ذا نجمة واحدة.

***

أجرى بلاتو مكالمة هاتفية بعدما تناول الطعام وتلذذ بسماع صراخ السجين في القبو، وقال عبر الهاتف : ما هي المستجدات بشأن بلدة بولتون؟

- لقد تم الاعتناء بالمحامي بشكل نهائي.

- والشاهدة؟

- ليس بعد.

- متى إذًا؟

- قريبًا جدًّا.

أغمض بلاتو عينيه وتحكم في غضبه، وتخيل - كعادته - ما سيجري خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة، ثم قال

بصوت خفيض : اتصل برجلنا وأخبره بعدم وجود مجال لتأجيل مسألة التخلص من الشاهدة.

- سوف أفعل هذا.

أنهى بلاتو المكالمة وقام بإجراء أخرى، بشأن الصفقة الروسية تلك المرة، ثم مكالمة ثالثة بشأن رحلته لكندا واصطحاب ستة رجال للحماية في تلك الرحلة.

***

شرد ريتشر يفكر بالمرأة صاحبة الصوت الساحر عبر الهاتف، ذات الاسم المستعار، والدلال الغامض، ثم انقطعت أفكاره عندما سمع صياحًا في قسم الشرطة، أحدهم يتشاجر عبر الهاتف، خرج كل من بيترسون وريتشر من الغرفة لتفقد الأمر ليجدوا شرطيًّا مسنًّا يضع سماعة الهاتف ويقول لبيترسون : مشاكل تابعة لعصابة الدراجات البخارية، لقد كان أحدهم على الهاتف يخبرنا أن ثلاثة من رجالهم مفقودون، ونحن لا نفعل شيئًا بهذا الصدد، وعندما أخبرته أننا سنستقصي عن الأمر سبني وقال إننا لا نفعل شيئًا، وأنهم سيأتون للبلدة من المخيم للتصرف بهذا الشأن، وأعطاني مهلة للغد قبل مجيئهم..

***

الساعة الخامسة عصرًا، باقٍ من الزمن خمس وثلاثون ساعة.

الفصل السابع عشر

استند بيترسون على الجدار وغمغم بإرهاق لريتشر : هولاند يقول إنه تهديد ليس أكثر.

- هناك طريقة واحدة لتفقد صحة تهديدهم.

- وهي؟

- سوف أذهب إليهم، بحجة تفقد المنشأة العسكرية، وكوني رجل جيش، أنا بحاجة لرؤية المكان وسوف أذهب قبل انتهاء موعد مهلتهم.

- سيطلبون رؤية هويتك؟

- كلا، لن يفعلوا ذلك، المدنيون فقط من يفعلون ذلك ونحن نتحدث عن تجار مخدرات.

- متى ستذهب؟ وهل ستذهب وحدك حقًّا؟

- آه هه، بشكل غير رسمي، لا يوجد سبب فعلي للذهاب في قلب الليل ومهلتهم حتى الغد، سوف أذهب قبل الغروب.

- حسنًا، أنت بحاجة للراحة، لنعد للمنزل.

- كلا، بإمكانك أن تقلني لمنزل جانيت سالتر، سأقيم معها، فهي تمتلك غرفًا عديدة وقالت لي إنها عرضت استضافة ركاب الحافلة، وأنا لا أبالي بكوني في مرمي النيران، أريد حماية تلك السيدة الباسلة.

فكر بيترسون لثوانٍ فيما قاله ريتشر، ثم هز رأسه موافقًا، وكاد أن يقول شيئًا ثم تدارك نفسه وقال : كدت أن أقول لك إني سوف أحضر لك حقائبك ثم تذكرت أنك رجل يسافر دون أمتعة.

- أخبر كيم أني ابتعت ملابس جديدة ؛ لأنها كانت تشعر بالقلق بشأن الملابس، وأخبرها أني سوف أعتني بمعطف أبيها جيدًا وأشكرها على ضيافتها..

***

كانت الثلوج تنهمر إبان قيادة بيترسون لسيارته وريتشر يجلس جواره في طريقهم لبيت جانيت سالتر، بينما تتحرك إطارات السيارة ببطء وسط الثلوج ويغمغم بيترسون : آمل بحق ألا ينغرز أحد الإطارات وسط الثلج.

لم يرد ريتشر، كان شارد الذهن ويفكر فيما يقبع داخل تلك المنشأة العسكرية، وسبب عدم وجود سجلات عسكرية خاصة بها، ثم انصرف تفكيره لصاحبة الصوت الغامض على الهاتف، وشعر بقلبه يختلج بين ضلوعه، وارتسمت ابتسامة بطيئة على وجهه، في نفس الوقت تحركت السيارة وسط الطريق الصعب، والحواجز المرورية، الرياح تعصف بنوافذ السيارة، لم يستطع بيترسون الدخول بسيارته لشارع مقطن السيدة سالتر، بسبب كومة الثلج أمامهم، أومأ له ريتشر برأسه وترجل من السيارة، وسار محنيَّ الجسد وسط الرياح حتى وصل للبيت، ورأى الشرطية في نوبتجية

الحراس، التي كانت تحرس الحديقة والمكتبة وقد أبدلت موقعها، تتجه ناحيته ويدها تلمس سلاحها باحترافية وتأهب دون اندفاع، كانت فارعة القامة وقد عقصت شعرها للخلف بشكل رياضي، تفقدت ريتشر بعينيها ثم فتحت له الباب فدخل الأخير مسرعًا وأغلقت هي الباب لتصد العاصفة..

جانيت سالتر كانت تجلس في نفس المقعد بالمكتبة، لم تكن تقرأ، فقط تجلس صامتة والشرطة الأخرى تحرس الحديقة، تلاقت عيناها بأعين ريتشر وابتسم كلٌّ منهم للآخر دون تخطيط ثم قالت جانيت : أنت رحلت في عجالة دون إنهاء قهوتك، هل تريد المزيد من القهوة؟

- دائمًا وأبدًا.

ثم تبعها ريتشر للمطبخ وقالت هي له وهي تعد الغلاية : ستقضي ليلتك هنا؟

- لو لا تمانعين هذا.

- لم ترتح في بيت بيترسون؟

- كان مريحًا، لكني لم أرد التطفل.

- أنت تسافر دون أمتعة.

- ما ترينه هو ما تحصلين عليه.

- لقد أخبرني بيترسون بشأن الأمتعة.

- أخبرك أم حذرك؟

- آه فقط أخبرني، هل تمتلك «فوبيا» معينة تجاه الالتزام؟

- لم أحاول تحليل الأمر بهذا العمق من قبل.

- الفوبيا تعني خوفًا بداخلك، تجاه الالتزام بالطبع، أو ربما أنها «فيليا» وهذا يعني حالة حب وتعلق بالحرية، أو ربما هو سبب يعود لطفولتك، حادثة ما إبان فترة نشأتك، أو سبب خارجي آخر.. يتعلق برفضك للمجتمع..

- في الأغلب هو السبب الأخير.

- عدم امتلاكك لأمتعة لهو تصرف متطرف يصرخ رفضًا لقواعد المجتمع من حولك، التاريخ يقول لنا إن المتمردين دومًا يمتلكون جاذبية خاصة، لكنهم كذلك يمتلكون قميصين أو ثلاثة يا سيد ريتشر.

- أنت تسخرين مني.

- بإمكانك اقتناء حقيبة صغيرة تضع بها قميص إضافي، هذا لن يغير من هويتك.

- أخشى أنه سيغير من هويتي بالكامل، هذا لو لم تكن تلك الحقيبة الصغيرة فارغة، لأن وجود قميص بداخلها سيعني أني فكرت وقيمت واخترت، ولا يوجد نهاية منطقية لتلك الدوامة، وبعد ذلك سوف أمتلك حقيبة كبيرة، ثم اثنتين وثلاث، وبعد شهر سوف أصبح مثلكم

جميعًا، انظري من حولك، الكل عبيد لأسرته وديونه وأقساطه ويخافون المذلة أو الفشل أو الإحراج، الكل في سباق لإثبات نفسه، لا يوجد أحد حر حقًّا، لا يوجد شيء منطقي في حياة كلك، ليس بالنسبة لي على الأقل..

وضعت جانيت الغلاية جانبًا ونظرت إليه بتمعن فهز كتفيه وقال : لقد ولدت وأنا مختلف.

- تلك هي إجابتك؟ أنك قد ولدت مختلفًا عن الجميع؟

- لسنا جميعًا متماثلين.

صبت جانيت القهوة، في أقداح كبيرة تلك المرة، كأنما الفناجين لن تنساب لمتمرد مثل ريتشر، وقالت : في كل الأحوال أنا سعيدة لوجودك هنا، أنت حقيقي دون ادعاء، وأنا أقدر هذا ؛ لذا فرحبًا بك للبقاء هنا في بيتي طالما أحببت وشئت.

***

الساعة السادسة، باقٍ من الزمن أربع وثلاثون ساعة.

***

بعدما انتهوا من تناول القهوة بدأت جانيت في إعداد العشاء وعرض ريتشر عليها المساعدة لكنها أجابته بأنها قادرة على إعداد العشاء لستة أفراد دون معونة، استأذنها ريتشر في الرغبة بتفقد البيت، ثم ذهب للقبو، لم يكن مهتمًّا بالطابق الأول ولا الثاني، وإنما أراد الاطمئنان من

كون القبو محكمًا، لأنه يعرف جيدًا كيفية تفكير قاتل محترف قادر على قتل رجل في سيارة متحركة، هذا رجل محترف، يمتلك خبرة، ورخصة للقتل، وعندما يضع ريتشر نفسه في محل هذا القاتل، فهو سيفكر مسبقًا بوجود حراسة تخص جانيت سالتر، ولا بد من طريقة غير مألوفة للوصول إليها، قتلة محترفون مثل هذا الرجل يقومون باغتيالات ضد سياسيين ورجال أعمال وقادة يمتلكون حراسة أشد بكثير من حراسة جانيت سالتر، والقبو سيكون طريقة غير مألوفة، هم يتوقعون رجلًا بمسدس، لذا فكرة حفر نفق تحت الأرض للوصول للقبو ووضع قنبلة تحيط بالبيت كله ليست مستبعدة، أو ربما التسلل من القبو لأحداث تسرب غاز، كل شيء ممكن وريتشر يعرف هذا جيدًا، القبو كان آمنًا، بعد عشر دقائق من الفحص الدقيق لكل المناطق، الجدران الفكتورية صلبة ولا مجال للحفر بداخلها، الأرضية ليست مهترئة، لا توجد أنابيب مياه أو نوافذ، عاد ريتشر للطابق الأول وبدأ في تفحص وتفقد النوافذ ثم ذهب للطابق الثاني وفعل المثل، عاد بعدها للمكتبة فقط ليجد جانيت تدخل من خلفه وتقول : هل بإمكاني الحديث معك؟

- بالطبع.

- أنا أعلم السبب الحقيقي لوجودك هنا، أنت تطوعت لحمايتي في حالة انطلاق نافرة إنذار السجن وذهاب الشرطة لهناك وأنت تتفقد البيت لكي تؤمن مداخله

ونتآلف معه، ومن انطباعي عن شخصيتك، فأنت لا تبقى في مكان واحد لمدة طويلة والمحاكمة سوف تنعقد بعد شهر لذا سؤالي لك كم من قميص جديد سوف تحتاج؟

- ثمانية.

صمتت جانيت فقال ريتشر بلطف : لا يوجد خزي في التراجع، بإمكانك تغيير موقفك والانسحاب من مسألة الشهادة.

- سيكون هناك خزي عظيم في ذلك.

- لا تتحدثي معي إذًا عن عناد الشخصية وتفردها.

قالها ريتشر وهو ينظر لانعكاسه في عينيها الحكيمتين، تلك مرته الأولى وهو يركز في تفصيلة كتلك، ابتسمت جانيت دون تعليق..

- هل تمتلك سلاحًا يا سيد ريتشر؟

- كلا.

- لماذا؟

- هل يمتلك النجار المتقاعد عدته؟

- أحيانًا.

- ولكن ليس دومًا.

استدارت جانيت واقتنت كتابًا ضخمًا وفيكتوري من المكتبة، كتاب عتيق أصفر اللون يحيط به الغبار، ويحمل

عنوان : تاريخ مفصل لأسلحة سيد سميث وسيد ويسون.

وريتشر يعلم أن سميث وويسون صنعوا الكثير من الأسلحة في بدايات القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر، لكن ليس درجة ملء محتوى كتاب ضخم كهذا، وقالت جانيت : ألق نظرة على هذا الكتاب، كان يخص والدي.

التقط ريتشر منها الكتاب الذي كان ثقيلًا بشكل مدهش وأردفت جانيت : ربما تقرأ منه وأنت في فراشك الليلة.

الكتاب كان ثقيلًا؛ لأنه لم يكن حقًّا كتابًا، فتحه ريتشر ليجد صندوقًا معدنيًّا به مسدسان، نوعية سميث آند ويسون، وذخيرتهم الحية مجاورة لهم، المسدس الأول ساقية دوارة ذو فوهة طويلة، 9 ملم، والآخر كان «ريفولفير» بإبرة مستديرة وساقية تحمل ست رصاصات، الأول يحمل تسع رصاصات، وأشبه بمسدس الماجنم، بينما الآخر أقرب للكولت، وقالت جانيت : كانوا يخصون جدي، ووالدي ورثهم.

- هل خدم في الجيش؟

- كان مفوض شرطة عندما أنشأوا بلدة بولتون وحصل على هؤلاء المسدسين كهدية شرفية، هل تعتقد أنهما لا يزالان يعملان؟

أومأ ريتشر برأسه، تلك النوعية من المسدسات يمكن

الاعتماد عليها للأبد بسبب بساطة تصنيعها، ثم سألها : هل تم استخدامهما من قبل؟

- لا أعتقد هذا.

- هل لديك زيت؟

- نعم، لدي زيت خاص بترطيب الآلات.

- هذا سيفي بالغرض، لكن الذخيرة تحتاج لعمر جديد.

- لا تقلق تلك الذخيرة حديثة لقد ابتعتها منذ أسبوع.

- أنت سيدة مستعدة للمعركة.

- دائمًا وأبدًا.

قالتها مقلدة إياه فضحك، هنا قالت جانيت بسرعة وجدية : والآن أغلق الكتاب، لا داعي للشرطية اللطيفة كي تعرف، المحترفون ينزعجون دومًا من خطط الهواة أمثالنا..

وضحك كلاهما..

***

بعدما انتهوا من تناول العشاء رن هاتف جانيت، بيترسون كان المتصل وأخبرها بإيصال الرسالة الآتية لريتشر، ومحتوى الرسالة هو أن الوحدة العسكرية اتصلوا به لكن السيدة رفضت التحدث مع بيترسون وأخبرته بأن يجعل ريتشر يتصل بها، اتصل ريتشر بالرقم المحفوظ

في ذاكرته، نفس الإجراءات السابقة، أريد الحديث مع آماندا..

الصمت وتحويل المكالمة..

آماندا : إما أنك مجنون أو العالم قد فقد عقله.

ريتشر : أو كلا الاحتمالين.

- أنا موشكة على التخلي عنك.

- لماذا؟

- لأن هذا المكان، تلك المنشأة العسكرية التي تتحدث عنها، لا وجود لها..

***

الساعة السابعة مساء.. باقٍ من الزمن ثلاث وثلاثون ساعة.

الفصل الثامن عشر

جلس ريتشر وهو يمسك بسماعة الهاتف ثم قال : هذا المكان موجود، سأختار تصديق الشهود العيان بدلًا من سجلات الجيش في أي وقت.

- لكنك لم ترَها بعينك.

- لماذا سيخترعون قصة كتلك ويتوارثونها عبر أجيال البلدة؟

- إذًا المكان سري للغاية وبشكل لا يصدقه عقل، وقد بنوه دون تدوين أي شيء رسمي بشأنه.

- ثم تركوا مخيم البناء والمنشأة دون سبب، كيف؟

- لأن الأشياء تتغير خلال خمسين عامًا، لقد كان الأمر مهمًّا إبان الحرب الباردة ثم تخلوا عنه بعد ذلك، سيناريو تقليدي للغاية.

- أنا أريد معرفة طبيعة تلك المنشأة ليس أكثر.

- بإمكاني الذهاب إليها بطائرة لكنك أقرب إليها أيها الرائد ريتشر الذي كان قائدًا وفقد تلك الرتبة بسبب شيء ما فعله بجنرال، وهذا الشيء ترك أثرًا في المقعد الذي أجلس عليه الآن.

- همم، ما أخبار تلك القضية المثيرة للاهتمام التي تعملين عليها؟

- تُبقيني مستيقظة طيلة الليل في المكتب، أنت تعرف طبيعة سير الأمور هنا.

- إذًا استغلي الوقت وقومي بالاتصال بالكونجرس، اسألي عن تاريخ المنشآت في جنوب داكوتا بشكل عام وليس بولتون فحسب، لعلك قد تصلين لشيء.

- أنت تريد مني الانغماس في تفاصيل مرهقة للغاية.

- هل اعتقدتِ أن وظيفة قائد وحدة عسكرية في الشرطة العسكرية ستكون مريحة؟ كان عليك الانضمام للبحرية في تلك الحالة.

- لدينا صفقة يا ريتشر، أخبرني عن الجنرال ذي النجمة الواحدة.

- أنت تهدرين الوقت.

- لديّ الكثير من الوقت كي أهدره، يبدو إليّ أن عداد وقتك محدود.

- إنها قصة طويلة.

- كل القصص الممتعة طويلة، بإمكانك الاختصار لو أردت لكني لن أمانع الطول.

- أنا أتحدث من هاتف شخص آخر هنا ولا أريد تكلفتهم في الفاتورة.

- انتظر لحظة.

ثم صدرت صوت تكة وعاد صوتها الباسم وهي تقول : أنت الآن على عداد الحكومة، لا توجد فواتير..

- أنت بارعة.

- أفضل منك بالتأكيد.

- أتمنى هذا.

- والآن احكِ لي، ما الذي حدث ذات مرة منذ زمن بعيد؟

توقف ريتشر للحظة ثم قال: لقد ذهبت لروسيا، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، كانت دعوة غريبة من حكومتهم لتفقد سجونهم العسكرية، ولم نعلم سبب تلك الدعوة العجيبة، لكن رأي الجنرال كان «لم لا؟».. وهكذا ذهبنا لموسكو، ومن هناك استقللنا قطارًا للشرق الأقصى، لسيبريا، الطعام كان مريعًا والطقس قاتل، وذات ليلة ذهبت لمطبخ القطار واكتشفت أن الطعام المريع - والمألوف - كان نفس وجبات الجيش الأمريكي.

- وجبات الجيش الأمريكي في قطار سوفيتي؟

- قطار روسي وليس سوفيتيًّا في تلك الحقبة التاريخية.. تقنيًّا على الأقل.. والطباخون الروس لم يمتلكوا أدنى فكرة عن كون الطعام أمريكيًّا ويخص الجيش المنافس لهم، لأنهم لم يستطيعوا قراءة الإنجليزية.

- وكيف وصلت مؤن طعامنا لقطار روسي؟

- هذا الجزء من حكاية ألف ليلة وليلة سوف أخبرك به غدًا، عليك العودة لعملك الآن.

- أنا أشعر بالضجر هنا وأنتظر مكالمة.

- من أي جهة؟

- لا يمكنني التصريح عن مصدر مكالمة بشأن قضية مثيرة للاهتمام في زمننا الحالي وليس منذ خمسين عامًا يا ريتشر..

- أنت تعرفين أنك تريدين إخباري.

- حسنًا.. وحدة فورت هوود العسكرية.

- بأي شأن؟

- قائد في قوات المارينز قتل زوجته، هذا يحدث كثيرًا، لكن تلك الزوجة كانت تعمل في منظمة الأمن الوطني، وهناك احتمالية أن الزوج جاسوس وكان يهرب الوثائق عبر البحار، وهي اكتشفت أمره، ولهذا قتلها.

- تلك قضية مثيرة للاهتمام بالفعل ولسوف تحصلين على نيشان برونزي لو قمتِ بحلها.

- لو تمكنت من العثور على الزوج، هو هارب بلا أثر الآن.

- أعطني مكالمة لو اتجه لجنوب داكوتا.

ضحكت هي ثم سألته : ما هو عمرك على أي حال؟

- أصغر من المكتب الذي تجلسين عليه.

***

المكان : سجن بلدة بولتون

انتهى المساجين من تناول العشاء، ووقف الحراس حاملين بنادقهم في مواضعهم المعتادة، ثم تحرك أحد السجناء، رجل مكسيكي، الأوشمة تملأ عنقه وذراعيه، ضخم البنية ومفتول العضلات، بعنق غليظ وصلب، أصلع الرأس، تحرك ببطء بعدما تبادل نظرة مع مجموعة من السجناء، ثم نظر لأعلى حيثما يجلس نزيل ممتلئ الجسد في زنزانة خاصة لوحدة، واتجه بعدها لسجين زنجي يجلس وسط جماعته، وقف المكسيكي أمامهم في صمت، فكفوا عن تبادل حديثهم ونظر قائدهم إليه، بصق المكسيكي على حذاء الزنجي ثم قال : أنتم تدينون لنا بعلب تبغ، والتبغ هو عملة السجن، ولسوف نحصل عليها، لكن ليس على شاكلة تبغ، أجسادكم ستفي بالغرض..

وتراجع المكسيكي عائدًا لمجموعته، بعدما قام بوضع أول شعلة من شعلات الشغب في الحقل المستعد للاحتراق.

***

المكان : بيت جانيت سالتر

حان موعد تبديل نوبة عمل الشرطة ورحلت الشرطيتان

في صمت بعد تسليم ورديتهم لرجل شرطة في الخارج وآخر في الحديقة، راقب ريتشر عملية التبديل وتسليم الوردية التي تمت بسلاسة، وحسب وقت التبديل، خمس عشرة دقيقة لإتمام الأمر برمته، تخيل ريتشر القاتل المحترف يقبع بالخارج ويراقب عملية التبديل تلك ويحسب الوقت بدوره..

أطلت جانيت برأسها وغمزت لريتشر بعينيها وهو يقف أمام النافذة ثم قالت : ربما عليك قراءة الكتاب الذي أخبرتك بشأنه..

وأعطته الكتاب الثقيل، ذا الصندوق المعدني والأسلحة، وقالت هامسة : كنت أحتفظ بالذخيرة بالأعلى في الكومود المجاور لفراشي بينما الأسلحة، أقصد الكتاب، هنا في المكتبة، كنت أعتقد أني أمتلك الوقت لكني فهمت أن هذا ليس بموضع منطقي، الذخيرة يجب أن تجاور سلاحها لذا وضعتهم في الكتاب، أعتقد أن الكثيرين من القتلى اعتقدوا أنهم امتلكوا وقتًا كافيًا أليس كذلك؟ لكني أمتلك جاك ريتشر لحمايتي الآن.. وأنا ممتنة لهذا.. حدسي يخبرني بأنك مثل جدي ووالدي يا سيد ريتشر.. رجل ذو قواعد خاصة، وقلب صامد، وروح خالصة..

- أنت تصفين نفسك.

ثم أردف : انظري بعيدًا، التفتي ثم استديري صوبي وأنت تشيري بإصبعك ناحيتي.

- ها؟

- فقط افعلي ذلك، مثلما اعتدتِ عندما كنت معلمة.

- أنا لم أكن أنتمي لتلك الفئة من المعلمين.

- تظاهري بأنك منهم..

استدارت جانيت بطريقة مسرحية ثم التفتت صوبه وهي تشير بإبهامها إليه، مصوبة إياه لرأسه، فهز ريتشر رأسه وقال: «جيد، والآن صوبي إصبعك لصدري».

امتثلت جانيت لما قاله، فقال : جيد.. جيد.. أنت تطلقين الرصاص بنفس الطريقة، إصبعك هو فوهة المسدس، لا تحاولي التصويب، لا تفكري ولا تخططي، فقط اتبعي غريزتك، أشيري بإصبعك للصدر، هذا أكبر هدف متاح، حتى لو لم تقتليه فلسوف تفسدي يومه بالتأكيد..

لم تعلق جانيت، أخذ ريتشر أحد المسدسين وناولها إياه قائلًا : ضعي إصبعك على الزناد.

وضعت جانيت إصبعها حول الزناد وجذبت إبرة المسدس للخلف فمط ريتشر شفتيه في إعجاب، بينما غمغمت بتركيز وهي تنظر للمسدس : سيكون هناك قوة ارتدادية.

- طالما أن قوانين الفيزياء لم تتغير في ليلة وضحاها فنعم..

- ستكون شديدة؟

- كلا، ليس مع مسدس ساقية دوارة من عيار 38، فهو مسدس بسيط وسهل الاستخدام، لن يخلع كتفك أو شيء كهذا..

جذبت جانيت الإبرة مرة أخرى، وأصدر المسدس صوت تكة المعدن وهي تضغط الزناد، وشهقت جانيت رغم كون المسدس خاليًا من الرصاص، ابتسم ريتشر لها بلطف وقال : والآن جربي الأمر مجددًا عدة مرات.

فعلت جانيت ما قاله ثم قالت : الأمر مرهق.

- لن يكون مرهقًا مع تدفق الأدرينالين داخل جسدك في لحظة المواجهة، فقط تأكدي من إطلاق ست طلقات في صدر الرجل.. لا تتوقفي حتى تنفد ذخيرة السلاح..

- هذا أمر مريع.

- كلا، إنها العدالة ومسألة الدفاع عن النفس، سوف تندهشين للغاية من تبدل وجهات نظرك في لحظة الحقيقة.

أعطته جانيت المسدس وهي تهز رأسها في حيرة فسألها : أين ستحتفظين به؟

- في الكتاب على ما أعتقد..

- إجابة خاطئة، ستحتفظين به في جيبك، وعندما تنامين تضعينه أسفل وسادتك أو في الكومود المجاور لك، حتى تكوني مستعدة لقتل الرجل.

- لا أعتقد أني سأتمكن من فعل هذا.

- أنا أعتقد العكس..

***

الثامنة مساء.. باقٍ من الزمن اثنتان وثلاثون ساعة..

بدأت نافرة إنذار السجن في الانطلاق مع اندلاع الشغب الناجم عن تلاحم عصابة المكسيكيون مع الرجال السود..

الفصل التاسع عشر

انطلقت سرينة إنذار السجن تدوي وسط أرجاء بلدة بولتون المستغرقة في النوم، ورددت الشوارع الخالية الممتلئة بالثلوج صدى صوت السرينة، وداخل بيت جانيت سالتر تحرك رجال الشرطة مثلما تدربوا وقال أحدهم لجانيت قبل رحيلهم : نحن آسفون..

تحرك ريتشر ووقف جوارها، وبعد دقائق هرع المأمور هولاند للبيت ورفع حاجبيه في دهشة عند رؤية ريتشر وهتف : لم أعلم أنك هنا.

- وجودي هنا أكثر منطقية من بقائي في بيت بيترسون، لا هو ولا كيم بحاجة لحماية، وهناك العديد من الغرف هنا.

- هل كانت تلك فكرة أندرو أم فكرتك أنت؟

- فكرتي.

نظر هولاند لجانيت وسألها : هل أنت بخير؟

هزت رأسها وردت : أنا ممتنة للغاية لمجيئك كي تطمئن علي لكن واجبك يحتم عليك أن تذهب للسجن.

- كنت في طريقي إلى هناك لكني لم أرد لك أن تكوني وحدك.

- القواعد هي القواعد وأنت مأمور البلدة، عليك ضرب

مثال يحتذي به الآخرون.

- سأبقى هنا رغمًا من كل هذا.

- لا تقلق أنا لست وحدي وسيد ريتشر قادر على حمايتي.

تحرك رأس هولاند في تلقائية ونظر لريتشر، الذي قال : ماذا حدث بالضبط في السجن؟

- عراك بين المكسيكيين والزنوج.

- تلك واقعة أولى من نوعها؟

- هذا صحيح.

- توقيت مناسب للغاية.

- أفهم ما ترمي إليه، تبًّا لهذا العقد القانوني الخاص بالسجن والبلدة.

- عليك بالذهاب يا هولاند.

- لا أريد الذهاب.

الطريقة التي قالها بها هولاند أوحت لريتشر أن الأول يسعى للبقاء في الدفء داخل البيت ليس لحماية جانيت سالتر فقط بل لأنه يفضل البقاء هنا بدلًا من الذهاب للسجن وإخماد الحريق..

هولاند كان خائفًا..

سأله ريتشر برفق : هل أخمدت حالة شغب سجون من قبل؟

- كلا.

- لا يوجد خطورة في الأمر، ستقف خلف السياج بالأعلى وأي أحد منهم يحاول الهرب سوف ترديه قتيلًا، بكل بساطة، وهم لن يحاولوا الهرب على أي حال، سيبقون بالداخل ويتقاتلون سويًّا، ثم ستنفد طاقتهم في النهاية، هذا ما يحدث في المعتاد، الحقيقة أنك ستصاب بالضجر إبان كل هذا..

- وهل أخمدت أنت حالة شغب سجون من قبل؟

- لقد فعلت كل شيء، إخماد شغب سجون، حماية شخصية للأفراد، ومع كامل احترامي سوف أتمكن من حمايتها بشكل أكثر فاعلية منك، عليك بالذهاب للسجن يا هولاند كي لا يتورط قسمك في مساءلة قانونية..

- لا أعرف.

- لا تقلق بشأن السيدة سالتر.

- حالات الشغب تستدعي وقوفنا خلف السياج مع الحراس لمنع حالات الهرب لكننا لن ندخل في عراك داخلي معهم، بإمكانك أن يستمر الموقف لساعات أو أيام..

- بإمكانه أن يستمر لأسابيع.

- حقًّا؟

هز ريتشر رأسه وأضاف : وفي حالة استمرار الشغب لأسابيع فلسوف تضطر لإعادة تجميع قواتك.

هز هولاند رأسه موافقًا بعدم ثقة، مرة.. مرتين.. ثم نظر لجانيت وقال برجاء : على الأقل تعالي معي للسيارة، وابقي فيها، أنا بحاجة للتيقن من كونك آمنة..

- وماذا لو استمرت حالة الشغب لأسابيع؟ لا تقلق بصددي أنا آمنة هنا مع سيد ريتشر..

هز هولاند رأسه مرة ثالثة بثقة أكثر تلك المرة بعدما حسم أمره، واستدار ثم خرج من البيت متجهًا لسيارته التي عبر بها من الجهة الأخرى متجاهلًا التلة الثلجية، أغلق ريتشر الباب خلفه وعم الصمت في أرجاء البيت.

***

كانت أفضل خطوة هي تخبئة جانيت في القبو لكنها رفضت الذهاب، ووقفت بعناد في الردهة وإصبعها فوق زناد المسدس، بينما كان أفضل حل بديل هو إبقاؤها في غرفة النوم بالطابق العلوي لكنها رفضت الذهاب كذلك..

- سأشعر كأني حبيسة داخل تابوت والجدران الأربع تطبق على أنفاسي دون مكان للذهاب إليه.

- أنت لست بحاجة للركض في مكان متسع، سوف

تطلقي الرصاص.

- ليس وأنت معي بالتأكيد.

- سنفرغ رصاصنا سويًّا في جسده إذًا، اثنتا عشرة رصاصة أفضل من ست.

نظرت إليه جانيت بتعجب كأنه مخلوق فضائي.. ثم جلست على المقعد بينما تواصل الإمساك بمسدس جدها، إذ بدت لريتشر - وهي تجلس في المقعد الكبير بالمكتبة حاملة السلاح - وكأنها جزء من لوحة بعنوان حارسة الكتب، بدت له كأسطورة قديمة، بعمرها وحكمتها وقلبها الشجاع وكتبها وبسالتها وإصرارها على الشهادة ضد هؤلاء الذين يفعلون شرًّا في العالم، رفعت جانيت رأسها ونظرت إليه بعمق وهو يفكر ثم سألته : أليس من المفترض أن تتجول بالخارج؟ أجابها «كلا، ليس حقًّا، من المفترض أن أتفقد النوافذ والشرفات والحديقة ومداخل ومخارج البيت ولسوف أفعل هذا الآن».. واستغرق الأمر ثماني دقائق من ريتشر وهو يفعل هذا، الطابق الثاني، نافذة محكمة، شرفة موصدة من الداخل، الطابق الأول، باب المطبخ الخلفي مغلق، لكن بإمكان أي أحد إدارة مقبضه والدخول، إنها الثغرة التقليدية في أي بيت أمريكي وطيلة حياته لم يفهم ريتشر سبب تلك الثغرة ولا اطمئنان الأهالي لها، وبالتالي قرر حمل مقعد والاستراحة أسفل مقبض الباب بشكل دائري ليمنع استدارته، ثم تفقد الحديقة، باب زجاجي مغلق، وأغلق الستائر، لكنه قبل

أن يفعل ذلك ألقى نظرة طويلة للعراء بالخارج حيث شوارع بلدة بولتون النائمة، خالية ومعبقة بالثلوج والرياح وغضب الطبيعة، إلا أنها لم تكن خالية حقًّا أليس كذلك؟ إنها لعبة الأحجية، أقدم لعبة في التاريخ، أحدهم يختبئ والآخر يبحث عنه، المطاردة الأبدية التي بدأت مع اختباء رجل الغاب داخل الكهف وبحث الوحوش الضارية عنه، وهو الآن في الكهف الخاص بجانيت بينما هناك صياد مفترس بالخارج، لكن جانيت ليست بامرأة غاب، وإنما المثال النقي للتطور الإنساني، ليس بسبب مكتبتها فقط، ولا ضميرها وروحها الشجاعة، ولا بسبب وحدتها، لكن بسبب لطفها.. هذا اللطف النادر الحقيقي دون زيف أو طلبات خفية في المقابل، لن تجد تلك العملة منتشرة أبدًا بين البشر، وهو يعلم أن الصياد بالخارج، يراقب البيت، ينتظر لحظة الانقضاض على فريسته، لحظة القتل، يعلم جيدًا أن هناك خلف الأشجار، يرقد الصياد بسلاحه، ومعه منظار مراقبة، يتفقد كل تحركاتهم، تلك ليست لعبة مطاردة حقًّا، لا يوجد اختباء، الصياد يعرف مكانهم، لقد أعطوه عنوان جانيت بالتفصيل، وموعد القتل قادم، لكنه - ريتشر - هنا ويزعم تغيير تلك الحقيقة، جانيت سالتر لن تموت، صيادها هو من سيموت.

استدار ريتشر بعدما أغلق الستائر وأغلق باب القبو رغم تفقده السابق له ومعرفته بأنه آمن، لن يضير أبدًا المزيد من الحرص، هل يستخدم القاتل القنابل؟ أو المولوتوف ويحرق

البيت؟ أم أنها سيركل الباب الأمامي حاملًا بندقية آلية؟ كل شيء جائز، سار ريتشر ببطء للمكتبة وسألته جانيت : كل شيء على ما يرام؟ هذا سؤال أحمق أليس كذلك؟

ابتسم ريتشر وربت على كتفها ثم جلس جوارها على طرف المقعد وتعمد ألا يضع ثقله عليه، لا يريد مقعدًا مكسورًا آخر تسأله آماندا عما حدث له، قال لها : أنت بخير ولسوف تظلين بخير..

- هل كنت شخصًا مقربًا من والده؟

رفع ريتشر حاجبيه في دهشة لسؤالها غير المتوقع وابتسم لتلقائية أفكارها ثم أجاب : لا أعتقد، ربما كان يعتقد أني أنا من لم يكن قريبًا منه، لقد كان هناك مئات الأطفال في الوحدة العسكرية التي ولدت وترعرعت بها، حيث انتقلنا كثيرًا إبان طفولتي، أنا وأخي ووالدي ووالدتي، من قارة لأخرى، وحدة عسكرية تلو الأخرى، مدرسة جديدة، وجوه مختلفة.

- أنا أيضًا لم أكن قريبة من والدي، وحياتي لم تكن مستقرة، لهذا انعزلت، أصبحت وحيدة بلا عائلة، لا زوج ولا أبناء، اعتزلت الناس بالكتب والقراءة..

- أنا اعتزلت الناس بالترحال دون أمتعة.

ابتسمت جانيت ونظرت له في حنان ثم قالت : هل والدك لا يزال حيًّا؟

- كلا، لا هو ولا أمي ولا أخي، أنا الأخير من سلالة ريتشر..

- هل تشعر بالوحدة؟

هز ريتشر كتفيه، ثم قال: أحيانًا.

كان مندهشًا من نفسه لصراحته في الإجابة على أسئلتها كأنها جدته التي لم يحظَ بها من قبل، أردفت جانيت : لقد رأيتك وأنت تتحدث مع تلك المرأة على الهاتف، كنت ممتلئًا بالحياة والشغف، لا بد أنك تفتقد الوظيفة القديمة للغاية.

- كلا، أنا لا أفتقد عملي السابق، صاحبة الصوت هي السبب في امتلاء صوتي بالحيوية والشغف.. إنها تمتلك صوتًا رائعًا جدًّا.

وغمز لها فضحكت جانيت في حياء وقد احمرت وجنتاها..

هنا التقط ريتشر الهاتف واتصل بآماندا، نفس الإجراءات لتحويل المكالمة ثم أتاه صوتها المشاغب : هل تمزح معي يا ريتشر؟ لقد أعطيتني منذ ساعتين ظنًّا من العمل سوف يستغرق أسبوعين لإتمامه والآن تتصل بي طلبًا للنتائج!!

- كلا لا أريد تلك النتائج، أنا بحاجة لشيء ما قبل الغد وليس خلال أسبوعين.

- أنت مجنون.

- قلتِ إنك أكثر براعة مني لكني كنت سأنتهي من الأمر في أقل من أربع وعشرين ساعة.

- هل تستخدم علم النفس كي تدفعني لإتمام الأمر؟ دروس تحفيز ودوافع خاصة بالرائد ريتشر؟

كان ريتشر يتحدث بيد بينما يده الأخرى تعتصر قبضة مسدسه وعيناه ترتكزان على الباب الأمامي.. قال لها : هل قبضتِ على الزوج القاتل والهارب بعد؟

- كلا، ألا تستطيع التمييز من نبرة صوتي الحانقة أيها المتحاذق؟

- أين تبحثين عنه بالضبط؟

- المطارات وموانئ القوارب.

- خطأ، سوف تجدينه في نزل بالقرب من شمال أوستن ؛ نظراً لعمله بفورت هوود، لن يكون خارج مقاطعة جورجتاون، وفي الأغلب سيكون ثاني أقرب نزل من محطة الحافلات وليس الأقرب..

- هاها وسيكون يرتدي عباءة الإخفاء كذلك؟

- كلا، هو خائف ووحيد وبحاجة لمساعدة ولا يستطيع التواصل مع جهاته الخارجية لأنه يعلم أن كل وسائل الاتصال مراقبة والحكومة بأكملها تبحث عنه بكل أجهزتها وليس الجيش فقط، ولذا فهو بحاجة لوسيلة تقليدية

بخلاف هاتفه المغلق لمتابعة ما يحدث في العالم ويبقى مطلعًا على المستجدات، وهذا هو جهاز التلفاز العتيق بغرفة النزل الذي لا يطلب بطاقة هوية النزلاء، ولو استمر وضعه هكذا طويلًا سيعصف القلق بعقله ولسوف يضع مسدسه في فمه بوجه متعرق وهو يتذكر جثة زوجته وينهي حياته، هذا رجل محاصر فاقد الأمل ارتكب أكثر من خيانة، لقد خان المرأة التي أحبته وسلمته نفسها وأنهى حياته، خان وظيفته وبلده، ولا يمتلك وسيلة واحدة للهرب الآن.. لقد استقل الحافلة من فورت هوود وترجل في جورجتاون متجهًا لثاني نزل وليس الأول لاوعيًا كمحاولة بائسة منه للتضليل، يخاف الذهاب لأي مدينة كبيرة، ويرتاح في نزل رخيص يذهب إليه الشباب لقضاء وقت ممتع، لا أوراق رسمية ولا شيء من هذا القبيل، آه انتظري لحظة.

ثم ذهب وتفقد المطبخ والباب الخلفي ذا المقعد، والباب الأمامي، ثم باب القبو والحديقة، بعد ذلك نوافذ وشرفة الطابق الثاني وألقى نظرة مطمئنة على جانيت سالتر قبل أن يعود للهاتف مفكرًا «لا شيء في الظلام» لكنه يعرف أن هناك أشياء عدة تنتظر في الظلام.. عاد للمكالمة وسألته آماندا : هل هناك شيء آخر؟

- تلك ليست بتفصيلة مهمة لكنه كان يجلس في المقعد الثالث الأمامي بالحافلة.

- أنت تتباهى بالكثير من الهراء.

- كلا، أنا أقدم لك استنتاجات وحقائق، فهو لا يريد أن يبدو كهارب ولذا لم يجلس بالخلف وأول مقعدين ظاهران للغاية، ولهذا اختار الجلوس بالمقعد الثالث الأمامي..

لم ترد، فتابع ريتشر : ثاني نزل بالقرب من محطة الحافلات في جورجتاون، تفقديه..

لا رد!

- هل لديك ناس في فورت هوود؟

- آه هه.

- أرسليهم وتفقدي صحة نظريتي ولسوف تشكرينني لاحقًا.. ولا تنسَيْ أنا بحاجة للمعلومات بشأن المنشأة غدًا.

ثم أنهى المكالمة وتفقد النافذة الأمامية..

« لا يوجد شيء في الظلام ».

العاشرة مساء.. باقٍ من الزمن ثلاثون ساعة.

الفصل العشرون

لماذا لم يظهر القاتل المحترف بعد؟ حالات الشغب لا تستمر للأبد، وهو يعرف هذا بالتأكيد، وهدفه امرأة عجوز مسالمة، فلماذا لم يظهر بعد؟ هكذا تساءل ريتشر وهو ينظر من النافذة، في العاشرة والنصف حينما أرادت جانيت إعداد القهوة لكنه رفض ذلك، ربما هذا هو ما ينتظره القاتل، فالغلاية بحاجة لماء، والماء سيأتي من الصنبور، والصنبور يقبع أسفل نافذة المطبخ، ولهذا قرر ريتشر الذهاب وإعداد القهوة بنفسه، فهو يحسب كل احتمالات هجوم القاتل على البيت، بندقية قناص وهو مستلقٍ على بُعد وسط الثلوج، بانج، ثم ينتهي كل شيء، قنبلة يدوية ترتمي داخل البيت، سيارة مندفعة محترقة تهشم الباب الأمامي، مدفع آلي يطلق الرصاص بشكل عشوائي عليهم.. مرت الساعة التالية ببطء على كلٍّ من ريتشر وجانيت.. وبدا لهما أن العالم الخارجي قد مات، لا شيء يتحرك سوى الرياح، بصفيرها العالي والمخيف، قادمة بغضب واجتياح من الغرب، سألته جانيت : هل قضيت شتاءك من قبل في جنوب داكوتا؟

- لم أقضِ أي فصل موسمي في جنوب داكوتا من قبل.

- شمال داكوتا إذًا؟

- كلا علاقتي السابقة بداكوتا هو الذهاب لمبنى يحمل هذا الاسم في نيويورك..

- نعم لقد أطلقوا على هذا المبنى في نيويورك اسم داكوتا تيمنًا بالمقاطعة، نسبة لمالك شركة «سينجر سوينج ماشين» المختصة بالزيوت إبان فترة الكساد العظيم..

كانت تتحدث للتخلص من توترها وتركها ريتشر تسترسل في الحديث بينما عيناه ترتكزان على الشارع..

الحادية عشرة مساء، باقٍ من الزمن تسع وعشرون ساعة..

انتهت جانيت من سرد تاريخ جنوب داكوتا وشعر ريتشر أن توترها قد قل، أخبرها بأنه سيتفقّد الأرجاء ويعود إليها، تجوّل في المنزل ليتفقّد مناطق الدخول، واستمع لصوت الرياح الذي أصبح منتظرًا بالخارج عندما قالت جانيت : أحدهم قادم.

قالتها بحزم وبشكل واضح، بأسلوب قوي، آلية دفاعية حازمة تقول إن خوفها قد تلاشي، هز ريتشر رأسه، لم يرَ في حياته أحدًا يمتلك قلبًا شجاعًا مثلها، كررت جانيت بنفس الطريقة : أحدهم قادم..

نظر ريتشر للقادم عبر الثلوج، رجل قصير القامة، والبنية، يرتدي قناع تزلج، وقفازات وأحذية طويلة العنق، يداه خاليتان اللهم إلا من القفازات، يتحرك ببطء، ثم وقف أمام البيت، سألها ريتشر : هل تعرفين من هو يا جانيت؟

- انتظر لحظة.

استدار الرجل وانحنى مرحبًا عدا اتجاهه، كلب أبيض كبير، وبدأ يسير كلبه، فقالت جانيت : آه إنها هي وليس هو، جارتي، السيدة لويل وهذا هو كلبها، لم أميزها بسبب قناع التزلج.

- زوجة الشرطي لويل؟

- زوجته السابقة، لقد انفصلا بعد مشاجرات قبيحة وغير سارة منذ قرابة العام.

- لقد وصف بيترسون لويل بأنه رجل منعزل ويحب قراءة الكتب.

- تلك حقيقة، فهو يأتي دومًا لمكتبتي من أجل استعارة الكتب، عائلتي صديقة لعائلته منذ قبل مولدنا..

- هل تعرفين شريكه؟

- سيد كابلر؟ لقد قابلته مؤخرًا.

- وما هو انطباعك عنه؟

- لقد كنت متعجبة من كونه انتقل إلى بولتون من فلوريدا.

- وأنا كذلك.

ثم نظر كلاهما للسيدة لويل وهي تنزه كلبها بالخارج.. ثم دخل كلاهما وجلسا في صمت لمدة ثلاثين عامًا ثم تحركت عقارب الساعة الذهنية داخل رأس ريتشر لتخبره بمرور

نصف ساعة، نظر لجانيت وقال : هل أنت مجهدة بعد؟

- لم أفكر حقًّا فيما أشعر به حاليًّا، حالتي الجسدية وكل هذا..

- بإمكانك الذهاب والنوم لو أردتِ، ولسوف أتولى أنا زمام الأمور.

- هل ستتولى زمام الأمور وأنت نائم واقفًا كالخيل؟

ابتسم ريتشر ورد : لن أنام.

- نفس الشيء ينطبق عليّ، ما يحدث هنا هو مسئوليتي الخاصة ولم يكن يجب أن تتورط أنت في كل تلك المسألة.

- عندما يتشاطر اثنان مشكلة ما فهما قد وصلا لمنتصف طريق حلها بالفعل.

- أنت تعرِّض حياتك للخطر.

- هذا أمر مستبعد.

- هل أنت متزوج يا سيد ريتشر؟

أبقى ريتشر عينيه على النافذة وإلى الخارج وأجابها : كلا.

- لكنك لم تكن طفلًا وحيدًا، لقد ذكرت أخًا لك.

- كان يكبرني بعامين، واعتاد العمل لدى وزارة المالية، ومات في سبيل الواجب، قتلته منظمة غسيل أموال في

الحقيقة.

- أنا آسفة.

- أنت لست مسئولة عما حدث له.

- هل ترفض التعاطف دائمًا بتلك الطريقة المقتضبة؟

- في المعتاد.. نعم..

- كلانا آخر سلالتنا، عندما يتعلق الأمر بشجرة عائلتنا إذًا.

- تلك حقيقة، أخبريني عن أسرتك.

- أنا أنحدر من أسرة عمال مناجم، كادحين، وصولًا لجدي الذي حصل على منصب مفوض شرطة بولتون وهو منصب استشاري وشرفي أكثر منه تنفيذي ومن بعده والدي.

- بمناسبة المناجم فإن بيترسون يعتقد أن المنشأة العسكرية التي تقع في الجنوب هي في الواقع منشأة تحت الأرض مثل أنفاق المناجم، ربما أجدادك عملوا في تلك المنشأة.

- لا توجد مناجم في بولتون.

- هل كان والداك على قيد الحياة عندما ذهبت لأوكسفورد في إنجلترا؟

- لماذا؟

- لأنهم لو كانوا على قيد حياة إبان سفرك فلسوف

يكتبون لك بشأن الأخبار المحلية في خطاباتهم، ربما هم ذكروا لك شيئًا ما عن تلك المنشأة.

- لا شيء يستحق الذكر.

- جربيني.

طفقت جانيت برأسها وقالت : كل ما أعرفه أن هناك «فضيحة» ما بالأمر، هذا ما قالوه لي في جواباتهم، لكنهم لم يعرفوا كنه تلك «الفضيحة» بالضبط، فقط ذكروا أن هناك أمرًا سريًّا يتم هناك، ثم حدثت فضيحة ما وتركت الحكومة أمر المنشأة برمته..

نظر إليها ريتشر ورفع حاجبيه..

باقٍ خمس دقائق على منتصف، وثمانٍ وعشرون ساعة..

لم يأتِ أحد حتى الآن، وريتشر والسيدة سالتر يقفان في مطبخ الأخيرة، أمام النافذة ينظران للثلوج والطريق المظلم، وعلى بعد خمسمائة ميل، حدث الآتي :

سطعت أضواء سيارة دورية الشرطة، في قلب الليل، ودوّت السرينة، وتفرقت ست سيارات شرطة، والوجوه بداخلها تتأجج بالطموح والصرامة، كل شرطي منهم يعرف جيدًا أن هناك فرصة للترقي في حالة لو وجدوا هدفهم، وصلوا للنزل من جميع الجهات، ترجلوا من سيارتهم وداروا كفريق تتابع ليغطوا الاثنتي عشرة فرقة، رفع أولهم ساقه وهشم باب الغرفة الأولى، وكذا فعل كل شرطيين

قادمين من سيارة واحدة، اثنا عشر شرطيًّا، لاثنتي عشرة غرفة، يبحثون عن رجل واحد، قاتل أجير، محترف، قادم من مكان بعيد، تهشمت أبواب غرف النزل جميعها واقتحمها رجال الشرطة وهم يصيحون، لا أحد بالداخل، لم يجدوا هدفهم..

***

انتهى ريتشر من تفقد مداخل ومخارج البيت للمرة الرابعة، وشعر أن رائحة الجدران تختلط بروحه، ثم عاد للسيدة سالتر وجلس جوارها قبل أن ينظر لها مبتسمًا في إنهاك ويقول برفق : هل أنت بخير؟

أجابته بصوت واجم : أنا محظوظة.

- كيف؟

- أنا عشت بما يكفي لأمرَّ بهذا الاختبار الحالي، وهو اختبار حقيقي وصارم.

- أي اختبار هذا؟

- أنا في موضع يتيح لي تطبيق مبادئي بدلًا من المفاخرة بها، أغلب الناس ذوي المبادئ لا يمرون بمواقف تضعهم في اختبارات أخلاقية، ليتخذوا القرار الصحيح وما يمليه عليهم ضميرهم، أنا أؤمن بالنظام القضائي وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته كذلك ؛ لذا فكرة الشهادة في محاكمة رغم تهديداتهم تلك هي اختبار حقيقي لمبادئي التي تعلمتها.

وأشارت بيدها للمكتبة مردفة : ومن أبي كذلك..

هنا رفع ريتشر رأسه صوب النافذة وقال وهو يرمق السيارة تقترب ذات الأضواء الساطعة : أنت تبلين حسنًا يا جانيت.

وواصلت السيارة الاقتراب من البيت.

الفصل الواحد والعشرون

اقترب ريتشر من النافذة وهو يتحسس المسدس ذا الساقية الدوارة في غمده من طراز «سميث آند ويسون»، وفكر في حقيقة أن صانعي المسدس فخورون للغاية بأسلحتهم في تلك اللحظة، لقد صنعوا مئات الأسلحة ليخلدها التاريخ باسمهم، وهو الآن يستخدمهم في حماية جانيت سالتر، هنا سطعت أضواء سيارات أخرى تقترب في الظلام وتحيط بالبيت، وشهقت جانيت، كانوا ست سيارات بخلاف السيارة الأولى، هل أرسلوا جيش في إثرهم؟ وتذكر ريتشر عبارة قالها مدربه السابق في الجيش : سوف تحتاج دومًا لسلاح أكبر، هز ريتشر رأسه وهو يفكر ثم انطلق دوي سرينة الشرطة فجلى التوتر عن جسده، وتمتمت جانيت : حمدًا لله، وعادت للنظر مع ريتشر من النافذة، القادمون كانوا رجال شرطة وفي مقدمتهم أندرو بيترسون، شاهرين أسلحتهم، يقتربون بحرص وتأهب من البيت، تعابير وجوههم خليط من الغضب والعصبية والقلق، هذا التعبير الممزوج إياه بمشاعر مختلطة لينتج عنه في النهاية فكرة : تعبير وجه رجل يتوقع الأسوأ ولكن لا يأمله، جالت الأفكار في ذهن ريتشر وغمغم لجانيت : هم لا يعرفون على أي حالة سيجدوننا داخل البيت، ربما هم يتوقعون اثنين قتلى، انظري لطريقة سيرهم..

ثم تحرك ريتشر ليقف جوار الباب وليس أمامه متجنبًا

رصاصًا طائشًا منهم وصاح : أنا ريتشر يا بيترسون، كل شيء بخير ها هنا.

لم يأته رد، صاح بنفس العبارة مرة أخرى.

«ريتشر يا بيترسون، نحن بخير لم يحدث شيء».

«ريتشر؟»

«نعم، كل شيء بخير».

دقيقة من الصمت ثم قالت جانيت وهي تنظر من النافذة - وشعر ريتشر بدقات قلبها المتصاعدة - : لقد خفضوا أسلحتهم..

فتح ريتشر الباب فاندفع بيترسون ومعه خمسة عشر شرطيًا للداخل، ورفع ريتشر حاجبيه، بدا له أن قسم شرطة بولتون في منزل جانيت سالتر الآن، كان منهم أربع شرطيات وقد أحطن بجانيت سالتر كدرع بشري وقادوها بعيدًا للمكتبة حيث إنها الغرفة الأقل نوافذ، وذهب اثنان آخران لتأمين الحديقة، بينما انتشر الآخرون في البيت ووقف آخر اثنين في نوبة حراسة أمام الباب الأمامي، وهتف بيترسون : ما الذي حدث؟

- لم يحدث شيء، ما الذي حدث معك أنت؟

- حالة الشغب اللعينة في السجن كانت مزيفة وقد أخمدوها بسرعة.

- بالطبع، السؤال هو لماذا لم يأتِ القاتل الأجير إبان

افتعال رؤسائه لتلك الحالة المزيفة في السجن؟!

- لأنه رآك بالطبع.

- بافتراض أن هذا صحيح، أنه رآني دون أن أراه، فلماذا لم يكمل مهمته طالما أنه بتلك البراعة؟

- لأنه كالصياد، يراقب فريسته وينتظر..

كاد ريتشر أن يرد عندما رن الهاتف، اندفع إليه بيترسون المتوتر وأجابه بسرعة ثم رفع وجهه بتعبير اعتذاري وقد أدرك أن هذا هاتف جانيت سالتر المنزلي وليس رنين هاتفه في المخفر، هز ريتشر كتفيه إليه بمعنى : لقد أجبت بالفعل، لن يضيرك معرفة من المتصل..

استمع بيترسون للمتحدث ثم أعطى الهاتف لريتشر وهو يقول : إنها تلك المرأة من وحدتك العسكرية، كيف عرفت رقم هاتفك؟

ابتسم ريتشر وهو يلتقط سماعة الهاتف مجيبًا : لديها خاصية إظهار رقم المتصل..

***

باقٍ من الزمن سبع وعشرون ساعة.

***

أتاه صوت آماندا الجميل، الجذاب، المثير، وقاوم ريتشر الرجفة في جسده وهو يقول : لماذا تتصلين بي هذا الوقت؟

ربما كنت مستغرقًا في النائم.

- لا تتظاهر بأنك لم تكن تنتظر اتصالي يا ريتشر.

- هل توصلتِ لشيء جديد بخصوص المنشأة؟

- كلا.

- لماذا لا تستخدمين جوجل؟ يقولون إنه محرك بحث رائع وكل شيء.

- دعك من السخرية، لقد اتصلت لكي أقول لك إني قد وجدت رجلي الهارب.

- هل كان كلامي صحيحًا؟ هل قادتك استنتاجاتي إليه؟

- لا أستطيع الإفصاح عن هذا.

- إذًا فلقد كنتُ محقًّا.

- لا تتباهَ.

- لِمَ لا تعترفين بالأمر يا آماندا؟

- لقد بدأت أعتاد اسمي المستعار هذا، حسنًا، أنت لم تكن محقًّا تمامًا، لقد وجدنا في ثالث فندق أقصى محطة الحافلات.

- إذًا فهو اختار الفندق الثالث لأنه الأبعد، أكثر بعدًا من الثاني على أي حال.

- متباهٍ.

- أخبريني عن حالته عندما وجدتموه.

- خمنها أنت، أيها المتباهي.

- لقد كان مستيقظًا، بعينين متسعتين، حدقتاه بها نوع من الجنون من قلة النوم، والقلق المستمر، والتفكير بشتى الاحتمالات بشأن ما سيحدث له، مرتديًا فانلة داخلية بيضاء، وعندما اقتحم رجال الشرطة العسكرية غرفته رفع رأسه إليهم، ونظر لسلاحه، بندقيته الملقاة جوار التلفاز، الذي لم يكن يشاهده، واختلطت ضوضاء التلفاز بالصياح داخل عقله، أراد أن يقفز للبندقية، وينهي كل شيء، لكن هذا كان لجزء من الثانية ليس أكثر.. ورفع يديه مستسلمًا بعد ذلك..

- أنت جيد، أنت حقًّا جيد.

شعر بالابتسامة في صوتها وقال : ما الذي ترتدينه الآن؟

- هل نحن في مكالمة غرامية الآن؟

- كلا، أردت تخيل المكتب فقط، لقد مرت فترة، أنا بحاجة للتفاصيل.

- أرتدي القميص الرسمي وعليه سترة خفيفة رسمية كذلك، وسروالًا قماشيًّا لو كنت تريد معرفة كل التفاصيل.

- آه سترة خفيفة، أنت محظوظة في طقسك الحالي.

- لا تكن متذمرًا بشأن الطقس الجميل في جنوب

داكوتا، ومن حجمك أعتقد أنك ترتدي معطفًا لن يجدوا سترة تلائمك أبدًا!

- لا تقولي لي إنك تتتبَّعينني عبر القمر الصناعي وتراقبينني في تلك اللحظة.

- هاها كلا، أنا قد رأيت صورتك في الملف يا ريتشر.

- وماذا عنك أنت؟ أنا لا أمتلك ملفك، لِمَ لا تصفين نفسك لي؟!

- إنها حقًّا مكالمة غرامية إذًا.

- لا تماطلي.

- أنا أبدو كأحدب بعين واحدة.

- خمنت هذا من صوتك.

- يا لك من وغد!

- أعتقد أنك نحيفة، جذابة، ومقاسك هو 3 أ..

- ها؟

- صوتك يبدو إليّ وكأن رئتك تقبع في قفصك الصدري، لا شيء يعيقه.

- تبًّا لك!

- شعر أشقر كذلك، هل أنا محق؟

تخيلها ترفع حاجبها وهي تقول : نعم أنت محق..

- ماذا عن عمرك؟

ثم صمت قليلًا مفكرًا، لقد تم تعيينه وهو في منتصف الثلاثينيات، بسبب سجله الحافل، هل تغيرت الأمور عن تلك الفترة، أردف بعدما قالت هي : خمِّن عمري.

- أنت في الواحدة والثلاثين من العمر، أو الثلاثين..

- أنت بارع كما يقول ملفك.

- لم أكن بارعًا بالقدر الكافي لتجنب رأس الجنرال.

- أنت تدين لي بتلك القصة.

- عندما تحصلين لي على ما أريد من معلومات.

- إذًا وداعًا لحين مكالمتنا القادمة.

أعاد ريتشر السماعة للهاتف وانتبه لبيترسون الذي كان يراقب الشارع من النافذة، وقال الأخير بشرود : لقد فتشنا النزل القريب عندما تأكدنا من زيف حالة الشغف، لكننا لم نجده هناك، لماذا لم يهاجمنا لتلك اللحظة؟ لماذا هو ينتظر بالخارج في الظلام؟

بعد ساعة صعدت السيدة سالتر لتخلد للنوم، وعرضت على ريتشر إحدى الغرف لكنه رفض في أدب وحمل المرتبة لينام أمام الشرفة المجاورة لغرفتها، مفكرًا أنه لا يوجد سبب حقيقي لكي يكون بعيدًا عنها عندما يقتحم القاتل البيت..

***

باقٍ من الزمن ست وعشرون ساعة.

الفصل الثاني والعشرون

مع بزوغ الشمس ذهب بيترسون مسرعًا لغرفة ريتشر المجاورة للشرفة، كاد أن ينحني ويوقظه ثم توقف بسبب غريزة ما بداخله وتراجع خطوتين للخلف، وانحنى بهدوء قائلًا : ريتشر.. استيقظ.

فقد شعر أنه لو انحنى وأيقظ ريتشر بهزة من يده فربما ينتهي به الأمر بذراع مكسور وحمالة كتف، والحقيقة أنه لم يكن مخطئًا بهذا الصدد، كرر بيترسون : استيقظ يا ريتشر..

ففتح الأخير عينيه وقال بانزعاج : ماذا؟

- مخيم عصابة ذوبي الدراجات البخارية والمنشأة، لقد وعدت بأنك ستذهب لتفقد المنطقة هناك، هل تذكر؟ مع شروق الشمس وكل حديثك عن انعدام الأسباب للقيام بتلك الزيارة في الليل..

فرك ريتشر عينيه وتثاءب، ثم نظر لبيترسون بوجه منزعج وقال في النهاية : أنا نادم في تلك اللحظة على أي شيء قلته البارحة..

جانيت سالتر كانت تنتظره في المطبخ وقد تأنقت لليوم الجديد وبدا أن النوم ساعدها على تخطي قلقها، هبت رائحة القهوة لتنعش روح ريتشر وهو يدلف للمطبخ، أعطته قدحًا فرشف منه وهو يقول : أنا مضطر للذهاب

الآن لكني سأعود.

- لقد أخبرني سيد بيترسون بهذا، هل ستكون بخير؟

- أتمنى ذلك.

- لا أفهم المنطق وراء ذهابك، هناك حوالي ثلاثمائة شخص هناك وكل ما تمتلكه هو مسدس بست طلقات.

- نحن بحاجة لمعلومات بشأن المنطقة.

- لا تقلقي، الدستور في صالحي.

قالها مبتسمًا فنظرت له متسائلة بحاجب مرفوع، مثلما تخيل آماندا في الليلة السابقة، أجاب تساؤلها الصامت : لو حدث لي شيء هناك ولم أعد فسوف يكون هناك حجة قانونية للشرطة كي تذهب وتفتش المنطقة بحثًا عني ولا أعتقد أنهم سيخاطرون بشيء كهذا، شكرًا على القهوة الرائعة، سأذهب الآن، لا تفتحي الباب لأحد غيري..

- هل نتفق على كلمة سر ما؟

- اسأليني عن كتابي المفضل عندما أطرق بابك.

- لا يوجد كتاب مفضل لديك.

- بالضبط، وسوف تكون تلك هي الإجابة الصحيحة.

ثم وانته فكرة مباغتة فذهب واتصل بالوحدة العسكرية واتصل بآماندا ليطلب منها تفقد شرطي يدعى كابلر انتقل من فلوريدا لبولتون، وأنهى المكالمة ثم اتجه للباب عندما

سألته جانيت : هل سيرحل رجال الشرطة مجددًا؟ لو حدثت حالة شغب أخرى؟

- لن تحدث حالة شغب أخرى.

- حالة هروب إذًا.

- ليس من اليسير أبدًا أن يتمكن سجين ما من الهرب.

- لكنه أمر محتمل، هل تقول إن مشاكلي قد انتهت؟

- لنقل إن الفرص في صالحنا.

- هل سترحل عندما تنتهي العاصفة وتعود الطرق السريعة للعمل؟

- ليس قبل أن أطمئن عليك.

ابتسمت جانيت وقالت : وسوف تذهب إلى فيرجينيا بعدها لرؤية صاحبة الصوت الجميل أليس كذلك؟

- ربما تكون متزوجة.

- عليك أن تسألها.

ابتسم ريتشر بدوره وقال : أعتقد أني سأفعل هذا..

***

كان بيترسون ينتظره عند الباب، ليعطيه مفاتيح سيارة معبأة بالوقود ومستعدة للانطلاق ثم شرح له خارطة الطريق لكي يصل للمخيمات والمنشأة، بينما قال ريتشر

له بتهكم : نفس الطريق الذي قُتل فيه المحامي..

- فقط حاول ألا تتوقف لأي متنقل طرق أو سيارة بحاجة إلى عون.

- آه هه، بالتأكيد.

- ستواصل رحلتك جنوبًا، وعندما تصل لتلك البقعة..

أشار بيترسون بيده للخارطة وأردف : ستنعطف يسارًا.. وتأخذ هذا الطريق غير الممهد، هناك أشجار كثيفة، ربما ينصبون لك كمينًا، كن حذرًا.

- اهتمامك بسلامتي يثير شجن قلبي حقًّا.

- لا تكن وغدًا يا ريتشر.

- شكرًا يا بيترسون.

السابعة صباحًا، باقٍ من الزمن إحدى وعشرون ساعة.

***

على بعد سبعمائة ميل، وبتوقيت زمني مختلف بفارق ساعة، تحركت عقارب ساعة الحائط لتشير للثامنة صباحًا، وانعكس ظل بلاتو على تلك الساعة وهو جالس يتناول إفطاره، ثم التقط هاتفه وأجرى اتصالًا، ليقول فورًا عندما تمت إجابة مكالمته : هل ماتت الشاهدة؟

- ليس بعد.

- لماذا؟

- أنت تعلم مسبقًا أن هناك فارقًا زمنيًّا بين مقتل المحامي والشاهدة، فارق زمني ليس بقصير.

- لقد رتبت لحالة شغب في السجن البارحة ورجلك لم يستغلها.

- لقد كان هناك رجل معها، حارس شخصي.

- ولماذا لم يتولَّ رجلك أمره؟

- كنت بحاجة لتعليماتك.

- تلك هي إجابتك؟ كنت بحاجة لتعليماتي؟ هل تردني أن أؤذيك.

كان الرجل على الجهة الأخرى من الهاتف يعرف جيدًا كيف يجيب، فقال بهدوء : كلا، أنا لا أريد لك أن تؤذيني.

- ولو اضطرتني لهذا، فكيف سأفعله؟

صمت.. ثم جاءت الإجابة : سوف تقتل الشخص الأقرب لي أمام عينيَّ..

- نعم، سوف أفعل هذا، ووفقًا لمعايرك سيكون هناك فارق زمني ليس بقصير، سوف أقطع يدي زوجتك وأهشم عظام ساقيها وأتركها تتلوّى ألمًا لأيام قبل أن أقتلها، هل تفهم ما أقوله لك؟

- نعم.

- إذًا أتم مهمتك، أنا لا أهتم بشأن الحارس الشخصي ولا سكان البلدة كلها، اقتلهم جميعًا لو أردت هذا، قم بإبادة كل قاطني جنوب داكوتا، هم لن يتخطوا الثمانمائة نسمة في النهاية.. أتم مهمتك.

- سوف أفعل هذا، أعدك..

أنهى بلاتو المكالمة وصب لنفسه قدح قهوة سوداء قوية وثقيلة وبدأ في الرشف منها.

***

طوت إطارات السيارة الأرض الثلجية طيًّا، دون أن يبالي ريتشر بالثلج ولا بمخاطرة انغراز أحد الإطارات، لم يرد أن يغيب لفترة طويلة عن جانيت سالتر، ولم يرَ مخاطرة في القيادة السريعة وسط الثلوج سوى تحدي قوى الطبيعة، زاد من سرعة السيارة وأدار المقود حتى تلاحى الطريق الثلجي أمام عينيه والأشجار الكثيفة المتراصة من كل جانب، «ربما ينصبون لك كمينًا»، جوار ريتشر على المقعد استلقى المسدس، لم يضعه في جيب المعطف، الذي يخص والد كيم بيترسون، ولم يضعه في غمده، ليس في تلك الملابس الشتوية الثقيلة، هو بحاجة إليه كي يكون حرًّا ومستقلًّا ومجاورًا له، انعطف ريتشر يسارًا بينما تنعكس الأشجار على عينيه، لن ينصبوا له كمينًا، لا يوجد أحد وسط الأشجار لسبب واحد بسيط، إنهم لا يتوقعون قدومه.. اتجه بعدها ريتشر ناحية المخيمات.. حيث كان

الطريق طويلًا وغير ممهد، ليس صالحًا لزحام مروري ولم تطأه إطارات سيارة منذ أعوام، قاد ريتشر السيارة ببطء، وسط الطريق المتعرج، ومن على بعد نصف ميل بدأ في رؤية نشاط بشري، بدأ في تمييزه على بعد مائة ياردة، شاحنات وقاطرات ورجال يحملون صناديق بها، الكثير من الرجال ربما ثلاثون أو أربعون، الصناديق مغلقة الإحكام، ثم توقف الرجال عن تحميل الصناديق ونظروا لسيارة ريتشر التي واصلت الاقتراب ببطء، وأيديهم المنغمسة داخل قفازاتهم تحمل مناجل الثلج، وتزايد عصف الرياح..

واصل ريتشر الاقتراب، عشرون ياردة، عشر.. توقف بالسيارة ونظر إليهم، دون أن يطفئ المحرك، لقد قرأ فيما سبق أنك لو أطفأت محرك سيارة وسط الثلوج ففي الأغلب ستواجه مشكلة مرة أخرى في تشغيله، وهو لا يريد أن يكون فريسة لهؤلاء الرجال دون وسيلة هرب قوية، نظر ريتشر لانعكاس عينيه في المرآة، وغمغم بسخرية : الهرب لم يكن دومًا وسيلتي المفضلة..

أغلق ياقة معطفه وخرج من السيارة، بعدما ارتدى قفازات يديه، في نفس الآونة تزايد أعداد الرجال من ثلاثين لمائة، تمامًا كما وصفهم بيترسون وجانيت، أنفاسهم تخرج قوية بخارها لتختلط بالرياح.. لم يستطع ريتشر تمييز أجسادهم وقوتهم البدنية بسبب معاطفهم الثقيلة وغطاء الرأس والقفازات، وتزايد الصقيع بينما ريتشر يترجل من

السيارة ويسير نحوهم، وشعر أن حالة الصقيع تزداد سوءًا، وأنه يهاجمه من الداخل للخارج بدلًا من العكس، بدأت القشعريرة تسري في جسده وانسابت تنميلة لوجهه، سار عشر خطوات واضعًا يديه في جيوب المعطف ثم توقف بينما سيارة شرطة بلدة بولتون تنتظر من خلفه، هنا تحرك أحدهم، ربما القائد، سار ببطء وسط الزحام، وتقدمهم للأمام، كان يرتدي معطفًا أسود وقبعة تماثله في اللون، بدا منزعجًا وفضوليًّا بشأن الزائر الغامض، توقف على بعد أمتار من ريتشر وحدق بالأخير الذي صاح محاولًا التغلب على صوت الرياح : من أنت؟

بصق الرجل وأجاب ريتشر بغلظة : اغرب عن وجوهنا.

- تلك ليست طريقة لطيفة لمقابلة ضيوفك.

- أرني القانون الذي يلزمني بأن أكون لطيفًا..

- على الأقل أظهر القليل من المجاملة، فأنت تسير في ملكيتي الخاصة بعد كل شيء.

- وكيف هذا؟

- تلك أرض عسكرية وأنا رجل جيش.. أنا هنا لتفقد منشأتنا العسكرية.

- تلك ليست سوى مزحة سخيفة.

- لا يهمني رأيك، أنا هنا من أجل رؤية المنشأة..

- اغرب عن وجوهنا.

- لن أفعل هذا ولكي أكون صادقًا لا أعتقد أني قادر على أخذك بجدية.

- هل تريد قتال مائة رجل؟

- لا أعتقد أني بحاجة لهذا، أغلبكم ممتلئ الجسد وثقيل الحجم على القيام بأي حركة سريعة، والباقون يبدون كمجموعة من الجبناء، لو قمنا بعملية إحصائية فأنا مضطر لمقاتلة عشرة منكم ليس أكثر..

لا رد.. أردف ريتشر : كما أني من الجيش، لو عبثتم معي فلسوف تجدون دبابة في انتظاركم..

لا شيء سوى الصمت وعويل الرياح حتى قال الرجل في المقدمة بعدما قيّم ريتشر بعينيه وتوصل لقرار : ما الذي تحتاج لرؤيته؟

- مبنى المنشأة.

- هذا ليس ملكنا.

- لا شيء هنا ملككم لا المبنى ولا المخيمات.

- تقصد أننا لا نستخدمه.

قالها الرجل بصبر وهو يجز على أسنانه..

- لا أعتقد أنكم تمتلكون حقًّا في استخدام أي شيء هنا.

- اعتبرها حقوق المتنقلين، لقد فعلها الغجر من قبلنا..

إنها منشأة مهجورة، مخيمات مهجورة، ونحن على دراية كافية بالقانون.. ولم نخترقه.

لا تعليق من ريتشر، وإنما سار بهدوء بينهم وبدءوا يفسحون له مجالًا بوجوه غاضبة وأعين محدقة، عبر خلالهم ثم توقف واستدار وقال لقائدهم : طالما أنكم لا تستخدمونها فلماذا تقومون بجرف الثلوج بعيدًا عنها؟

- اعتبرها نوعًا من الرياضة يا صاح..

نظر ريتشر إليه ونفس البخار من فمه ثم استدار واتجه للمنشأة، ولاحظ أن قائدهم يتبعه، ثم ارتكزت أنظار ريتشر على المنشأة نفسها، مبنى من المعدن الخام، مصمم على طراز البيوت الفاخرة في المجمعات السكنية المغلقة الخاصة بمن يتحكمون في العالم، المبنى المعدني مستدير ويحمل عدة طوابق بداخله، الخلفية من الرخام، هناك طابق كامل زجاجي مغطًى بالثلج بالأعلى، التفت ريتشر لقائدهم وسأله : هل تعرف نوع هذا المكان؟

- ألا تعرف أنت؟

- بالطبع أعرف لكني أريد تفقد قوة السرية المحيطة بالمنشأة.

هز القائد كتفيه وبصق مرة أخرى ثم قال : لقد سمعنا إشاعات وأساطير.

- بواسطة من؟

- عمال البناء الذين اعتادوا العمل في المخيمات.

- وما الذي قالوه لكم؟

- حكايات عن قنابل ذرية، وتواجد أسلحة نوية في المنشأة، أنت تعرف ما أرمي إليه، مثلما فعل أوبنهايمر.. منشأة سرية لتصنيع تلك النوعية من الأسلحة، وهناك إشاعات أخرى عن كونها.. عيادة خاصة.. أي نوع من العيادات؟ أرى السؤال يلوح في عينيك، ربما أنك لا تعرف في نهاية المطاف.. لقد أخبرونا أنها عيادة خاصة تم تصميمها لغوثنا في حالة تمت مهاجمتنا من السوفيت في قلب الشتاء، بسلاح ذري، السيناريو الشائع هو أن النيوركيين والشيكاغيين سيفقدون وجوههم مع الهجوم، سينسلخ جلدهم تمامًا، وأن تلك العيادة مصممة لإعطاء الناجين وجوهًا جديدة، مثل عمليات التجميل، هذا ما تحدثوا عنه، الشيء الذي ينتظرنا في المنشأة العسكرية هو مئات، ربما آلاف، الوجوه البلاستيكية، كما قلت لك.. إشاعات وأساطير..

سار ريتشر بهدوء صوب أحد الصناديق ولاحظ أن الحشد يتحرك كأنما يتبعه من على بعد، ثم بدأ في فتح أحدهما فقال الرجل : هذا لا يخصك.

- لكنه موجود في أرض عسكرية.

- أنت لا تمتلك مذكرة تفتيش.

لم يرد ريتشر، لقد اكتفى من الحديث، والخدر قد تمكن

من وجهه وأسنانه تصتك ببعضها، فتح غطاء الصندوق وتفقد محتواه، ليجد العديد من الملابس الثقيلة، وكرات فراء، رفع رأسه ونظر لعدد من الكبائن المبنية حديثًا جوار المنشأة، اتجه نحو الأقرب وفتحها، وجد مراهقة بالداخل، طويلة ونحيفة لها شعر أسود طويل، جذابة وتجلس جوار جهاز تدفئة، تلاقت أعينهم وشعر ريتشر أنه قد رآها من قبل ثم أدرك أنها «نوع من الفتيات» مثل كيم بيترسون، تشعر وكأنك رأيتهم على أغلفة المجلات إثر جمالهن، خرج ريتشر من الكابينة وقال للقائد : هلا أريتني باقي الكبائن؟

- أيًّا كان.

قالها الرجل بعدم اهتمام.. وفتح أربعًا ريتشر كابينة خالية، كلهم متطابقون، بلا بشر بداخلهم، ربما الفتاة المراهقة كانت مريضة وهذا سبب بقائها بالداخل، الكابينة الأخيرة في المخيمات كانت عبارة عن مطبخ خاص بالمقيمين..

توقف ريتشر للمرة الأخيرة وألقى نظرة من الخارج على المنشأة ذات الباب الحديدي الموصد ومر بذهنه ما قالته صاحبة الصوت من الوحدة العسكرية «هل تعلم مقدار الميزانية إبان حقبة الحرب الباردة؟ لقد كانوا ينفقون الملايين في شراء المعدن والرخام لبناء مبانٍ عدة تحمل أسرارًا بداخلها»..

تنهد ريتشر واستدار عائدًا للسيارة وسط الحشود دون أن

يلتفت لقائدهم وتمتم : يوم سعيد..

خمس دقائق قبل حلول التاسعة صباحًا، باقٍ من الزمن تسع عشرة ساعة.

الفصل الثالث والعشرون

رحلة الذهاب كانت مثل رحلة العودة تقريبًا، وفي أثناء عودته على الطريق السريع وخروجه من الطريق المتعرج حيثما تتراص الأشجار على الجانبين، ظهرت قاطرة محملة بالوقود وهي تحاول الانحدار من الطريق العام للطريق الفرعي الذي يقود للمخيمات، لجزء من الثانية اتجهت المقطورة بسرعة صوب سيارة ريتشر حتى أطلق الأخير نفير السيارة محاولًا تنبيه السائق لوجوده، وهو يحسب في ذهنه احتمالات كون السائق يريد دهسه عمدًا أم لا، لكن السائق انتبه لريتشر وأبطأ من سرعة مقطورته، وواصل ريتشر الابتعاد بالسيارة.. متجهًا لبلدة بولتون وبيت جانيت سالتر.

كان كابلر الشرطي الذي يتولى نوبة الحراسة أمام المنزل، وقد تفحص الأخير ريتشر بعينيه جيدًا ثم أفسح له مجالًا لكي يدخل البيت، لتستقبله شرطية الحراسة بالداخل وسألها ريتشر : هل كل شيء بخير؟ أجابته الشرطية هامسة : آمل ذلك، جانيت بخير.

- أريد رؤيتها.

شعر أنه يمثل دور المأمور هولاند في الليلة السابقة، لكنه كان يعرف أنه لو أصابها مكروه ما لن يكون مسئولو الشرطة بهذا الهدوء، ثم قالت الشرطية : ستجدها في المكتبة..

وجدها ريتشر تجلس في مقعدها المعتاد بالمكتبة تقرأ كتابًا تلك المرة، بينما انبعاج مسدسها يبدو واضحًا في جيب سترتها، رفعت رأسها عند رؤيته وابتسمت له بترحاب، جدته التي لم يحظَ بها أبدًا، وجد نفسه يبادلها الابتسامة، ثم قالت : هل عرفت شيئًا من رحلتك بشأن هذا المكان الغامض؟

- لقد عرفت الكثير.

قالها غامزًا وأردف : سأذهب لمخفر الشرطة وأعود إليك بعدها..

ذهب ريتشر للسيارة وقادمها للمخفر معتمدًا على ذاكرته، قابل بيترسون بالداخل وقال له فور رؤيته : هولاند كان محقًّا، هم لن يأتوا إلى بولتون، تهديدهم محض هراء، ربما لم يكونوا أصحاب التهديد من الأساس، ربما يكون القاتل المحترف وقد أراد إحداث زوبعة..

- سواء كانوا هم أم لا نحن ننتوي إلقاء القبض عليهم.

- عليك فعل هذا بسرعة لأنهم موشكون على الرحيل.

- هل أخبروك بهذا؟

- كلا، لقد خمنته، كابيناتهم فارغة، يحملون كل ملابسهم في صناديق، ويجرفون الثلج بعيدًا لتتمكن عجلاتهم من الرحيل، ويبدو أنهم ينتوون الرحيل قريبًا وعاجلًا..

- هل سببوا لك أي مشاكل؟

- كلا.

- وصدقوا أنك من الجيش؟

- كلا، لم يصدقوا هذا ولو للحظة واحدة، لكن من سيأخذ المكان منهم قد أعطاهم تعليمات واضحة بعدم الدخول في أي مشاكل، لأنه لا يريد للمخيمات أن تكون عرضة لأي شبهة قانونية؛ ولذا لم يتعرض أحد منهم إليّ..

- لكن تلك الأرض ليست بملكية خاصة لأحد بعينه.

- لكنها مصدر ربح لشخص ما، بلاتو في الأرجح، وهو يعتقد أنه يمتلك تلك الأرض وأن راكبي الدراجات البخارية هم موظفوه.. وهم الآن ينتقلون لمشروع آخر يخصه.

- هل رأيت ما يوجد داخل المنشأة؟

- لم أرد المراوغة ومحاولة التسلل خلف الباب الموصد أمامهم، من المفترض أني عسكري في مهمة رسمية وأمتلك المفتاح، كما أني أردت إلقاء نظرة على المكان من الخارج ليس أكثر كخطوة أولى..

فكر بيترسون لثوانٍ ثم ذهب لغرفة الأدلة وعاد لريتشر بحقيبة بلاستيكية مغلقة تحمل اسم الغرفة التي كانت بها، وبداخل تلك الحقيبة استقر الهيروين، بودرة بيضاء اللون، كما وصفتها جانيت سالتر في شهادتها قبل أن يلقوا

بصاحب الحقيبة، السجين من عصابة ذوي الدراجات، في إصلاحية بولتون.. وقال بيترسون : لقد فحصنا تلك العينة وهي مخدرات بنسبة مائة في المائة، كمية أصغر من كيلو واحد، نقية وصافية، مصنعة في معمل خاص.. سعرها سيقدر بمائتي ألف دولار.. وهل ترى تلك الصورة الصغيرة أعلى الهيروين، إنها علامتهم المسجلة، يصنعون المخدرات هنا ويقومون ببيعها في شوارع شيكاغو، وتدرّ الأموال على بلاتو في قصره..

- وبحوزتك المال الذي تم مصادرته إبان الصفقة.

- بالطبع.

- هل أستطيع أن أراه؟

- ألا تصدقني؟

- كلا، أنا أحب رؤية الأدلة ليس أكثر..

تنهد بيترسون وذهب لغرفة الأدلة مرة أخرى وعاد تلك المرة بحقيبة مغلقة، بلاستيكية مكتوب عليها «أدلة»، ونظر ريتشر للمال المتكدس بداخلها ثم قال : كم من الوقت يلزمك لكي تجني مالًا كهذا بعد تصفية الضرائب؟

- طيلة حياتي في الأغلب.. أنت لم ترَ المنشأة من الداخل ولا تعرف ما الذي يدور بداخلها ولم تصل لمعملهم لتصنيع الهيروين..

- ليس بعد، هيروين، كوكايين، ماريجوانا، أعتقد أنهم

يتاجرون في كل شيء..

- ولا تمتلك تخمينًا بصدد طبيعة المنشأة؟

- ليس بعد، لكني بالتأكيد أعرف كل الأشياء التي لا تمثل طبيعة تلك المنشأة...

ثم خرج ريتشر من غرفة بيترسون وذهب لمنضدة مستديرة جلس على حافتها واتصل بالوحدة العسكرية، وطلب الحديث مع آماندا..

أتاه صوتها مجهدًا تلك المرة وبه قليل من الانزعاج لكنها حافظت على نبرتها الساخرة.

- بإمكاني أن أكون في أفغانستان الآن كما تعلم، ولو واصلت الاتصال بي سأطلب نقلي في الأرجح.

- بإمكاني تخيلك في أفغانستان.

- هل ذهبت هناك من قبل؟

- كلا، لكني قابلت بعض من كانوا هناك.

- حسنًا، أنا لا أمتلك أي معلومات جديدة بشأن منشأتك الوهمية.

- وعندما بحثت في قسم المالية لم تجدي شيئًا في الميزانية العسكرية يخص أي منشآت في جنوب داكوتا.

- هذا صحيح.

- لأن الأموال لم تسجل أبدًا في ميزانية الجيش البري.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- لقد بدأ أهل البلدة حكاياتهم بافتراض خاطئ، بأن المنشأة عسكرية، افترضنا جميعًا أنها تخص الجيش، فقد ذهبت هناك اليوم، وهل تعلمين ما الذي اكتشفته؟

- حدسي يخبرني بأنك موشك على القول..

- إنها ليست منشأة جيش بري، بل قاعدة جوية، تخص الطيران العسكري، ولذا لم تَجِدِ لها أي سجلات عندك..

الفصل الرابع والعشرون

قالت آماندا : هذا يغير من الأمور قليلًا.

- هل سمعت إشاعات بشأن عيادة طبية تقوم بصنع وجوه جديدة لضحايا الحرب الذرية؟

- آه، سمعت الكثير عنها، ولا أعلم أي شيء بخصوص صحة تلك المعلومة.

- هل لديك معارف في الطيران الجوي؟

- وهل نتوقع أن يبوحوا لي بأسرارهم؟

- لا يوجد أسرار في الأمر، مجرد حديث روتيني، محادثة معارف قدامى ويتم ذكر مسألة المنشأة المنسية والتي لا يهتم بها أحد في جنوب داكوتا على حدود بلدة بولتون..

- لماذا يهمك الأمر لتلك الدرجة؟

- لأن تلك المنشأة أصبحت قاعدة لمنظمة إجرامية، هناك شاحنة وقود تنتظر ومقطورات، أحدهم قادم لتلك القاعدة الجوية، وأنا أريد معرفة السبب..

- حسنًا، سأتصل بمعارفي، أي شيء آخر؟

- هل أنت متزوجة؟

- هل أنت متزوج؟

- كلا.

- هل تزوجت من قبل؟

- كلا.

- لماذا لا يدهشني هذا؟

قالتها وأغلقت الهاتف دون انتظار رده..

خمس دقائق قبل حلول العاشرة صباحًا، باقٍ من الزمن ثماني عشرة ساعة..

عند عودة ريتشر لبيترسون وجد الأخير يجلس بوجه مكفهر يميل للحمرة، انزعاج بادٍ عليه، وصاح فور رؤية ريتشر : مكتب مكافحة المخدرات يتهربون من اتصالاتي، ويقولون إنه لا يوجد معمل لتصنيع المخدرات في المخيمات، أنا بلا دعم الآن.. حجتهم أنهم بحثوا عن المعمل بالأقمار الصناعية ولم يجدوه!

- لكنه تحت الأرض.

- ومكتب مكافحة المخدرات ينكر تلك الفرضية، حسب ادعاءاتهم فأجهزتهم قادرة على رؤية ما يوجد تحت الأرض، وقد كشفوا عن معامل مماثلة في أكثر من قبو فيما مضى..

- إنهم مخطئون.

- لقد قلت بنفسك إنك لم ترَ معملًا هناك.

- هم يمتلكون المخدرات، وبالتالي لا بد من وجود

معمل، المعادلة شديدة البساطة..

أراح بيترسون وجهه بين ساعديه في إنهاك، وتابع ريتشر بنظرة متعاطفة : هناك شيء ما مظلم يجري هناك يا بيترسون، إنهم يستعدون لشيء على وشك الحدوث، كل الشاحنات والمقطورات وحقيقة إنهم لم يهاجموني..

هز بيترسون يديه دون رد، رفع رأسه ثم دفنهما بين كتفيه مرة أخرى، مرت ساعة قبل أن يتلقى بيترسون اتصالًا يبلغه بأن الطرق العمومية قد عادت للعمل، بعدها اتصل جاي نوكس بالمخفر ليخبرهم أن الحافلة البديلة التي ستقل الركاب سوف تصل بعد ثلاث ساعات.. بدأ بيترسون في إجراء مكالماته ليبلغ راكبي الحافلة، المسنون والسيدة ذات الرسغ المكسور، جميعهم، وبعدما انتهى نظره لريتشر متسائلًا : هل سترحل معهم؟

- أنا رجل فضولي.

- نعم أو لا.. هل سترحل؟

- هذا يتوقف على ما سيحدث قبل وصول الحافلة..

وما حدث قبل قدوم الحافلة كان أن جانيت سالتر قررت الخروج من البيت لكي تتمشى في العراء..

اتصلت الشرطية من بيت جانيت مجذوعة وقالت لبيترسون إن الأولى قد أصيبت بحالة غضب واختناق من البقاء حبيسة في بيتها لمدة أسبوع، وأنها صممت على

الخروج، صائحة بأنها اعتادت الذهاب للمتجر ومحل الخضراوات وأحيانًا تخرج لتسير فحسب، وأنها لن تستطيع المكوث حبيسة لمدة دقيقة أخرى.. هتف ريتشر عندما نقل له بيترسون القصة : إنها مجنونة، تخرج في هذا الصقيع!

- إنها من أهل البلدة الثلجية، الصقيع لا يمثل لها شيئًا..

ثم أضاف بابتسامة خبيثة : بإمكانك محاولة إقناعها بالمكوث في البيت..

وبالفعل ذهب ريتشر مع بيترسون لبيت جانيت وكانت الأخيرة قد انتهت من ارتداء الملابس الجديدة للخروج عندما دخلوا البيت، قالت فور رؤية ريتشر : الشرطية أخبرتني بأنك قلت لبيترسون إن راكبي الدراجات البخارية على وشك الرحيل من المخيمات.

- إذًا فالوضع أكثر أمنًا بالنسبة لي كي أخرج وأسير قليلًا، النفس البشرية بحاجة للتنزه كما تعلم.

- القاتل المحترف ليس من عصابة ذوي الدراجات البخارية يا جانيت وأيًّا كان من هو فهو ينتظر ويراقبنا بتلك اللحظة على الأرجح، كما أن الجو شديد البرودة كي تخرجي وتسيري..

- هذا ليس صحيحًا لو ارتدينا الملابس المناسبة سويًّا سوف نستمتع بتلك المسيرة، نعم لا تنظر إلي هكذا، لقد كنت أتمنى أن تأتي معي..

***

باقٍ من الزمن سبع عشرة ساعة.

***

بدت خطة بيترسون لحماية جانيت سالتر إبان تنزها نخطة رجال الحماية السرية وهم يحيطون بالرئيس أثناء إحدى جولاته، لقد أحاطوا بها بشكل دائري كدرع بشري من كل الجهات، تاركين مسافة كافية بينهم وبينها كي لا تشعر بالاختناق، وريتشر يسير جوارها بينما عيناه تمسحان المنطقة مسحًا، متوقعًا ظهور الخطر من كل ركن، سار كلاهما لمدة عشر دقائق في صمت ثم قالت جانيت : بم تفكر؟

- لماذا لم ترحلوا جميعًا، وأعني أهل البلدة كلها لمكان أكثر دفئًا من تلك البلدة.

ضحكت جانيت وأجابت : هل أخبرك بيترسون عن رياح ستالينجراد؟ كلا؟.. حلت للمرة الأولى عام 1932، لم نكن قد أعطيناها هذا الاسم بعد، لكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة الألمان في ستالينجراد بروسيا بسبب الصقيع والثلوج، أسمينا تلك الرياح بهذا الاسم، ونحن مثل الروس في هذا الصدد، اعتدنا هذا الطقس وأحببناه، ربما ذوو الدرجات البخارية وقاتلك المحترف هم النازيون في حالتنا الآن، وربما الرياح تعرف بما يحدث ؛ لأن تلك الرياح الحالية التي تجعلك مقطب

الجبين وغاضبًا لهذا الحد ليست سوى رياح ستالينجراد..

وضحكت مرة أخرى قبل أن تضع يدها على فمها إزاء تعبير وجهه المحتقن، وأردفت : أنت لست على وفاق مع صقيع بولتون حقًّا..

وصلوا للمطعم، الذي كان مكتظًّا بالرواد وقالت جانيت : هؤلاء زوار السجن، أتوا من أماكن بعيدة لرؤية أحبائهم..

كان ريتشر شاردًا، يتخيل الحافلة التي ستصل للبلدة بعد ثلاث ساعات وتنطلق إلى دفء فيرجينيا، حيث آماندا، أو أيًّا كان اسمها الحقيقي، صاحبة الصوت الخلاب، رفعت جانيت حاجبها وقالت : أنت تفكر بشأن صاحبة الصوت أليس كذلك؟

- كلا.

تفقد ريتشر وجوه رواد المطعم، ونظر إلى السيارات الرابضة أمامه، إحداها كانت سيارة شرطة، ثم سألته جانيت : أين سنذهب الآن؟

- أنت قائدة تلك المسيرة.

- نحن لا نتملك أماكن مسلية أو مثيرة في بولتون.

- يمكننا تناول الغداء.

- الوقت مبكر على هذا.

- إفطار متأخر إذًا.

- لست جائعة.

- قدح من القهوة؟

- المطعم مزدحم للغاية، لن نحصل على منضدة.

- لنعود للبيت إذًا.

- بتلك السرعة؟

تنهد ريتشر ونظر إليها دون رد فأحنت رأسها موافقة، التفت وصفر لبيترسون مشيرًا لطريق العودة فهز الأخير رأسه، وغيّروا اتجاه المسيرة عائدين للبيت، ريتشر وجانيت في المقدمة، بيترسون والشرطية يتبعانهما من الخلف..

***

باقٍ من الزمن ست عشرة ساعة.

***

وقف بلاتو في شرفته، يدخن سيجار كوبي، ويرفع الهاتف بيده ليستقر على أذنه..

- هل انتهى الأمر؟

- لا، لم أجدها في البيت.

- اعثر عليها إذًا.

***

كان جسد ريتشر يحارب الصقيع، وبدأ يشعر بآلام في خاصره عندما قالت جانيت بخجل : أنا آسفة، لقد كنت أنانية وغير مبالية وعرّضتكم للمتاعب بإصراري على الخروج والتنزه..

- أنت تتعرضين لضغط نفسي هائل، وأبسط حقوقك هي الخروج والتنزه.

كان يتحدث بينما عيناه تراقبان شاحنة تمر من على بعد ولم يبدُ أن السائق يُلقي لهم بالًا، مرت سيارة أخرى بنوافذ معتمة، بينما كابلر يسير جوارهم من الناحية الأخرى، وبيترسون والشرطية من خلفهما، توقفت السيارة وفتح السائق النافذة، ونظر لجانيت متجاهلًا ريتشر، لم يكن السائق سوى المأمور هولاند وقالت جانيت له : لا تقلق، لقد خرجت لأتنزه قليلًا وسيد بيترسون يقوم بعمل شامل ورائع لحمايتي..

- أنت متجهة للبيت الآن؟

- نعم، أنا عائدة الآن..

- هل أستطيع أن أقلك بسيارتي؟

- لا تقلق، أفضل أن أسير ولكن لا تقلق بشأني، اعتقدت أني أردت الشعور بالقليل من المغامرة ليس أكثر..

- حسنًا.

- لكن أتمنى أن تأتي وتنضم إلينا في البيت لو وقتك يسمح بهذا.

- حسنًا.

واصلوا السير فقط ليبدأ هولاند بالتحرك بسيارته جوارهم ببطء، عنصر جديد في برنامج حماية الرئيس، وقالت جانيت بضيق : هذه سخافة.

- إنه يقوم بعمله.

- فقط لأنه يريد استغلالي في المحاكمة.

- كلا، أنت مواطن جيد، من نوع المواطنين الذي سيرغب مأمور البلدة في حمايتهم.

لم يبدُ الاقتناع على وجه جانيت التي سارت في صمت..

وصلوا للبيت، وكان جسد ريتشر قد وصل لنقطة الانهيار في مقاومة الصقيع، ودخل البيت مسرعًا طلبًا للدفء، بعدها دلف كل من بيترسون والشرطية، لا بد أنهم كانوا يعانون إثر الصقيع كذلك لكن علامات تلك المعاناة لم تبدُ عليهم، نوع من كبرياء مواطني بولتون في الدفاع عن طقسهم بلا ريب، في حين أوقف هولاند سيارته بالخارج وبدأ في الترجل منها، بينما عاد كابلر لموضعه في نوبة الحراسة خارج البيت، فرك ريتشر يديه، عندما رن الهاتف، التقط بيترسون السماعة وسمع لثوانٍ قبل أن يعطي ريتشر السماعة قائلًا : المرأة من الوحدة

العسكرية..

دلف هولاند للبيت في تلك اللحظة فأشار له بيترسون أن يأتي معه تاركين ريتشر بمفرده لتلقي المكالمة، وقالت صاحبة الصوت، آماندا، دون مقدمات : لقد اتصلت بأحد معارفي في الطيران الجوي، أعتقد أننا نقترب ببطء من معرفة ما نريده، ولا أشير للبطء بسبب سرية الموضوع، على العكس، بسبب عدم أهميته، لأن المكان مهجور منذ عقود، ولا أحد يتذكر شيئًا حقًّا عنه، ولا حتى كينونته أو غرض استخدامه، كل التفاصيل تم «أرشفتها»، كل ما وجده الرجل هو تقرير عن التصميم الخاص بالقاعدة الجوية والتقرير يشمل وقائع عن مدى صعوبة بناء تلك القاعدة.

- بسبب أن جزءًا منها يقبع تحت الأرض.

- نعم هذا صحيح.

- عمل جيد، ونتائج لا بأس بها بالنسبة لعمل ساعتين.

- ساعة واحدة ليس أكثر، لقد غفوت قليلًا في الساعة الأخرى..

- أنت لست بموظفة مثالية.

- الانبعاج في المقعد لا يقول عنك عكس ذلك.

- مشاغبة.

- لقد استعلمت عن الشرطي من فلوريدا، كابلر، عمره

ستة وثلاثون عامًا، كان يعمل في شرطة ميامي بفلوريدا ثم استقال فجأة دون أسباب منذ عامين وانتقل لبولتون، لا زلت بانتظار ملفه من شرطة ميامي..

- شكرًا.

- هناك شيء آخر.

ثم توقفت لبرهة وأردفت : الزوج القاتل من فورت هوود يرفض الحديث، لا يريد أن يدلي بحرف واحد..

- أين هو الآن؟

- عاد للموقع في فورت هوود، في زنزانة هناك.

- هل قتلها في الموقع العسكري أم في منزلهم المدني؟

- منزلهم.

- إذًا هو يفكر في كل الاحتمالات، احتمال امتثاله لقضاء تكساس المدني، في تهمة قتل زوجته، أو مواجهته للمحاكمة العسكرية بتهمة الخيانة، وفي كلا الاحتمالين سيتم إعدامه، ولذا لا يوجد لديه دافع حقيقي للاعتراف أو الحديث..

- ماذا ستفعل لو كنت بموضعي؟

- ما هو هدفك معه بالضبط؟

- معرفة جهة اتصالاته ولمن كان يعمل.

- بإمكانك التوصل لهذا بنفسك من سجل خدمته

العسكرية، لا بد أنه أدى مهامَّ في روسيا أو في أفغانستان، ومن هناك تم إغواؤه عن طريق مخابرات دولة أخرى.

- كيف أجعله يتحدث إليّ؟

- أعطيه أمرًا مباشرًا، أنت أعلى منه رتبة وهو مدرب على إطاعة الأوامر.

- لن يكفي هذا.

- هل والداه لا يزالان على قيد الحياة؟

- نعم.

- هل لديه إخوة؟

- أخ أصغر في فترة تدريب مع القوات البحرية.

- هذا جيد، جيد بشكل مثالي في الحقيقة، أحضريه لفورت هوود واعرضي عليه صفقة وأنت ستخدمين أخاه كعنصر تهديد، أخبريه بأنه لو تعاون معك فلسوف تكون محاكمة مدنية بتهمة قتل زوجته، هذا أمر بغيض لكنه معتاد من الأزواج وأقل وطأة من محاكمة عسكرية على العلن بتهمة الخيانة، سينتهي مستقبل أخيه ويعيش أبواه في خزي للأبد، هو ميت في الحالتين وكل ما تبقى له كي يخسره هو اسمه وسمعته، حتى لو كان يعتقد أنه فقط كل ما يخسره، مهمتك أنت هو تنبيهه لتلك الحقيقة.

صمتت قليلًا مفكرة ثم قالت : قتل زوجات أقل فضيحة من الخيانة، تبًّا لهذا المنطق، هناك خيانة عظيمة في قتل

زوجتك.

- أنا أتحدث من وجهة نظره هو والعامة.

- حسنًا، سوف أجرب.

- لا تنسَ بشأن ما أحتاجه.. الهدف والغاية من تلك القاعدة الجوية القديمة ومسألة البنية التحتية.

- أي شيء آخر؟

- هل أنت متزوجة؟

أنهت المكالمة دون أن ترد..

***

دخل ريتشر غرفة المعيشة ليجد هولاند وبيترسون وجانيت والشرطية يجلسون سويًّا، مطلب من العقل الباطن للدفء الآدمي بلا شك في تلك الظروف الوخيمة من العزلة والصقيع، قال بيترسون لريتشر : دوريات المرور في حالة تأهب لأن أصحاب الدرجات البخارية بدءوا في التحرك وهجر المخيمات بالفعل..

***

باقٍ من الزمن خمس عشرة ساعة.

الفصل الخامس والعشرون

ذهب ريتشر مع هولاند لمخفر الشرطة بينما ظل بيترسون مع جانيت، ووصل الاثنان للمخفر وحصل هولاند على تقرير من أحد رجال الدورية.. «تحركت قافلات ساكني المخيم مع بدء فترة الظهيرة، ثلاث مقطورات وشاحنة، وفقًا للوصف والمعاينة كانوا يحملون صناديق مغلقة بها أمتعتهم، وشاحنة أخرى بها دراجاتهم، لقد انقسموا لمجموعات داخل المقطورات، ووصلوا للطريق العمومي بعد نصف ساعة، وهم الآن في طريقهم للرحيل عن جنوب داكوتا، لقد بدءوا في التحرك العاجل فور الإعلان عن فتح الطرق العمومية، كأنهم كانوا يملكون خبرًا مسبقًا بموعد الفتح».

بدا الارتياح الغامر على وجه هولاند فسأله ريتشر بتشكك : أنت سعيد لكونهم راحلين.

- لن أفتقدهم بالتأكيد.

- لقد كانوا يتاجرون في المخدرات والآن يفلتون دون أي رادع.

- نحن بلدة صغيرة مسالمة نحاول تجنب المشاكل في نهاية المطاف يا ريتشر.

- أنت لا تفهم ما يحدث حقًّا أليس كذلك؟ رحيلهم ليس بمؤشر على انتهاء المشكلة، لقد أخلوا الأرض لأن

بلاتو سوف يستلمها، وسوف يباشر النشاط هناك بنفسه، كل ما حدث يزيد الخناق على حياة جانيت، هي في خطر أكثر الآن لأنها العقبة الوحيدة بين رجلك بلاتو وبين مئات الملايين..

- لكننا جميعًا موجودون الآن لحمايتها.

- وماذا لو حدثت حالة شغب أخرى؟

- أخبرتني أن هذا لن يحدث.

- التخمين سيظل تخمينًا، هناك دومًا احتمالية ألا يحدث.. ولهذا عليك أن تتأهب طوال الوقت.

- لو رأيتني أسترخي قم بتوجيه لكمة في وجهي، ربما أننا قسم شرطة بلدة صغيرة ومسالمة لكننا مررنا بالكثير كما شهدت ونحن مستعدون.

- أعلم، آسف، ما يحدث ليس خطأك، هو خطأ عمدة البلدة الذي وقّع الاتفاق الخاص بالإصلاحية.

- لقد فعل ما سيفعله أي أحد في موضعه لزيادة التجارة في البلدة، كما ترى البلدة مزدحمة بالزوار والأعمال التجارية مزدهرة..

صمت ريتشر، وتنهد، الحافلة تقترب، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لن يرحل، لن يستطيع ترك جانيت، هنا قال هولاند : أخبرني بتوقعاتك بشأن القاتل المحترف..

- هو ينام في سيارته، يأكل في سيارته، لقد أصبحت

تلك السيارة فندقًا متحركًا خاصًّا به، يراقب وينتظر اللحظة المناسبة..

تخيل ريتشر جانيت تجلس في مكتبتها تصارع خوفها وشعر بأنه يريد الذهاب إليها، للحديث معها عن صاحبة الصوت الجميل في فيرجينيا، كأنه مراهق معجب بفتاة وهي جدته التي سوف تسديه النصائح، دلف بيترسون للمكان وقال : علينا تناول الغداء، بإمكانك المجيء معي يا ريتشر وتناول الغداء مع كيم، هي ستطرب لهذا..

- لأنها وحيدة؟

- نعم.. لأنها وحيدة.

- عليك بتغيير «الإستراتيجية» إذًا، قم باصطحابها لتناول الغداء في الخارج، يمكن لثلاثتنا الذهاب لمطعم البلدة، ولا تقلق سوف أتمكن من رؤية الحافلة عند الوصول..

اتفق ريتشر مع بيترسون أن يذهب الأول للمطعم لحجز منضدة وسط طابور الزحام بينما سيذهب بيترسون لجلب كيم، سار ريتشر حتى المطعم القريب من المخفر ورحل بيترسون بسيارته، وقف ريتشر في الطابور المكتظ بزوار السجن في المطعم، هناك سيدة تحمل طفلها أمامه، نظر الطفل بعينين فضوليتين لريتشر كأنه يتساءل كيف يتسنى لأحدهم أن يكون ضخم البنية بهذا الشكل، وخلفه وقفت سيدة مع أبنائها الثلاث، تخيل ريتشر أزواجهم وهم ينتظرون الزيارة في السجن وهز رأسه، تحرك الطابور وحجز

ريتشر منضدة وطفق ينتظر، أتى بيترسون بعدها مطأطئ الرأس وأخبره بأن كيم قد رفضت المجيء وتمتم وهو يجذب مقعدًا كي يجلس : هي لا تحب الزحام.

عبس وجه ريتشر، سيكون هناك الكثير من الصمت غير المريح إذًا، فلا توجد مواضيع مشتركة بينه وبين بيترسون ليتحدثوا بشأنها، جاءت النادلة لتكسر فترة الصمت غير المريح وطلب الاثنان الطعام، تساءل بيترسون بعد ذهابها : ما الذي كنت لتفعله لو كنت أنت المسئول عن قسم الشرطة؟

- أنت لست المسئول عن قسم الشرطي.

- لكني النائب.

- كنت سأدربهم وأتفاوض بشأن صفقة السجن لأعيد صياغة البنود..

وصل الطعام متأخرًا بعد فترة أخرى من الصمت، وأنهى الاثنان أطباقهم ثم خرجوا من المطعم، وقف ريتشر يرمق الحافلة الجديدة، رأى جاي نوكس والسيدة ذات الرسغ المكسور وباقي الركاب يعتلون متنها، ثم تحركت الحافلة، ربت بيترسون على ظهر ريتشر مبتسمًا وقال : كنت أعرف أنك لن ترحل..

- وسيلة خروج من مكان قضيت به عدة أيام ولم أصعد إليها، أنا أكسر عاداتي بشدة يا رجل من أجل بلدة بولتون.

ضحك بيترسون ورد مصححًا : من أجل جانيت سالتر.

***

باقٍ من الزمن أربع عشرة ساعة.

***

أعطى بلاتو المال للفتاة التي بصحبته ورحلت الأخيرة بينما استلقى على فراشهم رفع سماعته وأجرى مكالمة.

- لو كانت الشاهدة لا زالت حية فإن غضبي سيكون عاتيًا.

- أنا أعتذر بحق، ليس بعد، لكن كن واثقًا أن الأمر سينتهي قريبًا.

***

عاد ريتشر مع بيترسون للمخفر حيثما استقبلهما بيترسون، كان الأخير يجلس في مكتبه والغبطة بادية عليه، لقد كان قلقًا للغاية بشأن تهديد أصحاب الدراجات قاطني المخيم والآن راحة البال بادية على وجهه، قال لهم فور رؤيتهم : ربما يجب أن نذهب الآن لرؤية المخيمات والمنشأة العسكرية بعدما أصبح المكان خاليًا..

الفصل السادس والعشرون

استقلوا سيارة هولاند وركب ريتشر بالمقعد الخلفي ثم تحرك المأمور بالسيارة متجهًا للمخيمات وجواره جلس بيترسون، عادت الرياح لقوتها السابقة، وصفيرها المعتاد، وبدأت الثلوج في الانهمار، أبطأ هولاند من سرعة السيارة عند انحداره من الطريق العمومي للطريق الفرعي غير الممهد ذي الأشجار على جانبيه وغمغم هولاند : نحن نرى ما نريد رؤيته أليس كذلك؟ لقد جئت هنا عشرات المرات ولم يخطر ببالي أن هذا الطريق ممر طائرات قديم، رجل الجيش يرى الأشياء بشكل مختلف عن رجل الشرطة والمحاسب بدوره يرى الأمور بشكل مختلف عنا وهكذا.

وأضاف بيترسون : لقد جرفوا الثليج عن الطريق والتلال الثلجية كذلك، لقد أصبح أوسع مما كان عليه سابقًا..

- أمر مدهش أننا في ممر طائرات منذ الخمسينيات.

غمغم ريتشر : يمكنك قول هذا مرة ثانية (2).

صمتوا لثوانٍ ثم زاد هولاند من سرعته بالقدر الذي يسمح به الطريق المتعرج حتى وصلوا لنهاية الطريق حيث القاعدة الجوية والكبائن المنزلية وأرض المخيمات، خرجوا من السيارة مرتدين غطاء الرأس وقفازات اليد، الثلوج لا تزال تنهمر، الرياح تواصل عصفها، شعر ريتشر بطنين في أذنيه وأطلق سبة صامتة بشأن طقس جنوب داكوتا،

وسار معهم صوب بوابة القاعدة الجوية، كانت من المعدن وليس الحديد، لقد أخطأ في تقديرها سابقًا، مد ريتشر يده نحو القفل وابتسم ثم أزاحه جانبًا.

- القفل ليس سوى خدعة، يضعونه للإيحاء بأن المكان موصد، ونفيًا لحقيقة أنهم يستخدمونه.

- أين المفتاح إذًا؟

- هذا سؤال جيد.

- لا بد أنهم أخذوه معهم.

- كلا، لم يأخذوه معهم، لأن المكان أصبح يخص المالك الجديد، لقد ترك له المفتاح هنا في مكان ما..

- أين؟

- أسفل إناء الزهور.

- لا يوجد إناء زهور هنا.

- مجرد تعبير مجازي، البشر يتركون المفتاح الإضافي في مكان بسيط ولا يمكن نسيانه.. المفتاح سيكون معدنيًّا وضخمًا.

- ربما دفنوه في الثلوج.

- كلا، تلك ليست طريقة التعامل مع العملاء، لن يقول له أن يحفر في الثلج بحثًا عنه.. فهم لم يدفنوا المفتاح في الثليج.

بدءوا يبحثون في الأرجاء وهتف ريتشر : لا بد أنه سيكون في مكان يسهل وصفه، مثل ثالث شيء على اليسار أو شيء من هذا القبيل.

- أي نوع من الأشياء؟

- فراش.. كابينة.. إلخ.

- ألا يمكننا كسر الباب؟

- هذا باب معدني يخص قاعدة جوية صُمم ليصمد أمام هجوم عسكري.

- ما هو رقمك المحظوظ يا بيترسون؟

اعتدل الأخير ونفض معطفه من الثليج ثم أجاب : ثلاثة.

أردف ريتشر : إذًا ابدأ بالبحث في الكابينة رقم ثلاثة، من الجهة الأمامية.. تلك..

وأشار بيده..

اتجه بيترسون للكابينة ومد يده للمقبض، تبادل نظرة مع هولاند وريتشر من نوع : أتمنى ألا يكون موصدًا، انفتح الباب ودلف بيترسون يتبعه هولاند وريتشر، الكابينة كانت دافئة، مهجورة وفارغة تمامًا.

وقف ريتشر مستمتعًا بالدفء داخل الكابينة وحقيقة أنهم تركوا جهاز التدفئة يعمل بها وقال : اذهبوا وابحثوا

في الكبائن الأخرى، سأظل أنا هنا..

- أتمنى ألا يكونون على حال تلك الكابينة.

لكن أمنية بيترسون لم تتحقق، عاد مع هولاند لكابينة ريتشر مع فترة من الوقت وقال : لم نجد شيئًا.

***

الثالثة عصرًا، باقٍ من الزمن ثلاث عشرة ساعة.

***

واصلوا البحث وذهب ثلاثتهم للمطبخ، أملهم الأخير في إيجاد المفتاح، هناك إناء كبير وغلاية، موقد مفصول، فتح ريتشر الموقد وتفقد بداخله في حين أطل هولاند برأسه داخل الإناء، واتسعت عينا بيترسون وهو يتفحص الغلاية، واصلوا البحث بعدها والحقيقة أن المطبخ كان واسعًا، لكنهم لم يجدوا شيئًا، عادوا بعدها لحيثما بدءوا، ثم ذهبوا للكابينة الأولى وقال ريتشر : كانت هناك فتاة مراهقة بداخل تلك الكابينة قبل رحيلهم.

التفت هولاند صوبه وتساءل : فتاة؟

- راكبة دراجة بخارية في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها، هي الوحيدة التي كانت تجلس داخل كابينة على خلاف الباقي الذين كانوا يجرفون الثلوج ويحملون الصناديق..

- هل كانت مريضة؟

- بدت بخير بالنسبة لي.

- هل كانوا يحبسونها؟

- كلا، الباب لم يكن محكم الغلق.

- ربما أنها حارسة المفتاح، أوصفها.

- كانت فارعة القامة، نحيفة، طويلة الشعر، تشبه سكان جنوب داكوتا.

ثم فكر ريتشر للحظة وتابع : تجارة الماريجونا تجذب المراهقات المحليات الهاربات من بيوتهن، هل لديك إشارة هاتف هنا؟

- نعم.

- أريد استخدام الهاتف.

أشار بيترسون للسيارة فذهب ريتشر ورفع سماعة هاتف الدورية واتصل بالوحدة العسكرية وهو مقطب الجبين.

أتاه صوتها بعدما طلب الحديث معها.

- أين كنت؟ لقد حاولت الاتصال بك.

- هل أنت قلق عليّ يا أمي؟

- لا تتحاذق.

- أنا في القاعدة الجوية وأحاول الدخول، أبحث عن المفتاح لو أردتِ كل التفاصيل، الآن أريد معرفة أفضل

اثنى عشر مكانًا من وجهة نظرك يمكن إيجاد مفتاح مخبأ بهم..

- حذاء، جهاز تلفاز، شاحن هاتف، البطارية، غلاية، مشغل شرائط فيديو، جهاز راديو، كتاب، مقعد سيارة، إناء حساء، أو كوب مثلجات..

- لا يزال ينقص تخمين واحد، أنت لست في أفضل أحوالك.

- أعطني فرصة.

- كل تلك الأشياء - عدا الغلاية والإناء - غير متوفرين هنا.

- مرحاض؟

- فارغ.

- ستائر ممزقة؟

- لا يوجد.

- صناديق فارغة؟

- لا يوجد.

- إذًا أحرق المكان كله وابحث في الرماد، مفتاح قاعدة جوية سوف يصمد أمام النيران..

- لماذا كنت تحاولين الاتصال بي؟

- لأني توصلت للغرض والاستخدام لتلك القاعدة الجوية.

الفصل السابع والعشرون

اعتصر ريتشر سماعة الهاتف وجلس على حافة المرتبة حيثما تجلس المراهقة، وأمامه وقف بيترسون وهولاند ينظران له بترقب، ثم بدأ في حكاية ما قالته آماندا..

- توصلت للغرض والاستخدام لتلك القاعدة الجوية..

- كلي آذان صاغية.

- لقد تم بناء هذا المكان كملجأ للأيتام.

- تحت الأرض؟

- السيناريو المتبع منذ عشرين عامًا أو أكثر أن السوفيت يمتلكون صواريخ خارقة وفي حالة اندلاع الحرب فلسوف يقصفون المدن الكبيرة أولًا، كانت هناك وحدات كاملة مخصصة لإنقاذ الأطفال الذين سيفقدون آباءهم، لتأمين جيل المستقبل، دولة بلا جيل مستقبلي لهي دولة على حافة الانتهاء، وتلك الملاجئ صممت بشكل منيع لحماية الأطفال، نعم، تحت الأرض.. صاحب الفكرة كان من جنوب داكوتا ولذا بدءوا من هناك..

- المحليون هنا يتحدثون عن فضيحة.

- لا توجد فضائح في فكرة بناء ملجأ للأطفال.

- أنت لا تفهم ما أحاول قوله لك، الفكرة العامة كانت أنه بعد الحرب سيكون آلاف الأطفال غير بالغين، كل

البالغين سيلقون حتفهم، تلك أحد سيناريوهات نهاية العالم المتبعة في فترة الحرب الباردة، وتلك الملاجئ كانت مجهزة بكل شيء، مدرسة، باحة تعليم رياضي، غرف للأطباء النفسيين الذين سيقومون بتربية هؤلاء الأطفال..

- وبعدها هجروا المكان لمدة خمسين عامًا.

- هذا كل ما توصلت إليه.

- إذًا فالمكان خالٍ.

- نعم.

- خالٍ تمامًا؟

- ربما تركوا مؤنًا هناك لا أعلم الحقيقة بشأن تلك النقطة.

- ألا يمكنك معرفة محتوى تلك الأمتعة؟

- هي موجودة بملف ثانٍ وقد طلبته بالفعل، لكنه لم يصل بعدُ لكني لا أعتقد أن هناك شيئًا مثيرًا للاهتمام بها.

- هل بإمكانك تخمين أين سوف يخبئ مجموعة من راكبي الدراجات المفتاح؟

- لا أمتلك أدنى فكرة.

***

الرابعة عصرًا.. باقٍ من الزمن اثنتا عشرة ساعة.

***

انتهى ريتشر من حكاية المكالمة لهولاند وبيترسون..

بحثوا بعدها في الكابينة الأخيرة، والتي يصادف أنها الأولى، دون أن يجدوا المفتاح، غمغم بيترسون بتردد : ربما نذهب ونحضر صانع مفاتيح.

هز ريتشر رأسه نفيًا ورد : من الأفضل أن نأتي بلص مصارف، لا توجد وسيلة لفتح هذا الباب المنيع سوى إيجاد المفتاح، لقد كانت هناك ميزانية هائلة مخصصة لهذا المكان..

- من العجيب حقًّا أنهم لم يستخدموا هذا المكان وقرروا تركه بعد كل هذا الإنفاق.

- لقد انتهت الحرب الباردة وتغير القادة وكل شيء من بعد ذلك..

- كان بإمكانهم تخصيصه لساحة تدريب للمارينز أو شيء كهذا..

- ربما لم يفضلوا فكرة التدريب تحت الأرض.

- فكرتي عن المارينز أنهم ينامون في المكان الذي يقال لهم أن يناموا به دون تفكير..

تدخل هولاند وغمغم : ربما يكون الثلج هو المانع لتلك التدريبات.

كاد بيترسون أن يرد فأسرع ريتشر لإنهاء الجدال : أنا كنت في الجيش، وتدريبات المارينز تكون عديمة الجدوى خارج الوحدة العسكرية..

تبادلوا نظرة صامتة بعدها ثم خرجوا من المكان واتجهوا للسيارة، هولاند وبيترسون في الأمام وريتشر بالخلف، وفكر ريتشر بشأن لحظة بناء القاعدة الجوية وهم يتحركون فوق الطريق المتعرج، بينما الجميع حينذاك يتوقع هطول الصواريخ السوفيتية كالأمطار، بينما ذكرى هجوم بيرل هاربر لا تزال تدوي في عقولهم، لقد حكت أمه له عن صواريخ اليابانيين في بيرل هاربور، ودور أبيه بقوات المارينز في هذا الوقت، سألهم ريتشر : الأنباء الجوية تشير لاستمرار العاصفة غدًا أليس كذلك؟

- نعم تلك حقيقة.

- إذًا أحدهم قادم في القريب العاجل، لأنهم لم يجرفوا تلك الثلوج عن الطريق دون سبب.

***

المكان : وحدة «فورت هوود» العسكرية

هبطت طائرة خاصة صغيرة في الممر الخاص بالقاعدة العسكرية وانعكست أشعة الشمس على باب تلك الطائرة الذي انفتح ببطء وتدرج سلم النزول الخاص بها، أمام الطائرة وقف عدد من الجنود المسلحين، ومنها خرج اثنان من الضباط وبحوزتهما ثلاثة مساجين، ثالثهم كان الزوج

المتهم بقتل زوجته الذي تم القبض عليه في النزل القريب من موقف الحافلات، وفي مقدمة الجنود، بانتظار هذا السجين، وقفت امرأة في أواخر العشرينيات، رياضية الجسد وممشوقة القوام، لها شعر أسود طويل وبشرة خمرية اللون، ترتدي الزي الرسمي الخاص بالشرطة العسكرية، تحركت المرأة صوب المساجين الثلاثة وتحدثت للرجل المتهم بقتل زوجته، وبيع أسرار الجيش لجهات أجنبية، قالت له بصوت دافئ وباعث على الثقة : مساء الخير أيها النقيب، اسمي سوزان تيرنر، وأحمل رتبة رائد في الشرطة العسكرية.

نظر إليها دون رد، فأردفت : سوف أتحدث معك هنا لعدة دقائق قبل أن تواصل طائرتك رحلتها.

- أريد الحديث مع محامٍ.

- وسوف تفعل هذا، ستتحدث مع عدد لا بأس به من المحامين، كن واثقًا من هذا، عما قريب ستجد نفسك غارقًا وسط المحامين كأنك قد ذهبت لتناول شراب في النقابة الخاصة بهم.

- أنت لا تستطيعين الحديث معي دون محامٍ.

- هذا ليس صحيحًا، أنت لا تستطيع الحديث معي دون محاميك لكن بإمكاني قول ما أريد لك..

نظر إليها بصمت، تابعت سوزان تيرنر : لن أكذبك خبرًا، أنت رجل، بغض النظر عن عدد المحامين الذي ستتحدث

معهم، أنت قضية منتهية بالفعل، سواء كانت محاكمتك عسكرية أم مدنية، أنت رجل ميت بالفعل يجلس في طائرة، لقد انتهى أمرك تمامًا، عليك التفكير في وجبتك الأخيرة، الكل يطلب - ولا أعلم سببًا لهذا - قطعة لحم مشوية والبوظة، لا تهمني تلك النقطة أخيرًا فهي وجبتك الأخيرة، لكن لا يزال أمامك بعض الخيارات الأخيرة التي ستتاح لك الفرصة للقيام بهما، مثل هل ستكون محاكمتك مدنية أم لا؟ هل ستحاكم عسكريًّا بتهمة الخيانة العظمى؟ ويتم فصل أخيك من القوات البحرية وربما التحقيق بشأنه كذلك؟ هل سيقوم العامة بلصق لافتات تحمل عناوين مثل «خونة» على جدران بيت والديك، ويرمون نوافذهم بالحجارة، أم أنك ستحاكم مدنيًّا كرجل قتل زوجته بسبب مشاكل نفسية وينتهي الأمر برمته، هذا هو قرارك أنت وهو يتوقف كليًّا على مقدار ما ستخبرني به الآن بشأن من كنت تبيع لهم المعلومات الاستخبارية.

لم يرد الرجل..

تفقدته سوزان بعينيها وقالت : ربما أخوك الصغير كان يأخذك قدوة له، وربما يشنق نفسه بعدما يتم وصمه بالعار بسبب خيانة أخيه الأكبر وانتهاء مستقبله المهني هو كذلك..

- حسنًا.

- ماذا؟

- حسنًا سوف أتحدث معك..

- وسوف تخبرني بماذا؟

- كل شيء.

***

تراصت لوحات زيتية كلاسيكية على جدران فيلا بلاتو جوار شاشة التلفاز من طراز «سوني» والتي كانت تبث النشرة الجوية الخاصة بجنوب داكوتا، وتحدث مذيع الأنباء عن تزايد الثليج والصقيع بالمنطقة، انتقلت عينا بلاتو واستقرت على اللوح الزيتية، إحداها لـ«مونيه»، من المفترض على أي حال فهو يعلم أنها زائفة، لكن هذا لم يشكل فارقًا بالنسبة إليه، جوار تلك اللوحات استقر عدد هائل من المجوهرات الثمينة في صندوق موضوع على الكومود حتى لتعتقد أنك في قصة لألف ليلة وليلة وأن هذا هو كنز علي بابا، نظر بلاتو بإطراب للمجوهرات، واسترسل في أفكاره، هو لم يكن يؤمن بقيمة النقود، البورصة تتحكم في كل شيء، بالنسبة إليه فالذهب قد أثبت أنه الوسيلة الآمنة للثراء عبر التاريخ، وقد جنى بلاتو ثروته وتخلص من حياة الفقر التي كادت أن تفتك به، لكنه انتصر، وتغير عالمه، وهو لن يترك سيدة عجوزًا في جنوب داكوتا تهدد كل هذا..

***

وصلت السيارة بالرجال الثلاثة لمخفر شرطة بولتون، ذهب هولاند بالداخل لتفقد المستجدات من رجال الدورية في حين قال ريتشر لبيترسون : أريد استخدام سجل البيانات الخاص بالحاسوب.

- لماذا؟

- للتحري عن بلاتو طالما أنه الرجل الكبير في تلك العملية.

- سوف أبحث أنا.

جلس ريتشر جوار بيترسون وأصابع الأخير تنقر على لوحة المفاتيح، كلاهما ينظر للشاشة ثم قال بيترسون : لا شيء، بخلاف المعلومات عن الفيلسوف اليوناني بنفس الاسم، على أي حال كل ما أعرفه عن بلاتو أنه مكسيكي أو من أمريكا الجنوبية، وله صلات بالعمل في الدعارة، لا يوجد سجل اعتقال، أي معلومات حقيقية بشأنه ستكون موجودة في سجل الملفات الفيدرالية وأنا لا أملك قدرة على الولوج لملفاتهم و.. انتظر لحظة بإمكاننا الذهاب للسجن واستخدام الحاسوب هناك فهو موصل بالشبكة الفيدرالية.

- لنفعل هذا الآن.

خمس دقائق قبل حلول الخامسة مساء، باقٍ من الزمن إحدى عشرة ساعة

الفصل الثامن والعشرون

استغرقت الرحلة للسجن ثماني دقائق وخمسة أميال بالسيارة، ثم انعطف بيترسون جانبًا وشرد ريتشر بكل ما يحدث محاولًا ترتيب أفكاره، قبل أن ينعكس المبنى الكبير على عينيه ويقول بيترسون : ها هو ذا، الدجاجة التي تدر ذهبًا على بولتون..

- مبهر!

قالها ريتشر وهو ينظر للمبنى الكبير المحاط بسياج كبير وكهربائي، دخل الاثنان بعدما تفقد الحارس هوية بيترسون، وترجلوا من السيارة، المبنى كان مفعمًا برائحة القهوة، وتذكر ريتشر المرأة وأولادها الثلاث في المطعم، زوجها يجلس ليمضي أعوامًا من حياته في زنزانة هنا، لعله يقف بدوره منتظرًا طبق طعام في باحة السجن، سار ريتشر خلف بيترسون لمكتب الضابط وتبادل بيترسون حديثًا مع الأخير ثم ذهبا لغرفة بالطابق الثالث وجلس كلاهما أمام حاسب آلي، وبدأت أصابع بيترسون في النقر والبحث مرة أخرى، ثم قال : سوف يستغرق الأمر بعض الوقت فأنا غير معتاد على البحث في السجلات الفيدرالية..

جلس ريتشر جواره في صمت، في النهاية هتف بيترسون محنقًا : نفس النتائج، جنوب أمريكا، لا هوية ولا سجل إجرامي، من المفترض أنه في الأربعينيات من العمر

ويقطن بالمكسيك.. وتلوح بعض الشبهات حوله بالعمل في الدعارة.. وهناك أسماء للمدن التي يفترض أنه أدار بها شبكات تلك المهنة، كما أنه يمتلك طائرة خاصة.

- الكثير من الأثرياء لديهم طائرات خاصة.

- إنها من طراز بوينج 737، طائرة كلاسيكية تم ابتياعها من مطار مكسيكي موشك على الإفلاس.

نظروا بعدها لصورة لبلاتو وغمغم ريتشر: إنه صغير الحجم للغاية، يكاد يكون قزمًا.

- هناك إشاعة عن شخص ما قال لبلاتو إنه قزم، وقد استيقظ هذا الرجل في صباح اليوم التالي ليجد نفسه في مستشفى بعدما تم قطع ساقيه وذراعيه.

***

عادت سوزان تيرنر لمكتبها، أوقفت سيارة العمل أمام بناية الوحدة العسكرية وترجلت منها حاملة قدحًا من القهوة، رشفت منه وضيقت عينيها ثم رفعت رأسها ونظرت للسماء متنهدة، نفضت جسدها للتخلص من المشاعر السلبية التي تراودها بعد لقاء المتهم الذي سيتم إعدامه عما قريب ودلفت للمبنى، أدارت المقبض المعدني لمكتبها ثم ارتمت على مقعدها ذي الانبعاج إياه في إرهاق، لم تكن هناك مكالمات واردة ولا رسائل مسجلة، ريتشر لم يتصل بها، تراجعت سوزان في مقعدها مفكرة في الأخير، سجله العسكري كان حافلًا بحق وقد حاز على

النيشان البرونزي، جرائم كثيرة استطاع حلها، مهمات محلية وخارجية، رجل يحيا اليوم بيومه ولا يوجد لديه ما يخسره، الحقيقة أن ملف جاك ريتشر كان يرتمي أمامها على مكتبها في تلك اللحظة، وقد حفظته عن ظهر قلب، جاك ريتشر.. ولد في التاسع والعشرين من أكتوبر لأسرة عسكرية، والده كان في قوات المارينز، والدته امرأة فرنسية، تخرج من أكاديمية «ويست بوينت» وقد قضى ثلاثة عشر عامًا في الخدمة العسكرية، كان شرطيًّا عسكريًّا منذ بداية حياته المهنية، وقد حاز على عدد مبهر من الأوسمة والنياشين العسكرية، البرونزي والفضي والذهبي وميدالية الشرف ونيشان الشجاعة، ترقى وأصبح قائد الوحدة العسكرية لفترة وجيزة، ثم صدرت منه مشاكل بخصوص القيادة وتمت إعادته لرتبة رائد، وقد أصيب في بيروت بشظية قنبلة، وقضى وقتًا في مستشفى هناك، أمضى عمليات عسكرية خارجية في أوروبا الشرقية كذلك، خبير أسلحة من الطراز الأول، وممارس لفنون قتالية عدة، يمتلك عقلًا حادًّا وشديد الذكاء عندما يتعلق الأمر بالاستنباط والتحليل المنطقي، صورته بالملف كانت واضحة، عينان زرقاوان وشعر قصير، هناك ندبتان في وجهه الأولى جوار عينيه والأخرى أعلى شفته، عريض المنكبين وغليظ العنق، فارع القامة وطويل الذراعين، وتلوح ابتسامة خافتة ساخرة على شفتيه إبان التقاط الصورة، تلك الابتسامة كانت تقول الكثير عن شخصيته، غمغمت سوزان وعيناها ترتكزان على الملف : جاك ريتشر..

بدا لها كشخص مثير للاهتمام، ومفيد كصديق وبالتأكيد خطير كعدو، اتصلت برجلها في الطيران الجوي فأخبرها أنه لا يزال لا يوجد جديد ثم سألها : هل تحاولين إبهار أحد؟

- كلا.

قالتها وأنهت المكالمة.. ونظرت للملف مرة أخرى، كانت هناك فقرات محذوفة من الملف تحت تصنيف : سري للغاية.

لقد اعتادت هذا بملفات الجيش، خصوصًا مع حقيقة أن أباه كان في المارينز..

لكن فضولها تمكن منها في النهاية فأرسلت طلبًا لقسم شئون العاملين محتواه أنها تريد الاطلاع على الفقرات المحذوفة والسرية للغاية الخاصة بجاك ريتشر..

***

في طريق عودتهم من السجن، وقد كانت إجراءات الخروج مثل الدخول، قال بيترسون : ما هو رأيك في القوة الأمنية للسجن؟

- محكمة وجيدة، لكنهم سيتراخون بعد مرور عام أو اثنين، إنها الطبيعة البشرية.

- متشائم!

- بل واقعي.

وابتسم بيترسون.

***

أوصل بيترسون، ريتشر عند وجهته الجديدة والمعتادة ألا وهي منزل جانيت، حيّا ريتشر الشرطية أمام الباب ودلف للمنزل، استقبلته جانيت وهي تجلس بمقعدها في المكتبة تقرأ كتابًا وقالت بحماس : أنا أقرأ شيرلوك هولمز.

- قصة كلب آل باسكرفيل كما أرى، أم أنها قصة الكلب الذي لم ينبح ليلًا، ومن عدم نباحه أدرك هولمز أن الجريمة كانت مخططًا لها وأحدهم دس السم للكلب.

- أنت خبير بقصص هولمز كما أرى..

- أتعلمين؟ لقد فكرت في تلك النقطة، ليس قصص هولمز، ولكن حقيقة وجود كلب جارتك، ربما نباحه ليلًا قد ينبهنا لشيء، لكن صمته ليس بدلالة على شيء..

هزت جانيت رأسها ثم وقفت وسارت للأمام صوب الحديقة، تبعها ريتشر فقالت بصوت هامس : هل صحيح أن عصابة راكبي الدراجات قد رحلوا؟

- نعم.

- هل سيعودون أدراجهم؟

- لا أعتقد.

- أنا آمنة إذًا.

- ليس حقًّا.

- لماذا سمح لهم المأمور هولاند بالرحيل؟

- اختار أكثر الحلول عقلانية، وقواعد بلدة بولتون كذلك.

- إذًا فشهادتي لن تسبب سوى في سجن رجل واحد.

- نعم.

- ولكن من المفترض لشهادتي أن توقف تجارة المخدرات في جنوب داكوتا.

- تلك مشكلة بلدة أخرى، أيًّا كان وجهتهم.

- هذا ليس عدلًا للبلدة الأخرى، ليس صحيحًا.

- إنها طبيعة الحياة.

- أقصد أنه ليس صحيحًا أن أعرِّض حياتي للخطر الآن مقابل سجن رجل واحد، لقد رحل تجار المخدرات.

- هل تريدين سحب شهادتك؟

- نعم، أعتقد أني أريد فعل هذا.

السادسة مساء، باقٍ من الزمن عشر ساعات..

الفصل التاسع والعشرون

جلست جانيت قبالة النافذة وانعكست تجاعيد وجهها على الزجاج لتختلط مع الثلج المنهمر بالداخل، بدت كأنها لوحة تحمل عنوان «انعكاس العجوز الشاردة على سطح المرآة الثلجية» وسندت رأسها بعد ذلك للأمام، في حين رفع ريتشر قدح قهوته ورشف منه، ونظر بدوره لانعكاس وجهه على سطح القهوة السوداء ثم رفع عينيه للخارج حيث لا شيء سوى الثلوج، تخيل رجلًا ببندقية يربض هناك، يراقبهم، ينتظر، غمغم وهو يرشف مرة أخرى من قدح القهوة : أعتقد أن الأوان قد فات على فكرة سحبك لشهادتك.

- لماذا؟

- لأن البلدة المعزولة والاتصالات ليست يسيرة في تلك العاصفة، ومكتب مكافحة المخدرات لم يعد يرد بتلك السرعة، سيستغرق الأمر نصف يوم من هولاند كي يخبرهم، ويومًا آخر كي يصل الخبر للمدعي العالم، وربما يومين أو ثلاثة لينتشر الخبر، والأشرار في عجالة من أمرهم ولا أعتقد أنهم سوف ينتظرون ثلاثة أيام لكي يتخذوا خطوتهم.

- إذًا فأنا متورطة ولا يوجد مخرج أمامي.

- ستكونين بخير، عليك بالصمود لفترة فحسب.

- لن أكون بخير بدونك، لو لم تكن موجودًا البارحة خلال الشغب في السجن فبالتأكيد كان سيصيبني الأذى، وأنت لن تبقى هنا للأبد على أي حال..

- لن تكون هناك حاجة ماسة لي كي أبقى هنا للأبد، هؤلاء..

صمت ريتشر وبحث عن الكلمة المناسبة ثم أردف مكررًا اختياره السابق : هؤلاء الأشرار لن ينتظروا للأبد...

تنهدت جانيت ونظرت للسقف كأنها تنتظر حدوث شيء ثم نفضت كل تلك الأفكار عن رأسها وذهبت لتعد العشاء، مضيفة أن إعداد الطعام يساعدها على الاسترخاء، تفقد ريتشر المنزل وسط الهدوء الذي عم المكان وبدا له أن كل شيء آمن مع حلول الليل ثم رن الهاتف، المتصل كان بيترسون وأعطته جانيت السماعة..

- هناك شيء يجب أن تراه يا ريتشر.

- أين؟

- في المخفر، على الحاسوب.

- لن أستطيع الرحيل من هنا جانيت بحاجة إلي.

- لقد قلت إن الشغب لن يندلع مرة أخرى.

كرر ريتشر نفس الإجابة السابقة التي أعطاها لهولاند، ولكن لبيترسون تلك المرة.

- هذا كان مجرد تخمين.

- لو حدث شيء ما سوف أعيدك لبيت جانيت قبل ذهاب قوات الشرطة للسجن.

- ربما يحدث شيء وأنا في طريقي إليك.

- سوف أنتظرك وأقلك بسيارتي لبيتها، أعدك بهذا..

- حسنًا، ولكن هذا سيضعك في متاعب قانونية.

- سوف أتصرف معهم.

- حسنًا، سوف آتي.

- سأمرّ لأقلّك بالسيارة.

أتى بعدها بيترسون بعشر دقائق، وأخبر جانيت أنه سوف يستعير ريتشر لبرهة من الوقت ووعدها بأنه لن يتأخر إزاء تعبير وجهها، وذهبوا للمخفر بعدها، جلس الاثنان أمام الحاسب وقال ريتشر : أرني.

انحنى بيترسون وضغط «تشغيل»، وهو يتمتم : شريط مراقبة من السجن، نحن لم نلغ المراقبة من غرف الزيارة ولكن المحامين لا يعرفون هذا، هل تعرف السبب؟

- كلا.

- إهمال وتقصير من جانبنا قد يعرضنا للمساءلة القانونية.

وتلك كانت طريقته في أن يقول لريتشر بأن يُبقي الأمر في حيز الكتمان، وعلى الشاشة أمامهم ظهر المحامي

القتيل وهو يجلس مع السجين البدين، المحامي كان متوترًا، ومتأهب الجسد، يجلس أمام السجين وكلاهما بمنتصف الغرفة، تحملهم مقاعد مدنية، لغة جسد المحامي كانت توحي بأنه يتآمر وهو خائف بشأن شيء ما، قال بيترسون : والآن أصغ جيدًا..

ومد إصبعه ليزيد من درجة الصوت للحد الأقصى، استمع ريتشر بحرص، بينما همس المحامي بشيء ما لم تلتقطه أذناه، أعاد بيترسون تشغيل المقطع وأوصل جهاز تكبير صوت بالحاسب وانحنى ريتشر للأمام، وسمع المحامي يهمس تلك المرة : أنت تعلم أن الإغريق القدماء أكدوا أهمية الانتظار، الانتظار لست ساعات كاملة قادرة على حل كل المشاكل، كما كانوا يقولون.. علق بيترسون : الإغريق ها؟ مثل الفيلسوف الإغريقي بلاتو، المحامي يتحدث بالشفرة مشيرًا للرجل الكبير، ويقوم بإيصال تعليماته للوغد الآخر بتلك الطريقة..

أومأ ريتشر برأسه موافقًا، ثم سأل : متى كان هذا؟

- لا أعلم الوقت على وجه التحديد، تلك وسيلة مراقبة غير شرعية ولا تعطنا الكثير من الامتيازات، لكن لو افترضنا مرور ست ساعات من موعد الزيارة اليومية، وحسبنا أيام العاصفة، فأعتقد، وتلك ليست بحسبة منطقية، إنه قد مر أربع وباقٍ اثنتان..

رفع ريتشر حاجبيه في عدم فهم فلوح بيترسون بيديه

مضيفًا : لا تسأل لقد جربت عشر وسائل حساب مختلفة لمسألة الست ساعات..

حدق ريتشر في الشاشة وقال : أعد تشغيله مرة أخرى..

استمع ريتشر للهمس ثم قال : الطريقة التي يقول بها «ست ساعات» توحي إليه أنه يقصد ست ساعات بعد حدوث شيء ما منتظر.. هذا ما أعتقده..

- ست ساعات بعد حدوث شيء ما؟ مثل الشغب في السجن؟

- لا أعلم، لكن وفقًا لتقديرك فهناك شيء ما سيحدث في الثامنة مساء.. ربما حالة هرب، لا أعتقد أنهم قادرون على تدبير حالة شغب ثانية بتلك السرعة..

اعتلى الوجوم وجه بيترسون وهو يقول : ربما هي حالة هرب، ربما سيعد الحراس في السجن عدد المساجين ليجدوا أحدهم ناقصًا.. حسنًا سوف أعيدك لبيت جانيت الآن.

***

وصلوا لمنزل جانيت وكان الأخيرة بانتظارهم، والعشاء قد تم تحضيره منذ عشر دقائق، معكرون «إسباجيتي» وصوص الجبنة، عرضت جانيت طبقًا على بيترسون فرفضه في أدب وابتسامة لطيفة على شفتيه في حين جلس ريتشر ليأكل معها، قال له بيترسون بعدما انتهى : سوف

أبقى هنا لحين انطلاق نفير إنذار السجن.

- هذا جيد.

- وجود اثنين منا هنا أفضل من وجود واحد.

- هذا صحيح.

- ربما على تحذير إدارة السجن.

- لن يجدي هذا نفعًا، هم في حالة تأهب بالفعل بعد اندلاع حالة الشغب..

ثم نظر كلاهما للخارج وقال بيترسون : هل تعتقد أنه سيهاجمنا من الباب الأمامي؟

غمغم ريتشر : هناك مائة احتمال للقتل الآن.

***

توقفت السيارات السوداء أمام فيلا بلاتو ووقف دستة من الرجال المسلحين، وجوههم تحمل تعابير قاسية وخالية من الإنسانية لرجال ولدوا لحياة غليظة، حياة الغاب حيث البقاء فيها للأقوى، جميعهم مفتولو العضلات وفارعو القامة، بإمكانك تمييز القسوة البادية في أعينهم، هؤلاء رجال لا يبالون بشيء، وجميعهم يحملون رخصة ذاتية للقتل، وخبرة في الأمر كذلك، لكن بإمكانك أيضًا نظرة خوف من بلاتو في الوقت ذاته، رغم أن الخوف ليس بشعور معتاد لهؤلاء الرجال، خرج بلاتو من الفيلا فتأهبوا وهم ينظرون له في انتظار أوامره..

***

مطبخ جانيت سالتر كان معدًّا لاستقبال سبعة أفراد، وقد تناوب عليه الشرطيتان مع بيترسون وريتشر، وبعدما انتهى الجميع من تناول الطعام - عدا بيترسون - عادت الشرطيتان لموقعهما، كلاهما من جنوب داكوتا، نشأوا هنا وترعرعوا في حياة مسالمة وهادئة، ربما في فترة مراهقتهن حلمت إحداهن بالذهاب لمدينة كبيرة حيث المغامرة وفرص الحياة لكن تلك الأفكار قد ولّت، ووجدوا سعادة هانئة في تلك الحياة الهادئة، قبل قدوم راكبي الدراجات لأرض المخيمات وتوسع تجارة بلاتو في المنطقة، تفقد ريتشر البيت بعد وهلة ثم ذهب ليجلس مع بيترسون، ينتظران حدوث شيء ما، بينما ذهبت جانيت للمكتبة وجلست لتقرأ..

السابعة مساء، باقٍ من الزمن تسع ساعات.

الفصل الثلاثون

ظل بيترسون يتفقد ساعته كل خمس دقائق، وجسده كله متأهب، التوتر يسري في جسده مع اقتراب الثامنة مساء، وتحسس ريتشر مسدسه، سأله بيترسون : أنت مسلح؟

- نعم، وكذلك جانيت.

هز بيترسون رأسه ثم عاد لتفقد ساعته، وشعر ريتشر بوزن المسدس في غمده، عاد بيترسون للنظر من النافذة فقال ريتشر : هل كيم لديها إخوة أو اقارب في البلدة؟

- كلا، لماذا؟

- تلك الفتاة التي رأيتها في الكابينة بدت مألوفة للغاية، لقد ذكرتني بكيم.. افترضت أن هذا هو الشكل المحلي لنساء جنوب داكوتا..

- لا يوجد نمط محدد لشكل النساء في جنوب داكوتا...

- بالنسبة إليّ يوجد هذا النمط، وللرجال كذلك، أنت والمأمور هولاند تبدوان متشابهين للغاية.

- إنه يكبرني بعقود.

- لو تجاهلنا نقطة العمر.

- على أي حال تلك الفتاة في الكابينة بدت مألوفة للغاية، وأنا لم أرَ أي امرأة قبلها عدا كيم.

- والمسنات على متن الحافلة كذلك.

- لا يوجد شبه بينهم وبين الفتاة في الكابينة.

- وماذا عن النادلة في المطعم؟

هز ريتشر رأسه نفيًا، فأضاف بيترسون : لا يوجد إخوة لكيم ولا أقارب.. كل أولاد عمها مثلًا صبية.

- حسنًا.

- ربما أنك رأيت رجلًا قريبًا لفتاة الكابينة، الفتيات تشبه الأولاد أحيانًا.. لويل لديه أخت تشبهه، أنت تذكر لويل أليس كذلك؟

- كان الله في عونها.

- اوصف فتاة الكابينة تلك لي مرة أخرى.

- طويلة القامة والشعر.

- تلك الأوصاف تنطبق علينا جميعًا هنا.

- هل رأيت؟ نمط شكل سكان جنوب داكوتا..

- لكن لا يزال بالإمكان التفريق بيننا.

- بقليل من التركيز والجهد.

ابتسم بيترسون ثم عاد للنظر من النافذة وانضم إليه ريتشر..

السابعة وعشرون دقيقة، كل شيء هادئ حتى الآن..

***

رفعت سوزان تيرنر هاتفها واتصلت برجلها في الطيران الجوي، سألته : هل توصلت لشيء؟ ما الذي يوجد تحت الأرض هناك؟

أخبرها بالإجابة فقالت : هذا أمر غامض وغير واضح التفاصيل، ألا توجد معلومات أوضح؟

- أنت أخبرتني أنك تريدين المعرفة لأسباب خاصة وغير رسمية.

- هذا صحيح.

- أنت تبدين الآن وكأن مستقبلك المهني يتوقف على الأمر.

- أنا أحاول مساعدة أحدهم وهذا الغموض لن يفيده.

- من تحاولين المساعدة؟

توقفت سوزان لوهلة في تردد ثم قالت : صديق.

- ما مدى قرابتكم؟ هل يستحق العناء؟

- لا أعلم بعد، لكني أعتقد أنه يستحق المزيد من التقصي.

- حسنًا، سوف أفعل هذا.

***

سمع ريتشر جانيت تتحرك من المكتبة في السابعة والنصف، وإحدى الشرطيات تشكرها على العشاء وتقول لها كم كان رائعًا، بينما جانيت ترد في أدب، أراد ريتشر تخبئتها في القبو لكنه قرر الانتظار لحين انطلاق النفير، سيكون هناك وقت كافٍ هذا في الثامنة، هنا أتت جانيت إليهم وقالت لبيترسون : ما الذي سيحدث؟

- ما الذي يجعلك تعتقدين أن شيئًا سيحدث؟

- أنت هنا، تنتظر مع سيد ريتشر كأن هناك كارثة موشكة على الوقوع.. في المعتاد كنت لتكون مع زوجتك وأبنائك الآن، كما أن سيد ريتشر صامت بشكل أكثر من المعتاد..

- لا شيء سيحدث..

لكن ريتشر قال : هناك عد روتيني لعدد المساجين في الثامنة مساء بالسجن ونحن نعتقد أن أحدهم هرب..

صمتت جانيت فقال بيترسون : أنا لن أذهب، سوف أظل هنا.

- أنا مقدرة لاهتمامك لكني سوف أجعلك تذهب، أنت مأمور البلدة القادم بعد سيد هولاند ولن أجعلك تهدد مستقبلك في مساءلة قانونية بسببي.

- هذا ليس منطقيًّا، سوف أبقى و...

قاطعته : كلا، هذا منطق وقرار حكيم..

- لن أذهب.

- بل سوف تذهب، من أجل عائلتك وسكان البلدة.

***

أنهى رجل قاعدة الطيران الجوي المكالمة مع سوزان تيرنر وتنهد ثم ذهب لغرفة السجلات وطلب معلومات إضافية من الموظف هناك الذي هز كتفيه وقال : هذا كل ما بحوزتي.

- معلومات غامضة للغاية وغير واضحة المعالم..

- هذا كل ما لديّ.

- ما مدى مشقة البحث الذي قمت به؟

- صدقني لو ظللت أحدق بورقة فارغة فهذا لن يجعل المعلومات تظهر بسحر تلقائي عليها.

- ما هو مصدر الملف؟

- أنت تريدني تعقب مصدر ملف منذ خمسين عامًا؟

- نعم.

- لا يوجد أمل في هذا، أنا آسف، هذا تاريخ قديم، الأمر أشبه بمحاولة سؤال رجل نيانترتال أو رجل الكهف عما حدث لهم..

***

الساعة : الثامنة مساء

المكان : بيت جانيت سالتر

عم الصمت في أنحاء البيت، الشرطيتان في مواقعهما، والشرطي الثالث يتولى نوبة الحراسة أمام البيت، جانيت تجلس صامتة وبيترسون يبتسم لها مطمئناً رغم قلقه، ريتشر يجلس مغمض العينين ويستمع لكل شيء يدور بالخارج، منتظر صوت الإنذار..

باقٍ من الزمن تسع ساعات..

الفصل الواحد والثلاثون

تحركت عقارب الساعة داخل رأس ريتشر ببطء، وبقي العالم الخارجي صامتًا على حاله، لا يوجد شيء للاستماع إليه سوى عويل الرياح، وحفيف أوراق الأشجار، دقيقة مرت على الثامنة مساء، لم يحدث شيء..

دقيقتان على مرور الثامنة، لم يحدث شيء..

عقرب الساعة يتحرك، تيك، تاك، تيك، تاك..

لم يقتحم أحد الباب الأمامي، لم ينطلق النفير، لا شيء حتى الآن..

تحركت عينا بيترسون لتستقر على ريتشر الذي هز كتفيه في صمت، رفعت جانيت رأسها ونظرت من النافذة، لا توجد حركة في الشارع، تحركت الشرطية في الممر داخل البيت، ثم وقفت في نهاية الردهة، ثلاث دقائق بعد مرور الثامنة، لا شيء حتى الآن، أربع دقائق، خمس.. ست.. سبع..

في الثامنة وعشرين دقيقة زال عنهم القلق واسترخوا في مجالسهم، غمغم بيترسون : أنا واثق بعدم وجود مجال لكي يؤخروا عملية إحصاء العدد في السجن، ربما كان المحامي يتفوه بالهراء جزافًا..

ثم أردف : كل شيء بخير.

- أنت متأكد؟

- نعم.

- إذًا أثبت كونك واثقًا مما تقول وضع نقودك حيثما يوجد فمك (3)

- كيف؟

- اذهب لبيتك.

فكر بيترسون لوهلة ثم هز رأسه ورحل بعدما ألقى بالتحية على جانيت سالتر التي وقفت تقلب بين كتبها بعصبية، ثم اختارت كتابًا وجلست تقرؤه لتهدئ نفسها، وذهب ريتشر للمطبخ ليعد لنفسه القهوة، أراد استئذان جانيت أولًا ثم قرر عدم مقاطعة قراءتها وبدأ في صب المياه في الغلاية بالطريقة التي تعلمها من والدته وهو طفل، وعند حلول الثامنة والنصف رن الهاتف، المتصلة كانت سوزان تيرنر، أو صاحبة الصوت الجذاب من الوحدة العسكرية كما يعرفها ريتشر في اللحظة الحالية، كان يفضل هذا الوصف بدلًا من اسمها المستعار «آماندا»..

قالت له : أربعون طنًّا من فائض الحديد تم تخزينه في تلك القاعدة بعد الحرب العالمية الثانية!

- هذا أمر غامض وغير واضح!

- هكذا فكرت بالضبط، لكن هذا كل ما استطاع الرجل في الطيران الجوي من التوصل إليه..

- ما هو مقدار الفائض من الحرب العالمية على أي

حال؟

- هل تمزح؟ لقد غيرت القنبلة النووية من كل شيء وأصبح لدينا فائض من آلاف الطائرات العسكرية والأزياء المعدة لشتاء سيبيريا.

- أتمنى لو كان معي زي كهذا الآن!

- كف عن النواح بشأن الطقس، لقد جربت طريقتك مع المتهم بفورت هوود ونجحت.

- هذا جيد.

- أنا مدينة لك.

- نحن متعادلان الآن.

- تقصد أنها أول قضية رسمية أشارك بها.

- حقًّا؟ لم أكن لأخمن هذا أنت تبدين وكأنك قائدة الوحدة العسكرية من يوم ولادتك.

- لا أعلم إن كان هذا إطراء أم لا.

- عليك بالخروج والاحتفال.

- لقد أرسلت الفريق ليحتفل.

- تلك خطوة رائعة، أعطهم الاستحقاق المناسب ولسوف يتولد الدافع تلقائيًّا بداخلهم، لكنهم سوف يقدرونك أكثر الآن لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنك أنت من حل القضية.

- هل كان هذا أسلوبك في إدارة الفريق؟

- دومًا.

- ملفك لا يقول هذا.

- هل لا زلت تتفحصين هذا الشيء القديم؟

- الحياة صعبة يا صاح!

- بم دعوتني للتو؟

- محاولة لتوطيد العلاقة وكي أبدو - حسب وصفك - كشقراء من كاليفورنيا..

- هل أنت شقراء من كاليفورنيا؟

- خمن مرة أخرى.

- سوداء الشعر وخمرية اللون، عينان لونهما بني..

- أخيرًا أنت محق.

- شعر طويل أليس كذلك؟

- أطول من اللازم.

- رائع، لا تحاولي القدوم لجنوب داكوتا للحصول على حمام شمس.

ضحكت هي ثم قالت : سأفضل دومًا الشاطئ.

- وأنا كذلك، من أين نشأت؟

- مونتانا، بلدة صغيرة هناك لم تسمع عنها من قبل على الأرجح.

- لقد ذهبت لمونتانا من قبل، ما هو اسم البلدة؟

- «هنجري هورس» بالقرب من «وايت فيش».

- لم أسمع عنها من قبل.

- قلت لك.

- هل تحبين الحياة العسكرية؟

- هل أحببتها أنت؟

- ما الذي يقوله ملفي؟

- لا أعلم، إنك لم تحبها في الأغلب، ولكن رغم هذا أنت قضيت ثلاثة عشر عامًا بها.

- لقد كنت أحاول إصلاح الأشياء الخاطئة بها.

- ثم اكتشفت أن هذا لا يندرج تحت نطاق صلاحياتك.. ما الذي تفعله بجنوب داكوتا يا ريتشر؟

- كنت بحافلة تعرضت لحادثة هناك وعلقت في بلدة بولتون.

- الحياة مقامرة خصوصًا عندما تركب الحافلة.

- سخريتك تتزايد بقوة، كنت أتمنى أن تتعطل الحافلة بمكان دافئ.

- وهل نتصرف كولد جيد في البلدة؟

- لماذا سأفعل العكس؟

- لأن أحدهم طلب تفقد أمرك والاطلاع على سجلك العسكري في البلدة، المأمور على ما أعتقد، توماس هولاند.

- لقد أراد معرفة إن كنت أهلًا للثقة أم لا، وإن كنت مؤهلًا أيضًا لمساعدته في معرفة سر المنشأة العسكرية.

فترة من الصمت سادت قبل أن يسألها : ما هو اسمك؟

- هل يهم هذا؟

- بإمكاني المعرفة لو بحثت كما تعلمين، هناك شبكة إلكترونية الآن وملفات للموظفين.

- هل تمزح؟ ملفات إلكترونية لضباط الشرطة العسكرية؟ لن يوجد شيء كهذا أبدًا.

- إذًا ما هو اسمك؟

- سوزان.

- اسم جميل.

- أنا أعتقد هذا أيضًا.

فترة أخرى من الصمت، ثم قالت : سوف أذهب الآن.

- هلا طلبت من رجلك محاولة التفقد مرة أخرى؟

- بالتأكيد.

أنهيا المكالمة بعدها وعاد ريتشر للمطبخ ثم أعد لنفسه كوبًا آخر من القهوة، واستمع للصمت في البيت، هذا النوع من الصمت المطبق الذي اعتاده ريتشر طيلة حياته، حمل كوب القهوة ونظر بحب للبخار المتصاعد منه وسط الجو البارد ثم ذهب حيثما تجلس جانيت تقرأ كتابها، رفعت رأسها ونظرت إليه قائلة : أنت تشرب قهوة.

- أتمنى ألا تمانعي هذا.

- لكنها ستبقيك مستيقظًا طيلة الليل.

- ثم تأتي لحظة النوم بعدها.

- كيف كانت؟

- من؟

- المرأة من فيرجينيا.

ابتسم ريتشر ورد : كانت رائعة.

وقف أمام الباب الزجاجي للحديقة ورشف من القهوة قائلًا : كل شيء هادئ بالخارج..

- نحن في مأمن الآن نسبيًّا بما أنه لا يوجد حالات هرب في السجن.

- توقع الأسوأ وتمنى الأفضل.

- هل هذا شعارك؟

- واحد من ضمن مجموعة.

- وما هي تلك المجموعة؟

- لا تنسَ أبدًا، لا تسامح، جرب مرة أخرى وافعلها بشكل صحيح، أنت تجني ثمار أفعالك، الخطط كلها تذهب للجحيم عندما تنطلق الرصاصة الأولى، لا يوجد شيء اسمه إجازة من هويتك الحقيقية، الحماية حق مكفول للجميع..

- أنت قاسٍ بحق نفسك.

- الحياة قاسية.

- أتمنى ألا ترحل من هنا.

قالتها بعد تردد وبابتسامة ثم أردفت : وأتمنى ألا تضطر لقضاء باقي حياتك بتلك الشعارات القاسية.

ثم رفعت رأسها لأعلى وقالت بصوت خافت : أنا خائفة من الموت.

نظر إليها ريتشر بتعاطف وقال : أحيانًا أقول لنفسي إني لست خائفًا من الموت، هو الذي يخاف مني..

- تبدو وكأنك تحاول إقناع نفسك بهذا..

- إذًا هل أنت خائف من الموت؟

- كلنا سنذهب يومًا ما، الأمر يتوقف على طريقة الذهاب.

تمعنته جانيت بالنظر وقالت مغيرة الموضوع: لقد قابلت خليفتي في العمل بجامعة «يال» وقد كان هذا لقاءً مثيرًا

للاهتمام، مثل حديثك مع المرأة من فيرجينيا..

- لم أفكر بها بتلك الطريقة من قبل، خليفتي في العمل..

- هل هي أفضل منك؟

- في الأغلب.

- هذا ما شعرت أنا به في جامعة «يال» وقد أحبطني هذا قليلًا ثم اكتشفت أن هناك جانبًا مضيئًا للأمر وهو أني قد أديت وظيفتي على أكمل وجه، والآن تلك الوظيفة تتطور كذلك.. والعالم يمضي قدمًا للأمام وكل هذا...

- كم من الوقت قد مضى على تقاعدك؟

- عشرة أعوام.

- إذًا أنت عدت لبولتون قبل أن يشيدوا السجن.

- قبل ذلك بأعوام، كانت بلدة مختلفة تمامًا في هذا الوقت، لكن مرحلة التغيير لم تأتِ كليًّا بعدُ، نحن لا نزال بالمرحلة الانتقالية، التغيير الحقيقي سوف يحل عندما نعتاد التبدل الاقتصادي الجديد هنا.. وأننا أصبحنا بلدة السجن..

- احكِ لي كيف كانت الأمور قبل بناء السجن..

قالها مفكرًا «جدته التي لم يحظَ بها من قبل»..

- كان التعداد السكاني أقل والأمور أكثر رقة ولطفًا، المتاجر أقل، المأمور هولاند رجل يافع وعائلته لا تزال

معه، مثل حال أندرو بيترسون الآن، كل شيء كان أكثر بهجة وإمتاعًا قبل تشييد السجن؟

- ما الذي حدث لزوجة هولاند؟

- أصابها السرطان لكن موتها كان رحيمًا وسريعًا، ابنتهم ليزا كانت في الخامسة عشرة من العمر عند حدوث هذا، وقد سميت ليزا تيمنًا بأمها، لا أعتقد أنها استطاعت تقبل ما حدث أبدًا وتدهورت علاقتها مع أبيها بعدها.

- ولماذا طلق لويل زوجته؟

- كما قلت لك سابقًا لا أمتلك أدنى فكرة لكن حقيقة أنْ لا أحدٌ يتحدث عن ذلك مثيرة للفضول، لكني أعتقد أن الطلاق كان قراره هو وليس زوجته.

- وبيترسون لديه أخت تشبهه تمامًا أليس كذلك؟

- ليس كالتوائم لكنهم متشابهان نعم وهي تصغره بأعوام.

- وهل ستستمرين بالبقاء في بولتون بعدما أصبحت بلدة السجن؟

- أنا مسنة للغاية لكي أبدأ حياة في مكان جديد، ماذا عنك أنت؟

- لن أستطيع البقاء هنا للأبد، المكان شديد البرودة.

ضحكت جانيت ثم قالت : في النهاية ستجد أن عليك

الاستقرار بمكان ما.

- لم يحدث هذا حتى الآن.

أنهى ريتشر قهوته ووضعها جانبًا، لم يعلم إن كان يجب عليه الرحيل وتركها لمعاودة قراءة كتابها أم الاستمرار في الجلوس معها، لا يعرف أيهما تفضّل هي.. قالت جانيت : ابقَ معي، سيكون هناك الكثير من الوقت للقراءة بعد انتهاء كل هذا.. هل أنت دافئ؟

هز رأسه بمعنى أنه بخير..

شعر ريتشر أنه يستطيع سماع كل شيء في تلك اللحظة، صوت المياه الدافئة وهي تسري في أنابيب البيت، صوت الرياح وتحرك صواليج النافذة إثرها، هنا قطب جبينه وهتف : غبي!

نظرت إليه جانيت بدهشة ثم قالت : ماذا؟

- أنا غبي.

وهبّ واقفًا متجهًا للهاتف وسأل الشرطية : أنا بحاجة لرقم بيت أندرو بيترسون هلا أعطيتني إياه؟

- لا أعلم إن كان مسموحًا بأن أعطيك الرقم.

- إذًا اطلبيه من أجلي.

أمسك بالسماعة وقال لكيم بيترسون التي أجابت الهاتف بصوت ناعس : أنا ريتشر وأنا آسف حقًّا لإزعاجك

لكني بحاجة للحديث مع أندرو..

مرت دقيقتان بينما كيم توقظ بيترسون وتكاد تحمله حملًا للهاتف، وهتف ريتشر فور التقاط أندرو للهاتف : أنا أعلم أين يوجد المفتاح الخاص بقاعدة الطيران الجوي..

التاسعة مساء.. باقٍ من الزمن سبع ساعات.

الفصل الثاني والثلاثون

ذهب ريتشر لجانيت وقال : أنا بحاجة إليك كي تبقين في القبو وتحكمين غلقه لحين عودتي، وخذي المسدس معك، لا تفتحي لأحد إلا عندما أعود وأقول لك كلمة السر التي اتفقنا عليها.

بدا الإطراب على وجهها في جزئية كلمة السر كأن هناك جانبًا طفوليًّا وعاطفيًّا بداخلها يستمتع بتلك الفكرة، وأظهرت شجاعة في تلك اللحظة فقالت : حسنًا لا تقلق.

- سأغيب لمدة ساعتين.

- لا تقلق، ولن يحدث شيء في السجن يستدعي رحيل الشرطة لكني سأذهب للقبو الآن.

- لا يمكننا ضمان بقاء الأمور آمنة في السجن.

كررت جانيت : لا تقلق، ثم أضافت : سأفعل ما تقوله.

رن الهاتف فأجابه ريتشر متوقعًا بيترسون لكن المتصل كانت سوزان التي قالت : ن 6 0 ب أ 3 0، هذا هو الكود المشفر لشحنة من فائض الحرب العالمية التي تم تخزينها بالقاعدة الجوية، لقد أجرى الرجل الذي استعنت به في الطيران الجوي اتصالاته وحصل على تلك المعلومة والآن أنا مدينة له بخدمة كبيرة بسبب هذا، لكني لا أعلم محتوى تلك الصناديق بالضبط ولا أعتقد أنهم شحنوا ملابس جيش وخوذًا عسكرية في تلك الصناديق..

صمت ريتشر قليلًا مفكرًا ثم سألها : ما الاسم الموجود على الختم في الملف؟

- معامل «كروان»..

- تبًّا، حسنًا.. شكرًا يا سوزان.

أنهى المكالمة وسطعت أضواء سيارة بالخارج، خرج ريتشر مسرعًا وقفز في سيارة بيترسون ذي الوجه المجهد، رحلت السيارة بسرعة والتفت ريتشر ملقيًا نظرة أخيرة على البيت ومتخيلًا جانيت سالتر وحيدة في القبو..

***

قادوا السيارة وقطعوا الطريق بسرعة ووصلوا للقاعدة الجوية عندما وجدوا سيارة على جانب الطريق هناك، سطعت أضواؤها الحمراء في وجوههم ومن خلفها ربضت السيارة، محركها لا يزال يعمل، أوقف بيترسون سيارته، ونظروا للسيارة، من طراز فورد فيكتوريا، سوداء اللون، قال بيترسون : إنها سيارة هولاند.

ترجل الاثنان من سيارتهم واقتربوا بحرص من سيارة فقط ليجدوا الأخير جوارها في الظلام، بدا محنقًا لرؤيتهما وهتف : ما الذي تفعلانه هنا؟

- لقد خمن ريتشر مكان المفتاح.

- لا يهمني من خمن ماذا، ماذا لو انطلقت سرينة السجن؟ لماذا هذا الاستهتار بحياة جانيت؟

- لن تنطلق سرينة الإنذار.

- هذا ما تعتقده أنت!

- لقد مر وقت إحصاء عدد المساجين وجميعهم نيام في زنازينهم الآن.

- أنت أحمق يا أندرو، لا يمكنك الوثوق أبدًا في إجراءات السجن المكان بحالة فوضى بعد الشغب وبإمكان السرينة الانطلاق في أي وقت ولا تحدثني عن إجراءات التفتيش الصباحية هناك لأن بإمكانهم القيام بجولة تفتيشية في قلب الليل والله وحده يعلم ما الذي يمكن أن يحدث حينها، لم يكن عليكم أبدًا ترك جانيت..

بدا القلق على وجه بيترسون وسأل بتردد : هل علينا أن نعود أدراجنا؟

- أنتم وصلتم هنا بالفعل، عدة دقائق إضافية لن تمثل فارقًا الآن.

سأله ريتشر : ما الذي تفعله هنا؟

نظر إليه هولاند ثم رد : لقد خمنت مكان المفتاح كذلك.

- أحسنت صنيعًا..

- لم يكن الأمر شاقًّا، أي أحد بعقل صافٍ قادر على استنباط مكانه.

- أين المفتاح؟

هتف بيترسون. بينما تبادل هولاند نظرة مع ريتشر ثم أروا بيترسون الإجابة بأنفسهم، المفتاح كان يقبع خلف أنبوب التسخين بالكابينة الأولى، مكان بسيط ومنيع في الوقت ذاته لتخبئة شيء مهم، التقطه هولاند ورفع بيترسون حاجبيه ثم نقل ناظره بينهما، لقد تطلب الأمر الكثير من البارانويا من راكبي الدراجات كي يخبئوا المفتاح في مكان كهذا، ذهب ثلاثتهم لبوابة القاعدة الجوية، أولج هولاند المفتاح بها ثم أدار القفل، وانفتح الباب..

الفصل الثالث والثلاثون

انفتحت بوابة قاعدة الطيران الجوي على مصراعيها، ووقف ثلاثتهم أمام البوابة ينظرون للغبار وسط الظلام بالداخل، ثم تحركوا ببطء حيث دخل ريتشر أولًا يتبعه بيترسون وهولاند بينما غمغم الأخير : ما كل هذا الغبار؟.. تلفت ريتشر حوله، الجدران مطلية بالأسود، الغبار يغطي المعدن، الباحة الأمامية متسعة، تقود لردهة ضيقة تنتهي بممر طويل، وبعد ذلك محيط طائري متسع، الجدران منبعجة هناك، وهناك صف من الأدراج المستديرة تقود لطابق ثانٍ وثالث، غمغم ريتشر : نحن بحاجة لأضواء كشاف، واصل ثلاثتهم السير، ووقفوا أمام فتحة بالغرفة المستديرة تقود لطابق أسفلي، ربما قبو، وربما قاعدة تحت الأرض، فكر ريتشر بجانيت في القبو، تنتظر عودته وتنهد، في حين قال بيترسون : لا يوجد مصعد، هز ريتشر رأسه، نعم لا يوجد مصعد، هم لم يريدوا المخاطرة بقوة الكهرباء، لقد فكروا في كل شيء وهم يبنون تلك القاعدة الجوية، هنا مد بيترسون رأسه ونظر للأسفل قائلًا : تخيل لو كنت طفلًا في السابعة من العمر، مات أهلك إبان الحرب الذرية، وأنت تهبط تلك السلالم الآن رافعًا رأسك الصغير لأعلى عالمًا بأنه لا توجد فرصة للعودة قبل أن تصبح شابًّا يافعًا، يا له من سيناريو مخيف!! هز ريتشر رأسه مرة أخرى، الأفكار تكاد تعصف برأسه، هل سوزان كانت محقة؟ هل هذا المكان

مخزن لفائض الأسلحة أم أنه ملجأ لإنقاذ أطفال الحرب الذرية أو النووية؟ في النهاية قال ريتشر : الفكرة كلها غاية في الجنون، كل أفكار الحرب الباردة كانت ناجمة من البارانويا، لا منطق في كل هذا.. ثم رفع ريتشر رأسه واقترب من أنابيب صرف موجة بالحائط المعدني ووضع يده على إحداها، ثم تراجع للخلف ونظر رفيقاه إلى ما كان ينظر إليه، صف من أنابيب المياه تقود للطابق السفلي، أخرج ريتشر عملة معدنية من جيبه وطوح بها ثم رماها للأسفل وحسب الوقت قبل سماع صوت ارتطامها، إلا أنه لم يسمع شيئًا، تمتم : المكان عميق بشدة.. تبادلوا نظرة سريعة ثم استقرت أعينهم على الأدراج المؤدية للطابق السفلي وقال بيترسون : سأذهب أولًا.

العاشرة مساء، باقٍ من الزمن ست ساعات..

***

تسلق بيترسون الأدراج المستديرة، ثم نظر إلى هولاند نظرة من طراز «اعتنِ بعائلتي لو حدث لي شيء» واختفى برأسه قبل أن يتبعه ريتشر ومن بعده هولاند، كان الأمر مثلما يحدث مع عمال المناجم، هم يهبطون أنبوبًا مستديرًا به سلالم، كرجال المطافئ، في الظلام المطبق، وبذهن كل منهم تجول فكرة مختلفة، وسط كل هذا الظلام، أفكار عن الزواحف والكائنات الليلية التي ربضت لدهور في هذا السرداب العظيم، واصلوا الهبوط، وكاد هولاند أن يتعثر لكنه تعلق بالسلم المعدني بقوة، واستمرت الرحلة، الجدران

بنفس اللون السابق للجدران العلوية، نفس التصميم، لكن هناك رائحة عطبة، والمزيد من الغبار، وصلوا في النهاية للطابق السفلي وانتهت الأدراج فقط ليهتف هولاند : تبًّا!

التفت ريتشر وبيترسون إليه في عتمة في الظلام فأردف : لن نسمع سرينة إنذار السجن لو انطلقت هنا.

- هل هاتفك الخلوي لديه تغطيه هنا؟

- كلا.

- علينا أن نُسرع إذًا.

كان أمام ريتشر خيار، إما أن يتزحلق للأسفل مثل السلطعون أو يزحف، الخيار الأول أكثر فاعلية لكنه أكثر خزيًا كذلك وخالٍ من الكرامة، تنهد ريتشر ثم تزحلق كالسلطعون، حتى وصل للجزء الأمامي من الأرض المنحدرة، ومثله فعل بيترسون وهولاند، وقف ثلاثتهم وساروا للأمام وهم لا يكادون يرون شيئًا اللهم إلا ضوء بصيص خافت منسل من الأعلى، غمغم ريتشر : أشعر كأني طفل يجسر على مغامرة عجيبة.

- لنواصل التحرك.

قالها هولاند بحماس بينما يخطو للأمام ويتقدمهم، ثم توقفوا أمام جدار متين به ثمانية ممرات، وتساءل هولاند : ثمانية ممرات وثماني اختيارات، أيهم يقود لمعمل تصنيع الهيروين لو صحت نظرية بيترسون؟

هز ريتشر رأسه مجددًا وقال : لا يوجد معمل لتصنيع أي مخدرات.

- ها؟ كيف؟

رفع ريتشر كشافه وأشعل الضوء، كان يبقيه مغلقًا للحفاظ على البطارية واستخدامه وقت الحاجة ورد قائلًا وهو يسلط الضوء أمامه : هناك معمل ما في نيوجيرسي أو شيكاغو وتم توريد منه البضاعة هنا لتخزينها.

ثم قال لهما بلا مزيد من الشرح : اتبعوني.

أمامهم استقرت أرضية متدحرجة أخرى، تزحلق ريتشر عليها بعدما وجد أنها الطريقة الأسرع، مستندًا بذراعيه ويستخدم قوة دفع ساقيه للأمام كانه يتزلج، ثم خلع قفازاته وفتح ياقة معطفه ليتمكن من الحركة بشكل أسرع وواصل طريقته تلك للوصول لوجهته، مستندًا بذراعيه، ويدفع بقدميه، مرة تلو الأخرى، سمع صوت تعثر من خلفه، في الأغلب يخص هولاند، فبيترسون في حالة بدنية أفضل، وصلوا لنفق بعد هذا، وتخيل ريتشر الجهة الثانية من النفق، عشرون فراشًا لعشرين طفلًا نائمًا، يحلمون بالقنبلة النووية، ولا تفصل أفرشتهم عن بعض سوى خمسة أمتار، قوس ريتشر نفسه وزحف عبر النفق حتى خرج من الجهة الأخرى، لم يكن هناك أماكن نوم للأطفال، لا شيء، هذا المكان لم يتم استخدامه أبدًا، ليس من قبل أطفال على الأقل، وغمغم بيترسون مشدوهًا وهو

يعتدل ليقف جوار ريتشر ويحدق فيما ينظر الأخير : لا أصدق عينيَّ!

كانوا يحدقون بصناديق أسلحة وذخيرة وقنابل وبارود من الحرب العالمية الثانية، المخزون الفائض الذي تحدثت عنه سوزان تيرنر، كرر بيترسون : لا أصدق عينيَّ!

تراصت أمامهم الصناديق الحديدية وهم يتجولون بينها وينظرون لمحتوياتها، وسأل هولاند مبهورًا : حوالي أربعين طنًّا من الأسلحة أليس كذلك؟

- كلا، الكمية أكثر بكثير من هذا، حوالي أربعة وخمسين طنًّا.

- هذا جنون، ما هو السبب لكل هذا؟

- كما قلت لك الجميع كانوا في حالة «توقع أسوأ سيناريو لنهاية العالم» خلال الحرب الباردة، وتلك الكمية من الأسلحة والقنابل والبارود والذخيرة لا بأس بها على الإطلاق كفائض مخزون حرب، ولكن الحرب قد انتهت، هل نلجأ للأسلحة الجديدة المطورة ونتخلى عن تلك «الكلاسيكيات»؟ بالطبع لا، إذًا ما هو الحل المثالي؟ تجميع تلك الأسلحة وتخزينها لوقت حاجة في الأغلب لن يأتي أبدًا، بإمكاني تخيل ما حدث جيدًا، اجتماع لقادة عسكريين بالطيران، مناقشات ووجوه مكفهرة، أحدهم يقترح تخزين تلك الأسلحة في حالة اندلاع حرب ذرية، هذا حل أخير للجدل القائم، نعم يمكننا تخزين تلك

الأسلحة الكلاسيكية في ملجأ خفي تحت الأرض، ولو حدث هجوم نووي أو ذري وخسرنا كل شيء فالناجون في هذا الملجأ سيكونون مسلحين، وهكذا تتحول فكرة تخزين أسلحة قديمة لسيناريو آخر خاص بالحرب الباردة مع السوفيت..

ثم نظر ريتشر لصناديق أخرى بها معدات وأسلحة طائرات حربية وقال مشيراً إليهم : نفس الشيء ينطبق على مزودات الأسلحة الخاصة بالطائرات الحربية، لو كنا سنتعرض لهجوم نووي فأسلحتنا البدائية القديمة هي آخر الحلول.

- لماذا لم يحرقوها أو يتخلصوا منها؟

- جزء من التفكير القديم للإنسان على ما أعتقد، الاحتفاظ بمقتنياته الثمينة التي لم يعد يحتاجها..

تنهد هولاند في إرهاق وقال : لنجد باقي الصناديق ونرحل، أنا قلق بشأن انطلاق نافرة إنذار السجن ورحيل رجالنا لهناك تاركين جانيت وحدها..

قطب ريتشر جبينه وهو ينظر لركن خلفي وقال : ألا تجدونه غريباً فهذا الركن نظيف؟!

ساروا خلفه حيثما كان يقصد، انحنى ريتشر وزحف عبر نفق آخر لغرفة خلفية وكذا فعل كل من بيترسون وهولاند، وبانتظارهم كانت مفاجأة أخرى.

***

سطعت الأضواء داخل رأس ريتشر وهو يقف بتلك الغرفة وينظر أمامه، في حين فغر هولاند فاه، وتمتم بيترسون : يا إلهي، كانت هناك صناديق مطابقة لتلك بالغرف الأخرى، لكن تلك الغرفة ذات السرداب الخفي كانت نظيفة وبدت أنها استعملت مؤخرًا وفي الأغلب لها باب خلفي ما لم ينتبهوا إليه، وبداخل تلك الصناديق استقرت كميات هائلة من المخدرات، المسحوق الأبيض إياه، اقترب ريتشر من أحد الصناديق ومد يده ثم لمس أحد تلك المحتويات وسمع بيترسون يهتف من خلفه : تلك أكبر عملية ضبط مخدرات في التاريخ، إذًا فالمعمل ليس هنا، هنا المخزن، وتلك الشاحنات والمقطورات تخزن البضاعة بالقاعدة العسكرية المهجورة، والتي افترض بلاتو أنها ملكه، لكن كيف تركوا كل تلك البضاعة خلفهم، أعني أصحاب الدراجات النارية، كيف؟

- لأن لو بلاتو قال لك أن تفعل شيئًا سوف تفعله.

كرر بيترسون : أكبر عملية ضبط مخدرات في التاريخ.

وصاح هولاند بحماسة : تبًّا لصفقة السجن، من الآن فصاعدًا ستصبح بولتون بلدة شهيرة وسياحية، ورجال الشرطة بها سيصبحون نجومًا ذا علاقات قوية ونفوذ..

غمغم ريتشر : هنيئًا لك.

في إطراب تابع هولاند وهو يجثو على ركبته متفحصًا

أحد الصناديق : سوف يستمع مكتب مكافحة المخدرات إلينا الآن.

ظل هولاند يتفقد الصندوق، في حين وقف ريتشر بشرود يفكر في رد فعل بلاتو عندما يعلم أن مخزونه الثمين مهدد الآن، ثم انصرف بتفكيره لجانيت سالتر وهي تنتظره بالقبو وتنهد دون أن ينتبه أن بيترسون قد ابتعد متفحصًا سردابًا خفيًّا آخر وبدأ يزيح التراب بيديه ثم دلف لمدخل نفق وزحف به، خرج بيترسون من نهاية النفق ووقف، بينما ريتشر لا يزال يقف متخيلًا ثورة بلاتو الوحشية، أنت تهدد الوحش بفقدان مملكته الآن، «ريتشر تعالَ وألق نظرة على هذا» أتاه صوت بيترسون من على بُعد، تلفت ريتشر حوله واعتدل هولاند واقفًا، وصاح الأول : أين أنت يا بيترسون؟

- اتبع صوتي.

تردد صدى صوته عبر الأرجاء، ظل يتحدث فسار ريتشر يتبعه هولاند حتى وجدوا النفق، وغمغم هولاند : ليس نفقًا آخر..

ابتسم ريتشر ثم انحنى وبدأ الزحف وكذا فعل هولاند، خرجوا ليجدوا بيترسون في انتظارهم وهو يشير لصناديق مختلفة تمامًا أمامه، وعدد لا بأس من اللبنة في كل صوب، غمغم هولاند : ماذا هذا؟

عقد ريتشر حاجبيه وهو يجيب : وقود طائرات، وغاز..

- هل هم مجانين؟ يحتفظون بهذا الكم الهائل من الوقود هنا؟

تبادل بيترسون نظرة مع ريتشر وقال الأخير وهو يتذكر شاحنة الوقود التي كادت أن تدهس سيارته بعد انتهاء زيارته الأولى للمخيمات : هذا وقود طائرات، تم نقله هنا بالشاحنات، أنت قلت إن مكتب مكافحة المخدرات قد تحدث عن صفقة ما لبلاتو مع الروس، أعتقد أنه قادم هنا مع رجاله بطائرة خاصة، لنقل الشحنة بعدما تم إخلاء المكان، ولكي تتزود تلك الطائرة بالوقود من هنا.

ثم تنهد ثلاثتهم معًا، وانعكست ظلالهم على الجدران مع الضوء الخافت القادم من كشاف ريتشر، وهم يقفون كثلاثة فرسان في قصة خرافية، كأنهم في كهف علاء دين.

الفصل الرابع والثلاثون

- آه ما هذا يا رفاق؟

قالها ريتشر بتشكك وهو يحرك ضوء مصباحه على الحائط، وانعكس وهج ما، ذو لون أصفر، بينما أجابه بيترسون : يبدو أن كهف المفاجآت لا يزال بجعبته شيء آخر.. ونفض هولاند رأسه بحماس، فاتجهوا مسرعين لمصدر الوهج، وريتشر يتبعه بانعكاس ضوء الكشاف، ثم توقف ثلاثتهم وتراجعوا للخلف بنفس تعبير الوجه، حواجب مرتفعة ودهشة مطلقة، عدم تصديق تلاه صمت، واستيعاب، هضموا الفكرة جيدًا واستوعبوا حقيقة ما يحدث أمامهم، وغمغم هولاند : لن يصدق أحد ما يوجد ماثل أمامنا ولو بعد ألف عام.

وعلى حدقتي عين ريتشر انعكس بريق الذهب والفضة المكدسين داخل صناديق خلفية، وجوارهم عدد ضخم من صناديق البلاتينيوم، وصناديق بها لوح ثمينة، وصاح هولاند : كيف؟

اقترب ريتشر بقليل من عدم التصديق، وتخيل ردة فعل سوزان تيرنر لو عرفت بشأن الكنوز المدفونة هنا، قال ريتشر : لوح ثمينة مهربة، قلادات فضة، سبائك ذهب بمختلف أنواعه وألوانه، كل هذه أشياء تم تهريبها من النازيين إبان الحرب العالمية الثانية، وبمعجزةٍ ما تم تخزينها ونسيان أمرها هنا بعد تغير الإدارة عقب سقوط الاتحاد

السوفيتي وانتهاء الحرب العالمية الثانية(4)، وأعتقد أن بلاتو، كلا لا أعتقد، بالطبع هو يعرف بشأن تلك الجائزة الإضافية.

أمسك هولاند بإحدى تلك السبائك وقال : أكبر عملية ضبط مخدرات وتهريب في التاريخ إذًا، سيقيمون نصبًا تاريخيًّا لبلدة بولتون في واشنطن..

هنا قال ريتشر وقد عاودته الصورة الذهنية لجانيت سالتر وهي في القبو تغالب خوفها : لا يوجد المزيد من الوقت كي نضيعه، لنرحل من هنا الآن..

تحرك ثلاثتهم مسرعين، توقفوا دون إشارة وألقوا نظرة أخيرة على المكان ثم زحفوا عبر الأنفاق وبدءوا في تسلق السلالم بعدها، قام ريتشر بعدِّ السلالم وهو يصعد، مائتا درجة، تمرين رياضي لا بأس به، لكنه لم يكن مهتمًّا بالتمارين الآن، عقله كله منصب على جانيت سالتر، وفور وصولهم وخروجهم من القاعدة الجوية قال ريتشر لبيترسون : استخدم هاتفك الآن واتصل للتأكد من إنذار السجن لم ينطلق وأن جانيت ليست وحدها.

فعل بيترسون هذا ثم قال : كل شيء تحت السيطرة، لم يحدث شيء، أحيانًا تقامر وتكسب..

هنا اتجه هولاند لسيارته وأمسك بمذياع الشرطة، ضغط زر البث ثم قال بفخر وبصوت عالٍ : استمعوا إليّ جيدًا، هناك بطل جديد في بولتون، وهو نائب المأمور، أندرو

بيترسون، لقد اكتشف وتوصل لوكر أكبر مخزن مخدرات ومهربات في تاريخ جنوب داكوتا، استعدوا جيدًا في الساعات القادمة وتأهبوا، لا أحد يدخل بولتون أو يخرج منها دون إذني، أريد إقامة حصار كامل، كونوا على أتم استعداد..

أنهى هولاند البث وقال بيترسون في تأثر : شكرًا أيها المأمور هولاند..

- لا داعي للشكر، لكني لا زلت أعتقد أنه لم يكن عليك المجيء.

ووقف ريتشر صامتًا..

الحادية عشرة مساء.. باقٍ من الزمن خمس ساعات.

***

على بعد خمسمائة ميل في الجنوب، ترجل الرجال المسلحون من السيارات السوداء في هذا المطار الخاص، وفي المقدمة وقف بلاتو صامتًا، وأمامه احتلت تلك الطائرة الكبيرة من طراز بوينج 737 حيزًا هائلًا من المطار، بدأ الرجال في تفقد الطائرة الخاصة، وصيانتها وإطاراتها والوقود وكل هذا، في حين اعتلى بلاتو متنها، استقبله الطيار في احترام وإجلال، وجلس بلاتو في المقعد، 1 ألف، ونظر لانعكاس وجهه في زجاج النافذة، كان يحب تلك الطائرة، تشعره بمدى تمكنه من الحياة، هو يمتلك تلك الطائرة الخاصة وبإمكانه الاختلاء بنفسه

والتحليق بعيدًا عن العالم الصغير في أي لحظة، لأنه رجل صلب، ومقاتل عتيد تغلب على الحياة، ويمتلك من القوة والنفوذ والقسوة ما يتيح له أن يحكم العالم كله، ابتسم بلاتو لنفسه، فهو لا يريد أن يحكم العالم، لكنه راضٍ عن مقدار نجاحه وقوته، بدأ الرجال المسلحون في الصعود على متن الطائرة، وابتلعت المضيفة ريقها محاولة إخفاء توترها وخوفها وبدأت في خدمتهم، استلقى بلاتو في مقعده، وبدأت الطائرة في التحرك.

***

قاد بيترسون سيارته وأوصل ريتشر لبيت جانيت سالتر في حين تبعهم هولاند في سيارته، ترجل ريتشر من السيارة وسار اتجاه البيت مسرعًا، اتجه نحو القبو وطرق الباب، أتاه صوت جانيت بعد وهلة من التردد، وهو يعلم أنها تمرنت على إلقاء السؤال الخاص بكلمة السر مائة مرة في عقلها، لكن تنفيذ التمرين العقلي والتفوه بالسؤال في لحظة الحقيقة لهو أمر موتر للغاية بالنسبة إليها، أتاه صوتها أجش قليلًا وبه بحة : ما هو كتابك المفضل؟

- أنا لا أمتلك كتابًا مفضلًا.

قالها مبتسمًا رغمًا عنه وخُيّل إليه أنه سمع تنهيدة ارتياح صادرة منها، تلى ذلك صوت خطوات إقدامها وهي تصعد السلم وتفتح باب القبو، نظرت له مبتسمة وقالت : لقد تأخرت!

- أنا آسف!

- هل توصلتم لشيء؟

- نعم، كل شيء جيد حتى الآن.

- إذًا عليك الاتصال بالمرأة من فيرجينيا وإخبارها، لقد كنت مقتضبًا للغاية معها في المكالمة السابقة وكدت أن تغلق الهاتف في وجهها.

- أعتقد أنها أنهت نوبة عملها لليوم.

- اتصل بها.

قالتها جانيت بحزم ممازح، وابتسم ريتشر لحقيقة أن السيدة سالتر تغلبت على فضولها ولم تسأله عن كنه ما وجدوه، لكنها - بدلًا عن ذلك - تشجعه للاتصال بسوزان تيرنر.

هز ريتشر كتفيه وضحكت جانيت، ثم ذهب واتصل بسوزان، طلب من متلقي المكالمة الحديث مع «آماندا» وقال لها فور أن تم توصيل المكالمة لها، بعدما اتضح له أنها لا تزال في نوبة العمل : أربعون طنًّا.. أسلحة.. مخدرات.. ذهب.. لوحات مهربة.. بلاتينيوم.. فضة.. بارود.. قنابل.. ذخيرة.

- يا إلهي!

- هذا ما قلته داخل عقلي.

- وما الذي ستفعله بصدد هذا؟

- لا شيء، شرطة بولتون سوف تتولى الأمر..

- وكيف فقدنا نحن أربعين طنًّا من الأسلحة والذخيرة والقنابل والمجوهرات عند تبديل الأنظمة؟

- لا أعلم، لكن البشر يضيعون الأشياء طيلة الوقت ويتظاهرون بالكفاءة بعدها، الأشياء السيئة تحدث.. شكرًا لمساعدتك يا سوزان.

- الرائد جاك ريتشر يتصرف بشكل لبق ومهذب، يا لها من سابقة..

- هل علموك السخرية كوسيلة دفاعية إبان فترة تدريبك العسكرية؟

- من ضمن أشياء أخرى.

- أتمنى اكتشاف تلك الأشياء قريبًا.. هل هناك جديد عن كابلر؟

- لا شيء محدد، لقد استقال لأسباب شخصية وانتقل من فلوريدا لبولتون..

- حسنًا، شكرًا.

- أنت تكرر هذا كثيرًا، أي شيء آخر؟

- كلا، أعتقد أننا قد انتهينا هنا.

- إذًا هذا هو الوداع يا رائد ريتشر.

- أعتقد ذلك.

- لقد كان من اللطيف التحدث إليك..

- وأنت أيضًا، اعتنِ بنفسك يا سوزان.

أنهت المكالمة وجلس ريتشر في المقعد المجاور للهاتف لفترة من الوقت، ثم حاول عدم التفكير بسوزان وقف ليتفقد البيت، حيث كانت الشرطية تقف في موقعها في حالة تأهب بعد بث هولاند، تفقد ريتشر مداخل ومخارج البيت، النوافذ والشرفة والقبو، ألقى نظرة على السيدة سالتر، وهي تقرأ كتابًا بالمكتبة، ثم ذهب ونظر من النافذة للخارج..

كل شيء هادي.

***

أصدر حاسوب سوزان صوت تنبيه عند وصول رسالة «فاكس» إليها بمكتبها في فيرجينيا، كان هذا ردًّا من قسم الشئون بخصوص طلبها للاطلاع على الفقرات المحجوبة الخاصة بملف جاك ريتشر، رفعت حاجبيها وهي تقرأ التقرير، لقد تعرض ريتشر مع دستة من أطفال ضباط الجيش الذين ولدوا بقواعد عسكرية لتجارب نفسية تخص التحول الوراثي، حيث يتطوع الآباء لأبنائهم لتلك التجارب الآمنة نسبيًّا التي تقيس ردة فعل الأطفال تجاه مؤثرات خارجية محددة، وريتشر وهو طفل، كان

أحدهم، سوزان تعرف طريقة عمل علماء النفس في الجيش، يجلسون في مكاتبهم وينتظرون إلهام فكرة ما، ويبدو أن التجربة الماثلة أمامها في الملف كانت تشبه ذلك، الصورة بالتقرير أوضحت عددًا من الأطفال يجلسون في صالة عرض سينمائي ويتم عرض فيلم به وحش مخيف بمؤثرات قوية وجيدة، يصرخ الأطفال ويتراجعون للخلف بذعر، عدا طفل واحد، كان متأهب الجسد وينحني للأمام في عدوانية مستعدًّا لمواجهة الوحش، كان هذا الطفل هو الاستثناء الوحيد، من بين خمسة عشر طفلًا، كلهم في السادسة من العمر، أربعة عشر منهم يتراجعون للخلف، وواحد يقفز للأمام، حجمه أكبر من الآخرين، ويمتلك شعرًا قصيرًا، فاتح لون البشرة، الآن هو يقفز محاولًا الوصول للشاشة لكي يقاتل الوحش وذراعه اليمنى مرفوعة بشكل عدواني استعدادًا للقتال، وهناك شيء ما في يده اليمنى، انحنت سوزان للأمام وضيقت عينيها، تلك مدية في يده، رفعت سوزان تيرنر حاجبيها في إعجاب، طفل في السادسة مستعد لمقاتلة وحش، هي تعلم هذا النوع جيدًا لأنها واحدة منه، وقد سمى العلماء النفسيون الطفل بمصطلحات عديدة وهم يدرسون ردة فعله، ولم تعنِها تلك المصطلحات في شيء، ابتسمت سوزان، الطفل هو جاك ريتشر، وقد كان يحمل مدية معه وهو في السادسة من العمر ومستعد لمواجهة الوحش.

***

ساد الصمت لعشر ثوانٍ في منزل جانيت سالتر، ثم انطلقت الضوضاء فجأة دون سابق إنذار، الهاتف يرن، الراديو يبث أصواتًا مختلفة، أجهزة الاستدعاء الخاصة بالشرطيتين لا تقف عن الرنين، هرع ريتشر خارجًا من غرفته ليجدهما يتحدثان عبر أجهزتهما، اقترب من إحداهما وقال : ما الذي حدث؟

رفعت رأسها عن جهازها ونظرت إليه قائلة بعينين متسعتين : لقد وجدوا أندرو بيترسون مقتولًا، أحدهم رماه بالرصاص حتى الموت..

الفصل الخامس والثلاثون

انضم إليهم شرطي المراقبة ووقف جوار الشرطيتين في حيرة، ولم يراود ريتشر الشك بأن باقي رجال الشرطة في الخارج يعانون من نفس الحيرة والتشتت، ففي تلك اللحظة انعدمت تمامًا قوة الحراسة الخاصة بجانيت سالتر، وانتقلت عينا ريتشر بتلقائية للنافذة ليطمئن من خلو الشارع من أي هجوم قادم، كان يعلم أن كل أفراد الشرطة في حالة تأهب بعد بث هولاند لكنه لا يمتلك أدنى فكرة عن تأثير خبر مقتل بيترسون عليهم، قالت الشرطية: إن وحدة من الشرطة في سيارة يقودها مونتغمري قد رأوا سيارة بيترسون على جانب الطريق وعندما تفقدوها وجدوا الأخير جثة هامدة بها وهناك رصاصة تستقر في منتصف رأسه، ظل ريتشر بموضعه أمام النافذة وهو يراقب ويفكر في بيترسون بالآن ذاته، أحيانًا تكون الأخبار الأولى خاطئة، وغالبًا ما يتم خلط حالات القتل بالغيبوبة، لكن رصاصة في الرأس أمر لا يمكن الخلط به، وريتشر كان متفائلًا لكنه لم يكن أحمق، تنهد وهو يستمع لجمل الإنكار وعدم التصديق من الشرطة الواقفين خلفه، ثم سرعان ما تأكد الخبر عندما وصل المأمور هولاند، سار ببطء وبوجه متجهم، تحدث بصوت خفيض وبه مواساة، كان قائدًا جيدًا وداعمًا، وقال لهم وجهًا لوجه إن أحدهم قتل أندرو بيترسون، ثم التفت هولاند لريتشر وقال : هلا أتيت معي لرؤية مسرح الجريمة؟

في تلك اللحظة خرجت لهم جانيت سالتر، ونظرت لهم بصمت وهي عاجزة عن قول شيء، اقترب منها ريتشر فقالت بحزم وصوت متهدج : اعلم ما ستقوله، سوف أذهب الآن للقبو وأحكم غلق الباب، المسدس معي، لن أفتح لأحد دون كلمة السر.. ثم هزت رأسها له، تحرك ريتشر مع هولاند بعدها، ألقى ريتشر نظرة على وجه هولاند الواجم، لا بد أن كل هذا يذكره برحيل زوجته، وربما ابنته كذلك، أراد ريتشر قول شيء لمواساته، وفكر في الوعد الذي قدمه لكيم بيترسون، انتابت جسد ريتشر عاصفة ولكنها لم تكن ثلجية، كانت نارية ومزيجًا بين الحزن والغضب، قاد هولاند السيارة وانعطف يمينًا، ثم يسارًا، ووصل لنهاية شارع طويل، انعطف بعدها مرة أخرى ثم دخل ما بدا أنه مرآب مهجور، كانت هناك العديد من سيارات الشرطة بالداخل، ترجل ريتشر وهولاند من سيارة الأخير وسار الأول صوب سيارة بيترسون، نظر لجثة الأخير، جسده كان ملتوٍ للخلف، مسدسه لا يزال بغمده، الدماء قد تجمدت فوق رأسه، وصدغه ومنتصف جبهته، ثقب الرصاصة واضح ويستقر بشاعة أعلى جبينه، لقد أطاحت الرصاصة برأسه فارتد جسده وسقط للخلف بتلك الطريقة، ورغم أن ريتشر يعلم جيدًا أن بيترسون قد مات، لكنه خلع قفاز يده ومدها ليتحسس نبض الأخير، لا حياة، ارتدى ريتشر القفاز مرة أخرى ونظر لهولاند..

- لماذا لم يذهب لبيته مباشرة؟

- لا أعلم.

- ما الذي حدث بالضبط؟

- لا أعلم يا ريتشر، لقد كان يبحث عن القاتل المحترف على ما أظن.

- جميعكم تبحثون عنه.

- لكن فيما يبدو أنه قد وجده، كما أن وظيفته قد انتهت لتلك الليلة، لقد وجدنا الوكر، كان من المفترض أن يعود لمنزله.

- لكنه لم يعد يا هولاند، لقد آثر البحث عن القاتل الأجير وإيجاده رغم أنها ليست مهمته، هل تعلم السبب؟ لقد كان يحاول إبهارك.

- إبهاري أنا؟

- لقد كنت قدوة له، تدعمه وتحميه وتساعده وكان يعلم أنه سيصبح المأمور القادم بعدك وأراد أن يكون جديرًا بالوظيفة.

ابتلع هولاند ريقه وأغمض عينيه ثم فتحهم وقال بصوت خافت : أنا لم أطلب منه الذهاب والبحث عن هذا القاتل اللعين.

- لقد أراد إنهاء القضية وإنقاذ جانيت، أراد أن يحظى

باحترامك.

- أعتقد أنه أراد أن يحظى باحترامك أنت أيضًا.

- كما أنك نسبت إليه بطولة اكتشاف وكر المخدرات رغم أن الحقيقة هي أنه أنا وأنت من اكتشفناه، ربما أراد أن يشعر بالاستحقاق لتلك البطولة لأنه شعر بكونه زائفًا..

صمت هولاند مرة أخرى، وهو يستوعب كل تلك الدوافع لبيترسون... وأردف ريتشر : لقد رأى بيترسون شخصًا ما، في سيارة أو شاحنة، من المستحيل أن يسير أحدهم قدمًا الآن وسط تبعات تلك العاصفة، فقام بيترسون بتتبع هذا الشخص، ثم أوقف تلك السيارة لتفقد هوية السائق عندها أرداه الأخير قتيلًا.

- مثلما حدث مع المحامي.

- نعم.

- هل تم الأمر بسرعة وبدون ألم؟

- تلك طبيعة الطلقات النارية في الرأس..

- هل نبحث عن غلاف الرصاصة؟

- لقد ارتد وسقط ثم أخذه القاتل معه، هو محترف..

- من هو هذا الرجل اللعين؟

صمتوا مرة أخرى، وفهم ريتشر في تلك اللحظة أن هذا هو السبب الحقيقي لجلبه لمسرح الجريمة، محاولة إجابة هذا

السؤال، من هو القاتل الأجير؟

ذهبوا لمخفر الشرطة بعدها وقال هولاند مشيرًا لمكتب بيترسون : ربما يجب أن نتفقد الرسائل البريدية والصوتية الواردة عليه، ربما وصلته رسالة ما دفعته بالذهاب لهذا المرآب..

- لا أعتقد أنه أتى للمخفر أولًا.

- لن نخسر شيئًا من التجربة.

- أنت المأمور وهذا قسمك، تفقد الرسائل بنفسك.

- لم أتعلم أبدًا كيفية التعامل مع تلك الأجهزة الإلكترونية، تفقدها أنت، أنا كنت الماضي وبيترسون كان المستقبل..

***

جلس ريتشر أمام حاسوب بيترسون وبدأ في تفقده، لم تكن هناك كلمات سر وكل شيء كان معدًّا وجاهزًا للاستخدام، أمسك ريتشر بالفأرة ونقر عليها، وانتقلت عيناه للشاشة المضيئة، هناك بريد صوتي واحد وارد من كيم بيترسون، صوتها كان مزيجًا بين الشجاعة والقلق والعاطفة وهي تسأله : متى ستعود للمنزل؟

تنهد ريتشر وتصفح البريد الإلكتروني، هناك رسالتان، الأولى من مكتب مكافحة المخدرات يؤكدون بعدم وجود مختبر لصنع المخدرات في جنوب داكوتا ويشكرون

بيترسون على اهتمامه ويطلبون منه التواصل في حالة توصله لمعلومات جديدة، البريد الثاني المكتوب كان تقريرًا من دورية المرور بخصوص مراقبة الطرق، والتقرير يشمل حوادث عدة في جنوب داكوتا بأسرها وليس بولتون فقط مثل العثور على ثلاث سيارات مسروقة وأربع شاحنات كذلك تم سرقتهم من أماكن متفرقة وعشوائية بالولاية، وجاري تعقب أربعة مشتبه بهم فيما يخص سرقة متجر في «مرتفعات سيوكس»، لا شيء بخلاف هذا، قال ريتشر لهولاند : لا شيء..

جلس هولاند ونظر لريتشر نظرة ذات مغزًى أعقبها بالقول : أنا بحاجة منك كي تحاول رسم شخصية القاتل لعلنا نتوصل لهويته.

هز ريتشر رأسه، أغمض عينيه لدقيقة محاولًا تخيل كل التفاصيل، فتحهم وقال بهدوء : ثلاثة أسئلة علينا إجابتها، لماذا أبطأ المحامي من سرعة سيارته عند رؤية القاتل؟ لماذا أوقف بيترسون سيارته في المرآب؟ ولماذا تم قتله الليلة بالأخص؟

- والإجابات؟

- لقد أبطأ المحامي من سرعته لأنه شعر بالأمان عند رؤية سيارة القاتل، وأوقف بيترسون سيارته في المرآب لأنه شعر أنه لا يوجد خطر حقيقي ممن يتعقبه، وتم قتل بيترسون في تلك الليلة بعدما قمت أنت ببث خبر أنه قد

توصل لمخزن المخدرات عبر أجهزة الراديو الخاصة بالشرطة.

أومأ هولاند برأسه وقد كان يتوقع الإجابة ثم قال : القاتل واحد منا، إنه شرطي..

خمس دقائق قبل حلول منتصف الليل، باقٍ من الزمن أربع ساعات.

الفصل السادس والثلاثون

ظل ريتشر وهولاند يعرضان كل جوانب تلك النظرية ويحاولان تحليلها، القاتل واحد من قسم شرطة بولتون، وقد كان مندسًّا بينهم طيلة الوقت، وليس بغريب قادم من خارج البلدة، الصياد الذي ينتظر بالعراء هو واحد من أهل القبيلة، يخدعهم طيلة الوقت، فكر ريتشر بأمر صناديق المجوهرات والذهب والأسلحة في القاعدة الجوية، كيف عرف بلاتو بأمرهم؟ الإجابة بسيطة، بلاتو لديه نفوذ عاتٍ، وقد استطاع أن يجند أحدهم في الطيران الجوي، ويبدو أنه فعل المثل مع شرطة بولتون، شخص مندس بينهم، يراقب وينتظر، ينقل المعلومات، يسمع البث الخاص بهولاند عن توصل لبيترسون لمخزن المخدرات، ويعلم أن الأخير سوف يتواصل مع مكتب مكافحة المخدرات، وتتوالى الأحداث بعدها، هذا الشرطي يوقف بيترسون ويطلب منه المساعدة بشأن شيء ما، يذهب الأخير طواعية دون أدنى قدر من الشك، قال هولاند : أنا السبب في مقتل بيترسون، بعدما أذعت خبر عثوره على الوكر وكونه بطلًا.

- لا تَلُمْ نفسك، لم يكن هذا خطأك، كنت لأفعل نفس الشيء لو كنت في موضعك، نحن لم نشك بكون القاتل واحدًا من فريقك، ولكن هذا يفسر لماذا لم يهاجم جانيت، لأنه كان يذهب معكم للسجن وقت إطلاق سرينة الإنذار..

- كيف أتوصل إليه؟

- قم باستدعاء كل رجالك لاجتماع عاجل، ضعهم كلهم في غرفة واحدة وواجههم بنظريتنا، وسوف تعرفه من تعبير وجهه.

- هل يجب أن أفعل هذا حقًّا؟

كانت تلك طريقة هولاند في طرح السؤال الشهير والتقليدي لرجل الشرطة ألا وهو «هل نحن محقون في نظريتنا؟»

تنهد ريتشر وقال : أخبرني عن كابلر، لماذا انتقل من فلوريدا؟

- كان هناك شائعات ما بخصوصه هناك دون أن يتم إثبات شيء، أنت تعلم طبيعة الأحوال في ميامي وتورط الشرطة في شبهات معينة مع تجار المخدرات، لكن كما قلت لم يتم إثبات شيء.

- رائع، وماذا عن لويل الذي طلق زوجته منذ عام؟ عليك معرفة ما حدث معه، أعتقد أن بلاتو قد جند رجل شرطة من قسمك منذ قرابة العام..

صمت هولاند مفكرًا ثم أومأ برأسه، قبل أن يفكر بصوت عالٍ : طاقم الشرطة في بيت السيدة سالتر أهل للثقة على ما أعتقد، هم لم يذهبوا لأي مكان وقت مقتل بيترسون أليس كذلك؟ جميعهم كانوا في مواقعهم ولديهم حجة

غياب، وأنت كذلك.

- هذا صحيح.

- إذًا يمكنني تركهم في مواقعهم وعدم استدعائهم لهذا الاجتماع أليس كذلك؟ آه المشكلة أن إدارة الفريق كان يتولاها بيترسون بشكل فعلي، لقد أهملت دوري، ولا أعرف الكثير عن المنضمين الجدد..

- نعم اترك طاقم الشرطة في بيت جانيت بمواقعهم لكن عليك تحذيرهم، لأنه عندما يشعر الجاسوس أن الحبال تضيق عليه سوف يجزع وربما يحاول محاولة أخيرة للتخلص من جانيت.

- لكنهم سينالون منه بعدها؟

- هذا في حالة لو حذرتهم فحسب، لأنهم لن يشكوا في شرطي زميل لهم..

- وبهذا ستكون مهمة انتحارية بالنسبة إليه.

- سيكون مستعدًّا لهذا، لأنه سيعلم أن أمره قد انكشف وهو ميت في كل الأحوال، لقد قتل المحامي ونائب المأمور، سيحاول إكمال مهمته بقتل السيدة العجوز.. كن واثقًا من هذا..

- ربما سيرفض الانصياع لأوامري ولن يأتي للاجتماع.

- وحينها ستكون قد كشفت هويته.

- إذًا هل يجب أن أنفذ تلك الخطة وأطلبهم جميعًا للاجتماع عدا فريق بيت جانيت؟

- نعم، كنت لأفعل هذا لو كان هذا فريقي أنا..

قام هولاند باتصالاته واستدعى الفريق، وصل سبعة رجال وتلى ذلك أربع نساء، ثم ثلاثة رجال كانوا يتولون نوبات الحراسة خارج بيت جانيت سالتر في الليالي السابقة، جلسوا جميعًا في غرفة الاجتماعات، قطب هولاند جبينه وأرسل النداء مكررًا أهمية وعجالة الأمر واستدعى باقي الفريق، وصلوا بعد وهلة، المحادثة كانت مربكة وغريبة، أحدكم قاتل، لا تثقوا بأحد، خرجوا قانطي الوجه من غرفة الاجتماعات، ورفع هولاند حاجبيه ثم هز كتفيه لريتشر قبل أن يقول : لم نبلغ كيم بيترسون بمقتل زوجها بعدُ.

- لا تخبرها عبر الهاتف، هذا ليس بخيار جيد.

- أعلم، أنا أريد منك الذهاب بنفسك لإخبارها.

- هل تمزح؟

- كلا، سأطلب من شرطي إيصالك إليها، عليّ تعقب القاتل هنا، وجوههم في الاجتماع لم تفصح عن شيء.

- لا توجد لي صفة رسمية هنا كي أبلغها بوفاة بيترسون.

- لقد قابلتها من قبل وأمضيت ليلة في بيتهم.

- تلك وظيفتك يا هولاند، عليك إبلاغها.

- أنا واثق أنك أديت هذا النوع من المهام سابقًا.

كاد ريتشر أن يرد فسارع هولاند بالقول : أنا لن أستطيع إبلاغها، لن أستطيع فحسب، لا تجعلني أفعل هذا، من فضلك.

***

شعر بلاتو بالضجر وهو ينظر من نافذة مقعده 1 ألف بالطائرة، لم يحب الطيران ليلًا، فلا يوجد ما يراه في السماء المظلمة، قام وسار بهدوء وحزم خارجًا من كابينة الدرجة الأولى بالطائرة، وألقى نظرة سريعة على رجاله السبعة المسلحين، مجرد رجال يمكن استبدالهم في أي لحظة، لأنه لا أحد منهم هو بلاتو، بلاتو الذي يتفقد الأمور بنفسه، والذي تغلب على الحياة، أهم عدو له، نظر لمؤن الطعام والشراب في الطائرة، والسلالم التي تقود لكابينة الدرجة الاقتصادية الخالية، واسم الشركة الأمريكية المصنعة للطائرة التي يملكها الآن وابتسم لنفسه، هو حقًّا قادر على فعل أي شيء، لا يوجد أحد يمكن أن يوقفه الآن.

***

جلس آمر السجن المدعو بكيليب كارتر في غرفته، كان رجلًا أمريكيًّا من أصل هندي، ولطالما اعتبرته قبيلة من الرجال قليلي الشأن، هو ينحدر من سلالة السكان الأصليين لأمريكا، وكما يدعونهم الآخرون بالهنود، وقبيلته

لا تزال تحافظ على تقاليدها، وثقافة الطوطم(5) لا تزال بداخلهم، لكن الأمور تغيرت الآن بالنسبة لكيليب، وقد أصبح ذا شأن بين رجال قبيلته، وبين فريقه كذلك، وأدى دوره وفقًا لتعليمات بلاتو إبان حالة الشغب بالسجن، وعلى أكمل وجه، الآن بإمكانه تزجية الوقت بقليل من المرح قبل العودة للعمل.

***

قاد الشرطي السيارة بريتشر لبيت كيم بيترسون، كان ريتشر يجلس واجم الوجه، ويتذكر تلك الليلة التي وعد فيها كيم أنه سوف يعتني بزوجها، والآن هو في طريقه لإخبارها بأن أحدهم قد وضع رصاصة في رأس زوجها وهو حتى لا يعلم من، أغمض ريتشر عينيه وانعطف الشرطي الصامت بالسيارة يسارًا ثم أوقفها أمام البيت ونظر لريتشر في صمت، خرج الأخير من السيارة، وأخذ نفسًا عميقًا ثم سعل مع تسلل الصقيع لرئتيه، ظل واقفًا أمام الباب دون أن يطرقه، هي بالداخل الآن، وأولاد بيترسون كذلك، وريتشر ليس سوى نذير الشؤم الذي يحمل الأخبار السوداء في جعبته، عادت ذاكرته للحظة ارتطام الحافلة وترجله ببولتون، لقاؤه ببيترسون، وجملة هولاند «ربما أراد أن يبهرك أنت أيضًا»، تنهد ريتشر وظل واقفًا أمام باب كيم بيترسون دون أن يطرقه وهو يرتدي معطف أبيها، هنا انفتح الباب، وأدرك ريتشر أن كيم كانت بالداخل قلقة وجزعة بشأن أندرو، متذكرًا بريدها

الصوتي له بصوت يمزج بين الشجاعة والقلق والعاطفة «متى ستعود للمنزل؟» والآن هي تجد ريتشر وليس أندرو، يقف أمام عتبة باب بيتها بوجه شاحب، نظرت له كيم بصمت، وبعينين زائغتين، وقرأت الخبر في عينيه، ثم سقطت أرضًا.

***

انتهى كيليب كارتر من وقت راحته وعاد لعمله في سجن مقاطعة بولتون، سار بهدوء وبوجه مطرب في ردهة السجن، وعيناه تتفقد المساجين في زنازينهم، لقد حان وقت إحصاء الأعداد، والحقيقة أن كيليب يعرف بعضًا من نزلاء السجن، المحليين منهم على أي حال، بعضهم كان معه في المدرسة قبل أن يختاروا الطريق الخاطئ، هم الآن نزلاء في سجن هو آمره بعدما كان صبيًّا هنديًّا قليل الشأن يتنمرون عليه، هناك عدالة بعد كل شيء، واصل كيليب كارتر جولته التفتيشية التي قرر القيام بها بنفسه وهو يمسك بالدفتر مريحًا إياه على ذراعيه والقلم في يده الأخرى، وواصل السير، أمامه تنتظر السبع زنازين في الطابق الأخير، أجددهم النزيل البدين، راكب الدراجة النارية، في الزنزانة السابعة، بدأ كيليب في تفقد الزنازين واحدةً تِلو الأخرى، وكتب في دفتره عند وصوله للزنزانة السادسة، شرد قليلًا وهو يفكر في تغير وضعه الاجتماعي الحالي، وحياة تطبيق القانون التي اختارها لنفسه، كان بإمكانه بسهولة أن يكون قابعًا في إحدى تلك الزنازين

لو لم يكن قد قام بالاختيار الصحيح، ثم توقف كيليب كارتر أمام الزنزانة السابعة، حيثما يفترض تواجد راكب الدراجة النارية، السجين رقم سبعة، ولكن الزنزانة كانت خالية.

أحدهم تمكن من الهروب..

الفصل السابع والثلاثون

لم يكن ريتشر سريعًا بما يكفي لالتقاط كيم بيترسون قبل أن تسقط أرضًا، حيث انحنى بمعطفه الطويل والتقطها بعدها فاقدة للوعي، بينما كان باب البيت مفتوحًا ودفء المنزل ينسحق تدريجيًّا مع الصقيع المقتحم له دون حياء، ولذا قام ريتشر بحملها مسرعًا ودخل بها البيت وركل الباب بقدمه لينغلق من خلفه، لقد رأى نساء تفقدن وعيهن من قبل، وركل العديد من الأبواب كذلك، ومثل كل ردود الأفعال البشرية فقد تم تدريبه عليها في الجيش، بعض البشر يفقدون وعيهم من الخوف أو الصدمة، وخطوتك الأولى هي الإمساك بالضحية قبل أن تسقط أرضًا، وقد فشل في هذا فشلًا ذريعًا، الخطوة الثانية هي أن تمددهم أرضًا، وترفع قدميهم عاليًا تاركًا رأسهم للأسفل، لكي تعمل الجاذبية عملها مع الدماغ البشرية، وقد فعل تلك الخطوة بنجاح، والخطوة الثالثة هي تفقد النبض وقد فعل هذا، أما الرابعة فكانت التحدث مع الضحية مع صفعهم برفق لمحاولة إفاقتهم وقد شعر بأن تلك خطوة قاسية للغاية لكنه اضطر لفعلها، لا رد ولا استجابة من كيم، حاول مرة أخرى فلم يحدث شيء، سوى أنه سمع صوت صرير الأدراج، أحد الأطفال استيقظ من نومه وخرج من غرفته، تصلب جسد ريتشر واتسعت عيناه وتسارعت دقات قلبه، لا يجب لطفل أن يرى أمه في تلك الحالة أبدًا، خطوات الطفل تقترب ثم ساد

الصمت، خلع ريتشر قفازاته مسرعًا وكرر التحدث إليها وهو يصفعها برفق، فتحت كيم بيترسون عينيها ونظرت لريتشر، الخطوة الخامسة هي إقناع الضحية بالاستلقاء دون حركة لمدة خمس عشرة دقيقة، ولم يحتج ريتشر لبذل الكثير من المجهود لإقناعها بتلك النقطة؛ لأنها بقيت مستلقية دون حركة، سألها برفق وهو ينظر لأعلى الدرجات، الطفل لم يظهر بعد، ربما ذهب لدورة المياه وعاد لغرفته، أجابته كيم : أتذكرك بالطبع.

- لديّ أخبار سيئة، أنا آسف.

- أندرو مات.

- نعم، أنا آسف للغاية يا كيم.

- متى؟

- خلال الساعة السابقة.

- كيف؟

صمت ريتشر قليلًا، كيف تخبر امرأة أن أحدهم قتل زوجها، قال لها : أحدهم أطلق عليه الرصاص.

- أين؟

- في رأسه.

أغمضت كيم عينيها في ألم ثم فتحتهما وقالت : قصدت أين حدث هذا؟

- آسف، في مرآب خالٍ بالقرب من وسط البلدة.

- ماذا كان يفعل أندرو هناك؟

- يتقفّى أثر شيء ما لا أعرفه.

- من الذي قتله؟

- الرجل الذي نبحث عنه.

- أندرو كان رجلًا جيدًا، وطيبًا.

- أعرف هذا.

- لديّ طفلان.

- أعرف هذا.

- ما الذي سأفعله الآن؟

قالتها وهي على وشك البكاء وقد دمعت عيناها بالفعل..

- سوف تأخذين الأمور رويدًا وبالتدريج، اليوم بيومه، الساعة تلو الأخرى، دقيقة بدقيقة..

أغمضت كيم عينيها وتركت دموعها تنساب، ثم قالت : حسنًا.

- ما سنفعله الآن هو الاتصال بأحد للقدوم والاعتناء بك، لن تكوني وحدك.

- لماذا لم يأتِ هولاند؟

- لديه تحقيق ضخم ليديره.

- لا أصدقك.

- لقد أراد المجيء لكن العمل أعاقه.

- لا أصدق أنه أراد المجيء.

- هو يشعر أنه مسئول عما حدث.

- كان عليه المجيء بنفسه.

- بمن تفضلين أن أتصل الآن ليأتي إليك؟

- جارتي.

- ما هو اسمها؟

- آليس.

- ورقمها؟

- مدون أسفل الهاتف.

بحث ريتشر بعينيه حتى وجد الهاتف فقال لها أن تنتظره وذهب ليجري المكالمة، التقط السماعة واتصل بالرقم المدون فأجابته امرأة ناعسة الصوت، ربما هي تعيش وحدها أو زوجها بالخارج على الطريق، ربما لديها أطفال يافعو السن، قال لها : آليس؟

- نعم، من أنت؟

كان يتفقد الرسائل الواردة على الهاتف وهو يتحدث معها دون أن يجد شيئًا، قال لها : أنا مع جارتك كيم بيترسون،

إنها بحاجة إليك، لقد قُتل زوجها اليوم.

استغرق الأمر برهة من الوقت كي تستوعب آليس الخبر ثم ردت على ريتشر لكنه لم يسمع ما قالت، لأن هناك صوتًا آخر مفاجئًا غطى على صوتها، صوت جاء من الخارج مع عويل الرياح ؛ صوت عالٍ وحازم ومقرر لمصير الجميع، سرينة إنذار السجن..

الواحدة صباحًا، باقٍ من الزمن ثلاث ساعات.

الفصل الثامن والثلاثون

رأى ريتشر خارطة ذهنية تعمها الفوضى داخل عقلها من حيث الأبعاد الثلاثة، الوقت والمكان والمسافة، الشرطة كلها بلا استثناء ذاهبون للسجن الآن من الشمال والشرق والغرب والجنوب، وجانيت سالتر ستكون وحدها الآن في البيت، تنتظر عودة ريتشر وهي في القبو، تذكرها وهي تطمئنه قبل رحيله «أنا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله»..

وضع ريتشر السماعة والتفت لكيم قائلًا : آليس في طريقها لهنا، يجب أن أرحل فورًا، أنا حقًّا آسف.

خرج ريتشر مسرعًا من البيت ثم أطلق سبة، لقد رحل الشرطي بالسيارة متجهًا للسجن، الآن يفهم جيدًا سبب رعب هولاند، البلدة كلها أصبحت خالية من الشرطة وبإمكان أي شيء أن يحدث في بلدة بلا رادع، نظر ريتشر لسيارة كيم رباعية الدفع وهرع إليها، لا يوجد مفتاح بالداخل، جرى عائدًا وظل يطرق الباب دون مجيب، في النهاية فتحت كيم ونظرت له بوجه شاحب وهي مستغرقة في كوابيسها الخاصة.

- كيم، أنا آسف بشكل لا تتخيلينه، لكني بحاجة لمفاتيح السيارة.

لم ترد، وإنما نظرت إليه بعينين زائغتين فحسب.

قالت بصوت واهن : المفتاح مع أندرو.

- ألا يوجد مفتاح احتياطي؟ فكري، لا بد من وجود مفتاح احتياطي.

- أعتقد أنه ضاع.

ثم ترنحت كيم وأغلقت الباب في وجهه وهي تكرر : أعتقد أنه ضاع.

وقف ريتشر بالخارج، وتلفت حوله، ثم قرر انتظار قدوم آليس، سوف تأتي بسيارة ويمكنه استعارتها، مر الوقت، صوت سرينة الإنذار يدوي من على بعد، وصلت آليس وهي قادمة سيرًا على أقدامها، كانت تسير بوجه شاحب وقامة فارعة وخُطًا متعجلة، هتف ريتشر فور وصولها : ألا تمتلكين سيارة؟

- المحرك لم يعمل، كيف حال كيم؟

- في حال سيئة.

كان يتحدث وهو يتلفت حوله بحثًا عن وسيلة نقل.

- لا أصدق أن أحدهم قتل أندرو، المسكينة كيم!

- عليك بالدخول إليها يا آليس، أمامكم ليلة طويلة.

- تقصد ليالي طويلة، سأبقى معها طالما احتجتني وسأتصل بوالدها.

- حظ موفق.

تحركت آليس متجهة لباب البيت، وبدأ ريتشر في الركض وسط الثلوج متجهًا لبيت جانيت سالتر، بينما كلماتها تدوي في أذنه قبل أن تذهب للقبو «لا تقلق بشأني»..

***

واصل ريتشر الركض وسط الثلوج اللعينة التي أبطأت حركته، ناهيك عن الرياح التي كانت ترتطم به وتكاد تسقطه للخلف، ظل يركض لعشر دقائق معتمدًا على ذاكرته للوصول لمنزل جانيت، وهو يأمل ويبحث بعينيه عن شخص ما واحد في سيارة لكي يقله لهناك، في النهاية لمح سيارة شرطة في الشارع المجاور تكاد تصل لنهايته وتنعطف للطريق الأمامي، عليه أن يلحق تلك السيارة، قفز للأمام وزاد من سرعته للدرجة القصوى، ولكن هذا لم يأتِ بفائدة، لا جدوى من محاربة قوى الطبيعة، وهو يعرف هذا جيدًا في قرارة نفسه، لكن كلمات جانيت لا تزال تكرر داخل عقله، «سأنتظرك»، «لا تقلق بشأني»، وصوتها الحاني في المرة السابقة عندما قال لها كلمة السر، بدت كطفلة مغتبطة، والآن أحدهم قادم لقتلها، عليه اللحاق بتلك السيارة، بدأ السائق في الانعطاف، لن يراه، صاح ريتشر بعلو صوته آملًا ألا تهدر الرياح تلك الصيحة، وتألمت رئتاه من البرد، ثم توقفت سيارة الشرطة، والتي كان بداخلها شرطية بوجه قد استيقظ منذ دقائق، لم يرَها ريتشر من قبل، لكنه ظل يشير إليها ويلوح وهو يعدو

اتجاهها حتى رآها تحسس سلاحها، فأوامر هولاند واضحة وصارمة، لا تثقوا ببعضكم البعض فما بالكم بالغرباء، وصل ريتشر للسيارة وصاح : أنا بحاجة إليك كي تقليني لبيت جانيت سالتر، نظرت إليه الشرطية في صمت ثم أولجت زجاج النافذة وقالت : لم أسمع ما قلته بسبب الرياح.

كرر ريتشر بيأس : أنا بحاجة للذهاب لبيت جانيت سالتر.

***

دوّت سرينة الإنذار وقالت الشرطية : من أنت؟

شم ريتشر رائحة خمر تنبعث من أنفاسها، قال : أنا أعمل مع هولاند وبيترسون.

- لقد مات بيترسون.

صاح ريتشر محاولًا التغلب على صوت الرياح : أعرف هذا.

- هل أنت رجل الجيش؟

- نعم وأنا بحاجة إليك كي تقليني لبيت السيدة سالتر.

- لا أستطيع فعل هذا، لديّ وجهة لأذهب إليها.

- تلك ليست وجهة السجن.

- بعضنا مكلف بنصب حواجز مرورية، لقد هرب راكب الدراجة النارية، أو البخارية أيًّا كان مسماها، لقد

هرب الوغد وزنزانته فارغة.

- مستحيل!

هتف ريتشر فقالت الشرطية متسائلة بتعجب : ما الذي تقصده بمستحيل؟

- إنه نفق، لم يهرب أحد، هذه مجرد خدعة، فهو لا يزال في السجن ويحاول إيهامكم بأنه هرب لتتركوا جانيت وحدها.

- الأوامر هي الأوامر.

- ستجدونه مختبئًا في خزانة ثياب ما.

- هذا محض هراء.

هتف ريتشر بنفاد صبر : الوغد لم يهرب، إنه يختبئ حتى يفقد الجميع الأمل في العثور عليه ولسوف يحاول الهرب حقًّا بعدها أو يعود لزنزانته وأنا أرجح الاحتمال الأخير.. الهروب من السجن ليس بأمر سهل، فكري فحسب فيما أقول، غدًا سيصاب بالجوع وسوف يخرج من مخبئه.

- أنت مخبول.

- هو لا يزال هناك، وحياة جانيت في خطر، افعلي الشيء الصحيح.

- أنت مخبول.

كررت الشرطية في شك، هتف ريتشر وهو يكاد

يتجمد : حتى لو كنت مجنونًا، وهو قد هرب بالفعل، حياة جانيت سالتر لا تزال في خطر، أنا أطلب منك خمس دقائق فحسب، تلك مقدار المدة التي سأصل بها لبيتها.

لم تجبْه الشرطية، وإنما رفعت زجاج نافذتها وتحركت بسيارتها مبتعدة، حاول ريتشر اللحاق بها لكن السيارة انطلقت بعيدًا وارتطم الجزء الخلفي منها بساقه فتعثر وسقط أرضًا، هب واقفًا وواصل محاولة الركض وسط الثلوج والرياح والعاصفة وصوت جانيت يتكرر داخل رأسه «لا تقلق، سأنتظرك».. واصل ريتشر العَدْو، وهو يشعر أن المسافة تمتد إلى ما لا نهاية بينه وبين بيت جانيت، يريد أن يرى معالم واضحة ليتأكد من أنه يعدو بالطريق الصحيح، واستعرض كل الاحتمالات داخل عقله، جانيت في القبو، ترفع مسدسها، أحدهم يقتحم الباب، بانج، رصاصة تنطلق، من أي مسدس؟ من الذي سقط صريعًا؟ اعتمل الغضب بداخله، ثم شعر بالإعياء والدوار، كاد أن يسقط مرة أخرى، الثلج يخدر جسده، المعطف يبطئ من حركته، لمح المطعم، آه معلم واضح أخيرًا، وهو يقترب، باقٍ ميلان، هيا يا ريتشر، واصل العدو، ترنح مرة أخرى واعتنف الدوار رأسه، أراد أن يفرغ جوفه، لكنه قفز للأمام بعناد ليستعيد توازنه وواصل الركض، هناك مصرف على يمينه، سينعطف يسارًا إذًا، كوني حية يا جانيت، باقٍ ميل واحد، رؤيته تضعف، التنميل والخدر ينتشران في جسده، ثم رأى مدخل بيتها، وقد

جدد هذا الطاقة بداخلها، هناك أضواء داخل البيت، لكن لا حركة ولا صوت صادرين من الداخل، كل شيء يبدو هادئًا، توقف ريتشر لثوانٍ، أخذ نفسًا عميقًا، ثم صعد الأدراج المؤدية لباب بيت جانيت سالتر..

الفصل التاسع والثلاثون

أدار ريتشر مقبض الباب لكنه كان موصدًا، طرقه فلم يأتِه رد، هذا جيد، لو كانت في القبو فهي لن تسمع الطرقات، هكذا تمنى ريتشر، وتخيل جانيت في القبو بالمسدس وكلمة السر المنتظرة، هشم النافذة الزجاجية وحاول القفز داخل البيت، لا صوت ولا حركة بالداخل، هدوء تام، لكن النافذة اللعينة لم تتسع له، أغمض ريتشر عينيه في غضب ثم فتحهما وأسرع نحو الباب الأمامي الخشبي، رفع ساقه وركل الباب ليهشمه، وعشرات الاحتمالات تتصارع داخل عقله عما سيجده بالداخل، وصاح فور أن دخل البيت : إنه أنا يا جانيت، ريتشر.. لأنه لم يرد لها أن تصاب بنوبة قلبية مع صوت تهشم الباب، وكرر صائحًا : إنه ريتشر..

ثم تلفت حوله وكرر ثلاث مرات : جانيت.

استل مسدسه وسار للأمام بحرص، بعدما رمى قفاز يديه، واتجه لباب القبو، كرر : جانيت، ثم أدار ريتشر مقبض باب القبو، ظلام بالداخل ولا مجيب، مد يدًا مرتعشة وأنار ضوء القبو متوقعًا رؤية جثتها، لكن القبو كان خاليًا، لا أحد هناك، مجرد ظلال، ذهب للأدراج المؤدية للطابق الثاني وصاح : جانيت..

لا رد، ثم تراجع للخلف بظهره، وبحث في المطبخ، لا أحد.. هنا توقف واختلج قلبه بألم من المفاجأة..

سار بخطوات مرتعشة للمكتبة، ليجد جانيت سالتر جالسة في مقعدها المفضل، عيناها متسعتان، وهناك ثقب رصاصة في منتصف رأسها.. كانت جانيت سالتر جثة هامدة الآن في مكتبتها..

توقف عقل ريتشر عن العمل، وارتخى كتفاه في حزن، سار محني الرأس وجلس جوار جثة جانيت، الآلام في جسده تتزايد مع التنميل والخدر، عقله اعتزل العمل ولا يريد استيعاب حقيقة ما حدث، أخذ ريتشر نفسًا طويلًا ثم التفت إليها، الرصاصة قد فجرت مؤخرة رأسها وتركت ثقبًا هائلًا بالخلف، وتلوث شعرها بالدماء، وانسابت إليه كلماتها السابقة عندما كانت تريد الجلوس معه «لدي وقت كافٍ للقراءة بعد انتهاء كل هذا».

وضع ريتشر يديه بين راحتيه ثم سقط أرضًا جوار جسدها، جدته التي لم يحظَ بها من قبل، وانسابت كل محادثاتهم السابقة لعقله.

اختلط جسده ببركة الدماء الخاصة بجانيت على الأرض أمام مقعدها، وبدأ تذكر كلماته ووعوده لها، ستكونين بخير..

أنا هنا لحمايتك..

أحمي الجميع..

لا تنسَ ولا ترحم.

ضرب رأسه بغضب، لقد كانت كلمات زائفة من رجل محتال وفاشل، تزايد بركان الغضب بداخله..

اعتدل وجلس جوار جانيت، ربت على يدها، ونظر لعينيها الشاخصتين والخاليتين من الحياة، ظل جالسًا جوارها، ولم يأتِ أحد للبيت، مد يده المرتعشة واتصل برقم يحفظه جيدًا.

- أريد الحديث مع سوزان.

- من؟

- آماندا.

صوت تحويل المكالمة، أتاه صوت سوزان تيرنر.

- ريتشر؟

لم يرد!

- ريتشر.. هل أنت بخير؟

لم يرد!

لم يقل شيئًا..

التفت ونظر لجسد جانيت سالتر الخالي من الحياة..

- ريتشر تحدث أو أنهى المكالمة.

- هل شعرت بالجوع من قبل يا سوزان؟

- الجوع؟ بالطبع، أحيانًا.

- لقد اختبرت شعور الجوع لستة أشهر متتالية إبان حرب الخليج، هناك في الصحراء حيث لم يكن هناك شيء لنأكله، وقد أكلت بشراهة عند عودتي من هناك، وبعدها بأعوام، على متن هذا القطار الروسي ذو الطعام الأمريكي، كنت أشعر بالضجر، وأردت معرفة سبب وجود طعام أمريكي في قطار، وما اكتشفته فيما بعد أننا نصدِّر هذا الطعام لروسيا والصين وغيرهما من البلدان، لكن قرار أحدهم كان تركنا نتضور جوعًا في الخليج، الجنرال الذي ترقى مؤخرًا، وقد أخذت المسألة على عاتقي الشخصي، لأن الوغد تسبب بجوع رجالي هناك، وبحثت في سجلاته المصرفية، هل تعلمين علام صرف أموال الطعام؟

- علام؟

سألته برقة وتفهم، قال : لا شيء لقد كان يدخره لتقاعده، وابتاع سيارة كذلك، طراز كورفيت 1980، كأنه يضم سيارة نادرة لمجموعته، وقد أفقدني هذا صوابي فواجهته في المكتب ولكمته في وجهه وسقط ليرتطم رأسه بمقعدك الحالي، كسر جمجمته ودخل في غيبوبة لستة أشهر، سحبوا مني قيادة الوحدة العسكرية بعدها وانتقلت بعيدًا، لا أذكر لأين، لكني كنت أشعر بأني فعلت شيئًا خاطئًا، وفكرت كثيرًا في الخطوة الصحيحة التي كان يجب عليّ فعلها، لكني لم أعرفها أبدًا.

- لقد فعلت ما فعلته من أجل فريقك.

- ربما.

- أنت كنت تحاول تصحيح الأشياء الخاطئة بالعالم.

- أنا لا أريد تصحيح الأشياء الخاطئة بالعالم، أنا فقط لا أحب هؤلاء الذي يرتكبون الأشياء الخاطئة.

- فهمتك.

- هذه هي قصة الانبعاج في مقعد مكتبك، قصة خالية من النبل والشرف كما ترين.

- ما الذي حدث يا ريتشر؟

لم يرد، كان يتحدث وهو ينظر لجانيت كأنه يخبرها هي بالقصة..

- لقد فقدت اثنين من رقع الشطرنج، سيدة عجوز وشرطي، كانا أصدقائي.

- رقع شطرنج، تلك ليست بلعبة يا ريتشر.

- أنا أعلم أنها ليست باللعبة، أنا أنظر لأحدهم الآن، والشيء الوحيد الذي يمنعني من تصويب مسدسي في جبيني وإطلاق الرصاص لأقتل نفسي هو التظاهر بأنها لعبة.. نعم، مسدس عيار 38، يستقر في غمدي.

- اتركه في جيبك إذًا، لا تلمسه.

لم يرد، لم يقل شيئًا، فقط نظر لجانيت..

- لا تفعل شيئًا أحمق يا ريتشر، لا تتهور مثلما فعلت مع

الجنرال.

- لا تقلقي واسترخي، لن أقتل نفسي، هذا ليس أسلوبي، سأظل جالسًا حتى ينفجر رأسي من تلقاء نفسه، أنا فقط لا أحب التفكير في أمر كهذا كلعبة، أنا آسف!

- لم يكن خطأك، وأنت تعلمين جيدًا أنها لعبة.

- وهل أنت في الربع الأخير منها الآن؟

- كلا، في الوقت الإضافي..

- أشركني معك في اللعبة وأخبرني بكل شيء كأننا شركاء سويًّا بها.

- نحن لسنا سويًّا.

- كلا، أنا معك الآن، أخبرني بما لديك.

لم يرد، لم يقل شيئًا، فقط نظر لجانيت..

- أخبرني بكل شيء يا ريتشر..

قص لها ريتشر كل شيء بالتفصيل عن جرائم بلدة بولتون وما حدث لبيترسون وجانيت سالتر، قالت له فور أن انتهى : مد يدك في غمدك واستل سلاحك، انسَ ما قلته سابقًا، القاتل قد رآك وهو يراقب البيت إبان تمضيتك للوقت مع جانيت، وسيفترض أنك رأيته كذلك، أنت هدف أخير للقتل الآن، سواء كان القاتل شرطيًّا من البلدة أو من السجن، بإمكانه التحرك خلسة دون أن

يلاحظه أحد، يراقب البيت ويتعرف على وجهك، لا تقل لي إن تلك احتمالات عدة ومتفرقة لأن هذا ما كنت لأقوله وفكر في الأمر، أنت في خطر الآن، هذا الرجل قد قتل المحامي وبيترسون وجانيت سالتر، بطلقة واحدة في رأس كل منهم، وهو يحتفظ بالرابعة من أجلك، ولا أحد يعلم بشأن هويته..

- وأنا كذلك لا أعرف هويته.

- هو لا يعلم هذا.

- لماذا لم يهاجمني حتى الآن؟!

- ألم تفهم بعدُ أنك تتعامل مع صياد محترف يأخذ وقته.. لا تعجل يعني لا مجال للأخطاء.. بالنسبة إليه أنت هدف من طراز خاص، لست شرطيًّا ببلدة صغيرة ولا محاميًا خائفًا أو سيدة عجوزًا، سيحضر خطة خاصة بالنسبة لك.. عليك بالخروج من بولتون والذهاب للفيدراليين من أجل الحماية.

- أنتِ تعلمين جيدًا أني لن أفعل هذا يا سوزان.

- أنت لم تكن مسئولًا عن حياتهم.

- خطأ، كنت مسئولًا.

كل ما جرى في بلدة بولتون كان ليحدث سواء كنت أنت موجودًا أم لا، و..

قاطعها ريتشر : بيترسون كان رجلًا جيدًا، وأراد أن

يثبت نفسه كشرطي بارع، لقد كنت أحبه، والسيدة سالتر، كانت امرأة رائعة لا مثيل لها..

- عليك بالخروج من بولتون يا ريتشر، بلاتو لن يصل للقاعدة الجوية وحده، ستكون رجلًا واحدًا في مواجهتهم جميعًا.

- أتمنى هذا.

- هناك خطورة قصوى هنا.

- بالنسبة إليهم.

أخذت سوزان نفسًا ثم قالت : هل تتذكر عندما كنت طفلًا في السادسة ورأيت الفيلم الذي به الوحش؟

- هل هذا لا يزال في ملفي؟

- فقرة محجوبة لكني طلبت الاطلاع عليها وقد فعلت ذاك لأني أهتم للأمر.

- لقد فهموا الأمر بشكل خاطئ وأخذوا مني مديتي مما أغضبني، ولدت كطفل مثل الجميع وكنت أبكي خوفًا وكل شيء ثم اكتفيت من كل هذا ودربت نفسي كي أكون أقوى وأكف عن الخوف.

- في السادسة من العمر.

- كلا في الرابعة، وقد انتهيت من تدريب نفسي في الخامسة من العمر.. أخذت عهدًا على عاتق نفسي بمواجهة

كل الأعداء، أجانب كانوا أو محليين، وبلاتو وهذا الشرطي القاتل ينطبق عليهم الوصفان.

- لقد أحلّوك من قسمك عندما تركت الجيش.

لم يرد، لم يقل شيئًا، فقط نظر لجانيت سالتر..

- كيف امتلكت مدية وأنت في السادسة من العمر؟

- ألم تمتلكين واحدة؟

- كلا بالطبع.

- هل لديك واحدة الآن؟

- كلا.

- عليك باقتناء واحدة.

- ريتشر اخرُج من بولتون، لا يجب عليك الفوز في كل مرة، لن تستطيع التغلب عليهم وحدك.

- لقد ضحيت بوظيفتي كقائد للوحدة العسكرية مقابل لكمة في وجه هذا الجنرال، لأني كنت جوعانًا، وتلك السيدة العجوز التي أنظر إليها كانت أهم بكثير من كوني جوعان أم لا.

- لن تستطيع التغلب عليهم، تعالَ لفيرجينيا ولنحل الأمر سويًّا.

لم يرد، لم يقل شيئًا، فقط نظر للسيدة سالتر..

- ألا تريد القدوم لفيرجينيا ورؤيتي؟

- بالطبع أريد فعل هذا.

- إذًا تعال.

- سأفعل هذا غدًا.

- تعالَ الليلة.

- في قلب الليل؟، كلا هذا توقيت مخصص لشيء مختلف، من أجلهم هم..

- هناك سؤال اعتدت أن تسألني إياه، لكنك توقفت عن طرحه.

- ما هو؟

- كنت تسألني لو أنني متزوجة أم لا.

- والإجابة؟

- لا.

نظر ريتشر لجانيت، وشعر بها تبادله النظرة، ثم أنهى المكالمة بعدما قال : سآتي غدًا.

خمس دقائق قبل حلول الثانية صباحًا.. باقٍ من الزمن ساعتان.

الفصل الأربعون

استرخى بلاتو في مقعده بالطائرة، كان يشعر أحيانًا أن حياته لعبة فيديو، وهو يتحكم دومًا بمصير اللاعبين الآخرين، لم يخسر ولو لمرة واحدة، هو دومًا في المقدمة، نظر في ساعته، باقٍ من الزمن سبع وخمسون دقيقة قبل وصولهم للقاعدة الجوية ببولتون، أضيئت شاشة هاتفه برسالة قادمة، لقد ماتت الشاهدة، ابتسم بلاتو، وتزايد استرخاؤه في مقعده، ثم اتصل بفريقه في شيكاغو وذاع لهم الأنباء السارة مثلما فعل هولاند عبر الراديو وقت اكتشافه للمخزن، ثم سند بلاتو رأسه على نافذة الطائرة المجاورة لمقعده، واحد ألف، لأنه دومًا الأول، طافت ذكريات بلاتو لطفولته، كان كبير الحجم لحين وصوله لسن السابعة، بعدها ظهر عليه قصر القامة الشديد، وكلما عانى من التنمر أو الألم بسبب حالته، تعظمت قوة شخصيته ونمت بدلًا من جسده، ابتسم راضيًا عن نفسه وأغلق عينيه، لا يمكن لشيء ولن يتمكن أحد من أن يوقفه الآن..

***

تحرك ريتشر من جوار جانيت سالتر وصعد للطابق الثاني، دلف لغرفة نومها ونظر لانعكاس وجهه في المرآة، تحسس المسدس في غمده، ثم عاد وأخذ سلاحها ووضعه في جانبه الآخر.. ثم تحرك..

***

وهناك.. عند الحاجز المروري المقام للقبض على الهارب من السجن، في تلك السيارة المتمركزة بمنتصف الطريق وسط الثليج المنهمر، جلس الشرطي الذي قتل المحامي وأندرو بيترسون وجانيت سالتر، بالمقعد الأمامي للسيارة بمفرده، هو يعرف أنه لا توجد حالة هروب حقًّا، تعليمات بلاتو كانت واضحة بافتعال حالة الهرب، والسجن ممتلئ بالأماكن القادرة على تخبئة السجين، وبلاتو يمتلك درجة من النفوذ والمجندين في كل المؤسسات لم يرَها الشرطي من قبل، تحسس سلاحه، ثم نظر لانعكاس وجهه في المرآة، لقد قتل كلًّا من المحامي وأندرو بيترسون وجانيت سالتر بسرعة واحترافية، هز الشرطي رأسه لنفسه في المرآة.

***

كان هناك شيء واحد متبقٍّ لريتشر كي يفعله قبل الرحيل من بيت جانيت، وهو يعلم جيدًا أنه لن يعود للبيت مرة أخرى، جلس في منتصف الأرضية، نظر للباب والشرفة والنوافذ والمداخل الخلفية، ثم أغمض عينيه متخيلًا مسرح الجريمة، ها هي ذي جانيت تجلس في القبو، الوقت يمر، لا يحدث شيء، تسترخي ويحل عنها التوتر، تقرر أنها بحاجة للخروج من القبو، مثلما قررت أنها تريد التنزه من قبل، فتقف وتخرج من القبو وتذهب للمكتبة، تأخذ كتابها وتبدأ بالقراءة، لتفرغ من طاقة القلق بداخلها، سيصل ريتشر بعد قليل وستقول له مماحزة إنها

لم تطق الانتظار في القبو، لكن ريتشر لم يصل، شخص آخر قد وصل، بزي الشرطة، ترفع جانيت رأسها له مبتسمة وتكاد تقول له ما قالته لهولاند من قبل، اذهب للسجن وقم بواجبك ولا تقلق بشأني، سأكون بخير، لكن الشرطي يرفع مسدسه صوب وجهها وهي لا تزال محافظة على ابتسامتها، لم يكن هناك وقت للفهم، تنطلق الرصاصة وتخترق رأسها، يفتح ريتشر عينيه ويغمغم : سأقتلهم جميعًا.

ذهب لمخفر الشرطة في قلب الليل سيرًا على الأقدام دون حاجة لعجالة، كان المخفر خاليًا تمامًا عدا المساعد المدني الذي نظر لريتشر فور دخوله، قال له الأخير : لا توجد حالات هرب في السجن، هو مختبئ.

- من الذي قال هذا؟

- المنطق.

كان ريتشر يفكر طيلة الطريق للمخفر قبل وصوله بأربع عبارات : «أنا لست خائفًا من الموت»، «الموت خائف مني»، «الخوف يتحول لغضب»، «عقدة الذنب تتحول لغضب» وفكر ريتشر في صمت وهو يقف في المخفر أمام المساعد المدني والغضب سلاح فتاك..

مط المساعد شفتيه مفكرًا فيما قاله ريتشر بخصوص زيف حالة الهروب ثم قال : في تلك الحالة سيستغرق الأمر ساعة قبل عودتهم.

نظر ريتشر للمساعد المدني وقال : اشرح لي كيف نتابع رجال الدورية من عندك، هل يريك الجهاز موقعهم على الخارطة الإلكترونية، أم أنك تستخدم الراديو في المواعيد المحددة للتأكد من كونهم في الخدمة معتمدًا فقط على ما يقولونه دون معرفة حقيقية بمكان تواجدهم؟

- هؤلاء رجال شرطة.

قالها الموظف باندهاش وأردف : لماذا أشك في مصداقيتهم؟ أنا فقط أراسلهم عبر المذياع، وهم يؤكدون كونهم في الخدمة بأنفسهم.

- اتصل بالمأمور هولاند إذًا، وقل له إن جانيت سالتر قد ماتت برصاصة في منتصف رأسها.

***

ترك ريتشر الموظف وتجول في المخفر الخالي، مر بغرفة بيترسون، وغرفة هولاند، وغرفة الاستجواب، ذهب لقسم الأدلة وسحب ملف المحامي، ونظر لمسرح الجريمة، ثم استقرت عيناه على ملف جديد، ملف مقتل أندرو بيترسون ومسرح جريمته، تنهد ريتشر وأمسك بالملف ثم فتحه، وجلس بعدها مستعيدًا تفاصيل مسرح الجريمة الخاص بجانيت سالتر، وعاد ليغمض عينيه، متجولًا بخارطة ذهنية لمسارح الجرائم الثلاث، افهم دوافعهم، ظروفهم، أهدافهم، مخاوفهم واحتياجاتهم، فكِّر مثلهم، وتبنَّ وجهة نظرهم، شاهد ما شاهدوه، كن في مكانهم..

أندرو بيترسون.. جانيت سالتر.. والمحامي.. جميعهم أعطوا الأمان لقاتلهم، بلا تردد، لأنهم وثقوا به، ليس فقط لكونه شرطيًّا بل لأنهم كانوا يعرفونه، وجه مألوف بالنسبة إليهم، تخيل ريتشر صوت أندرو بيترسون وهو يقول له : ما الذي كنت لتفعله لو لم تزل قائد الوحدة العسكرية وتتولى أمر تلك القضية؟ الإجابة : ريتشر أو سوزان أو أيًّا كان من في موضعهم كانوا ليرسلون الوحدة 110 لجمع كل المشتبهين بهم والبحث عن عامل مشترك بين الضحايا يتيح لهم التعرف على الوجه المألوف للقاتل، ورغم أن هذا ليس متاحًا لريتشر الآن لكن هناك دومًا وسائل أخرى.

لمح الموظف المدني يكاد ينصرف، رغم أن واجبه يحتم عليه البقاء لحين عودتهم، التفت الرجل وتبادل نظرة مع ريتشر الذي أومأ له برأسه بمعنى : انصرف لو أردت، أنا لست مديرك.

لكن الرجل تحرك وسار لريتشر وقال ببطء : شيء مريع ما حدث للسيدة سالتر.

- أعرف.

- هل تعرف من قتلها؟

- ليس بعدُ، هل اتصل أي أحد ليبلغ عن شيء مريب، جارٌ سمع طلقًا ناريًّا أو شيئًا من هذا القبيل؟

- كلا، أين قتلوها؟

- في مكتبتها.

تنهد الرجل بحزن، ثم قال : بيوتهم متباعدة لن يسمع أحد شيئًا يدور في بيت جاره وسط رياح عاصفة كتلك التي تداهمنا.

لم يقل ريتشر شيئًا..

- هل القاتل واحد منا؟

رفع ريتشر رأسه للموظف وقال : لماذا تسأل هذا؟

- لأن المأمور هولاند قد جمع الفريق كله وأخبرهم أن القاتل رجل شرطة قبل انطلاق سرينة الإنذار، وهذا يفسر الكثير من الأشياء عن كون القاتل خفي ويضرب في الظلام مثل الفهد قبل أن يختفي، هو يعلم بإجراءاتنا الأمنية مسبقًا.. العدو واحد منا..

- هل كنت شرطيًّا فيما سبق؟

- كنت مع هذا القسم لثلاثة عشر عامًا، وأتمنى أن أضع يديَّ على عنق هذا السافل الخائن..

- أنت تحدثت معه الليلة من ضمن آخرين عندما كنت تتفقد مواقعهم.

- جميعهم بدوا طبيعيين بالنسبة إلى الموقف الحالي..

- هل تعرفهم جيدًا؟

- جميعهم عدا الجدد منهم.

- هل كان أي منهم قريب المعرفة بالسيدة سالتر.

- العديد منهم، جانيت سالتر كانت داعمة لكل سكان البلدة وتسديهم النصح في الكثير من الأمور، كانت سيدة من ذهب، نعم.. كانت سيدة من ذهب..

***

رن هاتف بلاتو وهو جالس في طائرته، أخبرته المكالمة بأن المال الوارد من الطرف الروسي قد تم تحويله لحساب بنكه المصرفي بالخارج في أوروبا الشرقية، ويتم نقل الأموال من حساب لآخر يخصون شركات وهمية الآن قبل غسيلهم، ابتسم بلاتو مفكرًا أنا ساعات عمل المصرف لا تنفد أبدًا، وفي تلك اللحظة بالذات يتم نقل المال لحساب خاص به في هونغ كونغ، الحقيقة أن بلاتو كان في غاية الإطراب من نفسه، لعله أثرى رجل في العالم كله الآن.

أنهى موظف المصرف في هونغ كونغ مكالمته مع بلاتو واتصل برقم آخر في بروكلين، نيويورك، وأجابه الطرف الروسي الذي كان يدفع للموظف أضعاف ما يدفعه بلاتو، قال له الموظف : لقد أخبرته بأن النقود في طريقها لحسابه المصرفي.

- جيد، والآن ألغِ المعاملة النقدية.

قالها صاحب الصوت بلكنة روسية غليظة.

وامتثل الموظف لأوامره ثم قال : تم.

- شكرًا لك.

أنهى الروسي المكالمة ثم اتصل برقم يخص «مكسيكو سيتي»، بوكالة أمنية هناك، وأجابه رجل برتبة عقيد، أخبره الروسي بأن كل شيء يسير وفق الخطة فقال العقيد : بلاتو في طائرته الآن، وقد أقلعت الطائرة منذ ثلاث ساعات.

- أعلم هذا.

- أريد خمسة عشر بالمائة.

صمت الروسي متظاهراً بالانزعاج من هذا المطلب، هو قد اتفق مع العقيد على عشرة بالمائة، ويأخذ هو الباقي، لكنه كان يتوقع مطلب المزيد، والعقيد كان رجلًا سطحيًّا وغير طموح وضيق الأفق، قال الروسي : أنت مفاوض عسير.

- خذ العرض أو ارفضه.

- أنت تجعل الأمر وكأنه لا يوجد لديّ خيار.

- لا يوجد لديك خيار بالفعل.

فترة من الصمت قبل أن يقول الروسي : موافق.

- شكرًا لك.

أنهى الروسي المكالمة ثم طلب رقمًا آخر، لا يمكن تعقبه، متواجدة في غرفة نوم بفيرجينيا، حيث التوقيت الثالثة

صباحًا هناك، وهذا الهاتف يخص العميل الخائن في مكتب مكافحة المخدرات، والذي كان صديقًا لابن عم نسيب الروسي، أجاب عميل مكافحة المخدرات هاتفه بعد الرنة الثالثة وأخبره الروسي أن كل شيء يسير وفق الخطة، سأل العميل : هل تعدني بهذا؟

ابتسم الروسي دون أن يظهر تلك الابتسامة في صوته، العميل يتحدث كأنه مبتدئ في مكالمة عمل تخص مكتبه بشأن قضية كبرى يتوقف عليها مستقبله المهني، والخطة كانت تقسيم غنائم محتوى السرداب الخفي بقاعدة الطيران الجوي، قال الروسي : أعدك بهذا.

- شكرًا لك.

تزايدت ابتسامة الروسي لمدى سخافة مطلب العميل، لكنه سيلتزم باتفاقه معه رغم هذا، هو يريد المخدرات والعميل يريد الذهب، طموح الروسي يمتد لخطط بعيدة المدى وليس فقط نقودًا سريعة التحصيل، قام الروسي بكتابة رسالة نصية بعدما أنهى المكالمة وأرسلها لرقم آخر، وقد وصلت تلك الرسالة لصاحب الرقم الجالس في الطائرة وسط رجال بلاتو، وكان هذا هو الرجل الذي قاد سيارة بلاتو للمطار، اهتز هاتفه في جيبه وهو في وضع صامت فأخرج الرجل الهاتف وقرأ الرسالة النصية من الطرف الروسي، وكان محتواها هو الآتي.. «نفِّذ» فارتفعت عينا الرجل للآخر الجالس أمامه، تلاقت أعينهما للحظة، ثم هز كلٌّ منهم رأسه للآخر بإيماءة سريعة وخافتة.

***

رفع ريتشر رأسه وتوقف عن التفكير بجانيت سالتر عندما مكابح سيارة هولاند تتوقف أمام مخفر الشرطة، سمع الباب ينفتح ثم رأى هولاند وهو يسرع الخطا، وقال الأخير فور رؤية ريتشر : هل أنت متأكد؟

- نعم.

- أحيانًا يكونون على قيد الحياة.

- لقد ماتت يا هولاند.

- هل نذهب ونتفقدها؟

- لا حاجة لفعل هذا الآن، علينا إيجاد القاتل.

- نحن لا نتملك أي فكرة عن هويته، لم نصل لشيء.

هز ريتشر رأسه موافقًا قبل أن يقول : لكني أمتلك طريقة ستجعلنا نصل إليه.

الفصل الواحد والأربعون

قال ريتشر بهدوء بينما الراحلة جانيت سالتر تحتل موضعها داخل عقله : تقرير الطقس يشير لتزايد العاصفة بالغد، والقاعدة الجوية خالية بعد رحيل أصحاب الدراجات، الفرصة الوحيدة لقدوم بلاتو هي الليلة، وهو يمتلك طائرة خاصة وفقًا لما تقصيت أنا وبيترسون عنه، إنه في طريقه الآن، في الطائرة، مع طاقم حراسة خاص، لأن أمثال بلاتو لا يرتحلون وحدهم أبدًا، وإنما يشترون الرجال المسلحين للحماية ولأنهم لاوعيًا يشعرون بالوحدة ولن يرافقهم أحد طواعية، والشرطي، القاتل الأجير، الذي يعمل لبلاتو سوف يذهب للقاء رئيسه الليلة في القاعدة الجوية، كل ما علينا فعله هو أن نسبقه إلى هناك، سنذهب للقاعدة، وننتظر قدومه قبل هبوط الطائرة على الممر المتعرج هناك..

- أنت تعتقد ذلك حقًّا؟

- واثق منه، كل ما علينا فعله هو الذهاب والانتظار، وسوف يأتي ويكشف لنا عن وجهه..

- ربما ننتظر لساعات.

- كلا، الوقت يمر، لن يطول الانتظار، بلاتو يريد أخذ الشحنة وتعبئة طائرته بالوقود ومواصلة رحلته، لن يجازف بأن يحاصر هنا بسبب العاصفة.

- ونحن سنختبئ هناك في هذا الطقس البارد وننتظر؟

- طقس بارد؟ غمغم ريتشر وأردف : أنا لا أشعر بالبرودة.

***

فكر هولاند ببطء وراقبه ريتشر بعناية منتظر قراره ثم قال هولاند : حسنًا، هيا بنا.

خمس دقائق قبل حلول الثالثة صباحًا، باقٍ من الزمن ساعة واحدة.

***

لا شيء يتحرك في الشتاء المثلج، هذا ما فكر فيه ريتشر وهو يجلس جوار هولاند الذي قاد السيارة بصعوبة وسط الرياح العاتية، ثم قال ريتشر : لكم من الوقت تتوقع أن يظل رجالك في السجن قبل عودتهم؟

- هذا القرار يعود لآمر السجن، لا يوجد وقت، أعتقد ساعة أخرى.

- إذًا أي شرطي سنجده عند القاعدة الجوية سيكون رجلنا.

- هذا لو وجدنا أحدًا..

انعطف هولاند بالسيارة مرتين وقادها عبر الطريق العمومي ثم انعطف يسارًا للمرة الثالثة وقاد السيارة عبر

الممر المتعرج والأشجار الكثيفة على جانبيه، وعلى بعد مائتي متر من القاعدة الجوية، قال هولاند لريتشر الذي ظل صامتًا طيلة الطريق : أين أوقف السيارة؟

أجاب ريتشر في هدوء، وهو جالس واضعًا كلتا يديه في جيوبه : لن يمثل هذا فارقًا.

- ما الذي تقصده بأن هذا لن يمثل فارقًا؟ علينا تخبئة السيارة، سيراها الرجل عندما يصل.

- لقد وصل بالفعل.

- ماذا؟

- لقد وصل للتو.. في تلك اللحظة.

أبطأ هولاند من سرعة سيارته، تدريجيًّا، حتى توقفت، وأبقى قدمه على دواسة البنزين بدلًا من المكابح، ثم قال بصوت ونبرة مختلفة : متى عرفت؟

- متى تأكدت أنه أنت؟ منذ ثلاثين دقيقة، متى بدأت في الشك بأمرك؟ منذ إحدى وثلاثين ساعة للدقة.

- هل كان شيء فعلته أنا الذي كشف أمري؟

- أشياء لم تقلها، ولم تفعلها.. مثل أنك لم تغلق أنوار كشافات سيارتك عندما دخلنا الممر، ماذا لو كان القاتل المزعوم هناك بالفعل؟ كان سيرى أضواء السيارة من على بعد أميال وسوف يستعد لقدومنا، لكنك كنت تعلم أنه لا يوجد أحد، لا قاتل مزعوم ينتظر، لأنه أنت يا هولاند،

أنت القاتل..

- أنت مخطئ.

- كلا، أنا محق.. هل تعرف ما هو أول شيء فعلته أنت عند خروجنا من سراديب القاعدة الجوية؟ لقد اتصلت لتذيع خبر العثور عليها ولم تتصل بمنزل جانيت سالتر للاطمئنان عليها، واضطررت أن أذكرك كي تتصل بها، وفي النهاية بيترسون هو من فعل هذا، لأنك كنت تعلم مسبقًا أنها على قيد الحياة، لأنك لم تقتلها بعدُ.

لم يقل هولاند شيئًا!

أردف ريتشر : عندما كان بيترسون قلقًا بشأن انطلاق سرينة الإنذار في الثامنة مساء، سألني إن كنت مسلحًا أنا وجانيت سالتر، أراد الاطمئنان وأنت لم تفعل هذا كذلك.

- ربما افترضت أنكم مسلحون بناء على معرفة سابقة بحيازة جانيت سالتر لأسلحة وهي طلبت مني الذخيرة بالمناسبة.

- الافتراض وحده ليس كافيًا، كان عليك التأكد من أننا مسلحون، اثنان مدنيان عرضة للقتل في أي لحظة، تلك هي مسئوليتك يا مأمور البلدة.

لا تعليق من هولاند!

تابع ريتشر : عندما وجدناك تواجه راكبي الدراجات

في بداية الأمر، كانت تلك تمثيلية سخيفة كذلك، لم تكن هناك أي مواجهة، لقد كنت تتلقى أوامرك منهم، إنهم رسل بلاتو.. أنت كنت تقف معهم لتلقي الأوامر عندما سمعت سيارة بيترسون تقترب فألقيت سلاحك واشتبكت مع أحدهم في عراك وهمي..

لا تعليق من هولاند!

- وعندما وصلت أنا مع بيترسون للقاعدة الجوية، عندما اكتشفنا مكان المفتاح وجدناك هنا، وأخبرتنا أنك هنا أيضًا لأنك خمنت مكان المفتاح بدورك، تمثيلية أخرى سخيفة لأنك كنت تعرف مكانه بالفعل، كنت تتفقد الأمور من أجل رئيسك عندما وصلنا، وعندها عرفت أن بيترسون سيرى أشياء بالداخل لم يكن من المفترض له رؤيتها أبدًا، لذا كان أول شيء فعلته عند خروجك هو نسب الاكتشاف إليه ودعوته بالبطل، لأنك انتويت قتله خلال الساعة التالية، والآن هناك ستون مشتبهًا به غيرك يعرفون بأمر اكتشافه لقاذورات بلاتو المخبأة بالداخل.. كما أنك كذبت عليّ بصدد كابلر، حاولت إلقاء الشبهات حوله وتحدثت معي عن شائعات تورطه في تجارة المخدرات بميامي، لكن هذا كله هراء لأني سألت وتقصيت عنه بالفعل ولم تأتني أي معلومة حول شبهة تورطه في صفقات مشبوهة.

- ولماذا لم أقتل بيترسون ونحن تحت الأرض؟

- لأني كنت هناك يا هولاند، وأنت تخاف مني، لقد تفقدت سجلي العسكري بالجيش، المرأة من فيرجينيا أخبرتني أن مأمور بلدة بولتون طلب الاطلاع على ملفي، وبناء عليه فهمت أني لست بهدف سهل مثل المحامي وأندرو بيترسون وجانيت سالتر، ثلاثتهم كانوا يعرفونك ويثقون بك، المحامي توقف من أجلك على الطريق، وبيترسون كان ليتبعك في أي مكان لأنك بالنسبة إليه قدوته وأبوه الروحي، ولا بد أن جانيت سالتر كانت سعيدة لرؤيتك قبل أن تخرج مسدسك..

لا تعليق من هولاند!

- ثلاث رصاصات قاتلة وغادرة، نحن نبحث عن قاتل أجير قادم من الخارج، بينما مأمور البلدة هو القاتل طيلة الوقت، والآن أنت تحتفظ بالرصاصة الرابعة من أجلي.. لكنك لن تتمكن من إطلاقها يا هولاند، أنت رامٍ بارع، لكني أكثر براعة وذكاء منك، وأنت شعرت بهذا ولهذا تفقدت ملفي العسكري في الجيش، ولذلك كنت شديد الحرص معي، تحاول الاقتراب مني ومعرفة ما أفكر به ومقدار ما أعرفه، وأنت تعرف جيدًا أني أسرع منك، من حركة يدك أرى أنك تفكر في سحب سلاحك، كن واثقًا أن رصاصتي سوف تستقر داخل عينك قبل أن تختمر الفكرة في ذهنك.

لم يقل هولاند شيئًا، تنهد ريتشر وأضاف : كان يجب عليّ معرفة أنه أنت منذ إحدى وثلاثين ساعة بالضبط،

عندما انطلقت سرينة إنذار السجن للمرة الأولى فور اندلاع حالة الشغب، الحقيقة كانت تحدق في وجهي لكني لم أرَها، لم أفهم أبدًا جملة «لقد رآك القاتل في تلك الليلة دون أن تراه ولذا تراجع عن الهجوم»... لقد انطلقت سرينة الإنذار وذهبت قوات الشرطة للسجن لإخماد حالة الشغب وبقيت أنا مع جانيت سالتر، ثم أتيت أنت، لتؤدي مهمتك وتقتلها، ولذا فأنا رأيت القاتل جيدًا عندما رآني قبل لحظة الهجوم التي تراجع عنها، لأنه أنت، وقد أتيت لقتلها في تلك الليلة.

- لقد أتيت لحمايتها.

- كذبة أخرى، أنت دخلت البيت وتركت محرك سيارتك بالخارج يعمل، وأنت تعلم كما قلت بعدها أن حالة الشغب قد تستمر لأيام، لو كنت قد أتيت لحمايتها فأبسط شيء يمكن عمله هو إطفاء محرك سيارتك، لكن خطتك كانت بسيطة، تدخل وتقتلها ثم ترحل مسرعًا... وتذهب لتثبت وجودك وحجة غيابك في السجن بعدها، ما الذي سيمثله فارق عدة دقائق؟ ومن الذي سيشكك بمأمور البلدة في نهاية الأمر؟ لكنك اندهشت لرؤيتي معها فور وصولك، واحتجت وقتًا كي تفكر، مثل مقدار الوقت الذي كنت تفكر فيه هل نذهب سويًّا الآن للقاعدة الجوية وننتظر قدوم القاتل الخفي أم لا، في البدء لم تردْ لنا الذهاب، كنت تماطل وتفكر، بعدها قررت أن نذهب، لأن خطتك كانت قتلي هنا، وفي تلك الليلة، ليلة

اندلاع الشغب بالسجن، أنت لم نتوقع وجودي مع جانيت سالتر، وكل من السيدة سالتر وأنا اعتقدنا أنك تمر بصراع بداخلي بشأن واجبك في حمايتها أو الذهاب للسجن، لكن كنت تحاول أن تقرر أليس كذلك؟ تقرر إن كنت أحمل مسدسها معي في تلك اللحظة، ولو كان معي فهل سوف تستطيع سحب سلاحك بشكل أسرع مني، وفي النهاية كان استنتاجك أني سأكون أسرع منك، ورحلت، لذا لم يهاجم القاتل جانيت سالتر في الليلة الأولى لخلاء قوات الشرطة، وكان عليّ معرفة حقيقتك حينذاك..

سحب هولاند نفسًا عميقًا، وزفر بخارًا، ثم ضيّق عينيه وقال : أنت تعرف السبب أليس كذلك؟

- نعم، أعرف السبب لعملك مع بلاتو وقتلك للسيدة العجوز والمحامي ونائبك الذي كان يعتبرك أباه الروحي.

- كيف تعرف السبب؟

- لأني عندما رأيتها للمرة الأولى في الكابينة شعرت وكأني رأيتها من قبل، لكني لم أستطع تحديد أين، والآن أعرف، لقد رأيت صورتها على مكتبك، وهي تشبه والدتها، كانت تلك هي ابنتك المراهقة في الكابينة الخاصة بالمخيمات وأصحاب الدراجات..

- إذًا أنت تتفهم موقفي.

- ابنتك لم تكن سجينة ولا مختطفة، لقد خبئوها بشكل مهمل وغير مبالٍ، لأنها كانت هناك باختيارها الشخصي..

ربما بسبب المخدرات أو حبها لطبيعة تلك الحياة معهم عندما هربت من بيتك.

- هذا لا يقلل من كونها بريئة وواهنة وعرضة للاستغلال.

- لا تعطني أعذارًا لقتلك لجانيت سالتر وأندرو بيترسون يا هولاند، ابنتك قامت باختياراتها.. وعلى أي حال كان هناك عشرات الحلول الأخرى لإنقاذ ابنتك منهم بدلًا من العمل معهم.

- أعرف، أنا آسف.

- آسف؟ ثلاثة موتى وأنت آسف؟!

لم يرد هولاند، ضغط بقدمه فجأة على دواسة الوقود وأصدر محرك السيارة صريرًا عاليًا، وانطلقت السيارة بهما للأمام، بسرعة خارقة فوق الأرض الممهد لهبوط الطائرة، الأرض التي قضى راكبو الدراجات أيامًا يجرفون الثلوج عنها، انطلقت السيارة بسرعة قصوى، ونظر ريتشر بطرف عينيه لبوابة القاعدة الجوية في نهاية الممر، تنظر لهم وللسيارة منتظرة الارتطام الحتمي، استل ريتشر سلاحه وصوبه لرأس هولاند فترك الأخير وضغط بعنف على دواسة الوقود، دفع بيد ريتشر فانطلقت رصاصة مرت جوار أذن هولاند وهشمت الزجاج، انطلقت يد هولاند كالقذيفة لتلكم ريتشر في أنفه، ارتد رأس الأخير وارتطم بزجاج النافذة التي تقبع خلف رأسه، في حين قبضت

يد هولاند على معصم ريتشر في يده الممسكة بالسلاح، استخدم ريتشر قوة ارتداد رأسه للخلف وتجاهل الألم ثم ضرب هولاند برأسه في وجهه بكل ما أوتي من قوة، تحطم أنف هولاند وسمع ريتشر صوت العظام وهي تنكسر، التفت ريتشر ونظر لأضواء السيارة التي انعكست على البوابة، فأدار المقود بعنف متفاديًا الارتطام، صرخت إطارات السيارة وهي تنقلب بهما بقوة قبل أن تستقر على جانبها وهي مهشمة تمامًا، سعل هولاند وتساقط زجاج ودماء من فمه، ونزف رأس ريتشر من جبهته بسبب قطعة زجاج استقرب به، مد يده وانتزع الزجاج ثم صوب مسدسه صوب هولاند، وبرقت عيناه بمعنى «ولا حركة» ثم دفع بجسده وحاول الخروج من نافذة السيارة متمنيًا ألا يعلق جسده بها، لكنها لم تكفِه، أطلق سبة وضرب الباب الحديدي المنبعج بكوعه فانفتح، خرج ريتشر من السيارة ثم مد ذراعه وجذب هولاند من كتفه وأخرجه منها قبل أن يقف الاثنان وسط الثلوج جوار السيارة المهشمة.. وقال هولاند ببطء : ما الذي ستفعله بي؟

نظر إليه ريتشر، وانتزع منه سلاحه قبل أن يقول : انظر لما فعلته، لقد هشمت السيارة، كيف سأعود لبلدة بولتون الجميلة الآن؟ ثم أردف بصرامة : لنسير معًا، وأبقِ يديك حيثما أستطيع رؤيتهما..

«سيكون لديّ وقت كافٍ للقراءة بعد انتهاء كل هذا».

ترددت جملة جانيت سالتر داخل رأس ريتشر، وتذكر

جملته هو «أنت تجني ثمار أفعالك»..

سار هولاند أمام ريتشر والأخير يحمل المسدس من عيار 38 الذي كان مع جانيت سالتر وقت مقتلها، انعكست ظلال الليل والقمر على أجسادهم المغطاة بالثليج الأبيض، وقال ريتشر : أخبرني بكل ما تعرفه عن بلاتو.

توقف هولاند واستدار لريتشر قائلًا : لم أرَه من قبل، كنت أتلقى مهماته عبر الهاتف أو بواسطة راكبي الدراجات.

- هل هو سيئ كما يصفونه؟

- أكثر سوءًا وشرًّا مما تخيل..

- وما المفترض أن يحدث الليلة؟

- كما توقعت أنت، إنه قادم لأخذ الذهب والمخدرات..

- ومن المفترض أن تساعده؟

- نعم، كنت سأعطيه المفتاح وبعض المعدات.

- حسنًا.

قالها ريتشر بهدوء ثم رفع مسدسه وأطلق رصاصة استقرت بين أعين هولاند، سقط المأمور جثة شاخصة البصر للقمر والسماء المظلمة، وسط الثلوج وانسابت دماؤه مكونة بركة صغيرة، نظر ريتشر لجثته في صمت، ثم رن هاتف هولاند داخل جيبه..

الفصل الثاني والأربعون

مد ريتشر يده داخل جيب هولاند وأخرج هاتفًا بشاشة مكسورة، أجاب زر الاتصال، وأتاه صوت متقطع إثر تغطية سيئة لشبكة الهواتف الخلوية، لكن صاحب الصوت كان ذا نبرة عالية، وأتاه النداء أشبه بصيحة، «هولاند»..

إذًا بلاتو هذا، الرجل ضئيل الحجم، هو المتصل، الرجل المسئول عن إراقة الدماء في بولتون.

كرر بلاتو : هولاند.

أجاب ريتشر : نعم.

- أمامنا خمس عشرة دقيقة ونصل، نحن بحاجة للأضواء في ممر الهبوط.

ثم انتهت المكالمة، نحن في طريقنا؟ كم عددهم بالضبط؟ وأضواء هبوط؟ أي أضواء تلك؟ نظر ريتشر لسيارة هولاند المحطمة، هل كان سيستخدم الأضواء الخاصة بكشافات السيارة؟ لن يروا شيئًا فتلك الأضواء قصيرة المدى على ما يعتقد، كما أن السيارة محطمة ولا يوجد سبيل لاستخدام تلك الأضواء الآن، هناك معدات كهربائية على جانب ممر الهبوط لكن لا أضواء، والآن أمامهم أربع عشرة دقيقة كي يصلوا، بحث ريتشر في جيوب هولاند وأخذ مفتاح القاعدة الجوية، وأربع عشرة طلقة في خزانة رصاص إضافية، ومسدس المأمور الراحل، جر بعدها جسد هولاند الملقى وسط الثلوج وتركه جانبًا

بعيدًا عن الممر، باقٍ ثلاث عشرة دقيقة، ثم ذهب وبدأ في تفتيش الصندوق الخلفي للسيارة، وجد مقتنيات تقليدية ستجدها في أي سيارة، إطار إضافي، مقص كبير، سترة مرور، أربع كشافات يدوية، صندوق صغير، وحبل متين، والباقي كان أكياس قمامة لم تُستخدم، لا شيء يخص أضواء هبوط طائرة في ممر، باقٍ من الزمن اثنتا عشرة دقيقة، تخيل ريتشر المشهد من وجهة نظر الطيار في البوينج 737، ممر مظلم، عاصفة ثلجية، الطيار سيمتلك خارطة إلكترونية، لكن لا ممر مراقبة أو تعليمات هبوط من الطائرة، لا شيء رسمي أو قانوني سيسري في تلك الليلة، ما الذي كان هولاند سيستخدمه كأضواء للممر؟ فكر ريتشر بحرص، نيران في الأرجح، كما كان طيارو الحرب العالمية يهبطون بطائراتهم متبعين خطوط النيران الطويلة المرسومة على شاكلة حرف «لام»، باقٍ إحدى عشرة دقيقة، كلا ليس نيرانًا.

اتجه ريتشر لمقدمة السيارة وأغلق الباب المنبعج، أخذ نفسًا عميقًا وكتمه بداخله ثم انقضّ على السيارة الصغيرة بكل قوة وبدأ في دفعها، هيا يا ريتشر، أنت رجل قوي، بإمكانك فعلها، تلك سيارة صغيرة ومهشمة بعد كل شيء، في البدء لم تستجب السيارة له وبدا أنه يحاول دفع حائط مبنى، ثم تزحزحت أخيرًا، أطلق ريتشر صيحة، متذكرًا صعود السلالم، المائتي درجة، هذا تمرين رياضي من نوع مختلف الآن، ارتفعت السيارة ثم سقطت

معتدلة لوضعها الطبيعي، وقف ريتشر يلهث، ونفض يديه، ثم أراح المكابح وضغط دواسة الوقود بقدم بينما نصفه خارج السيارة مستندًا بقدمه على الأرض، وبدأ في دفع السيارة للأمام حتى توارت بين الأشجار، أخذ بعدها الكشافات اليدوية من الصندوق الخلفي للسيارة، ثم بدأ في تفرقة الكشافات ووضعهم في الممر بزاويات متساوية، ربما ضوء النيران الحمراء المنبعث منها مع ضوء القمر سيكفي لهبوط الطائرة، لكن هذا لا يبدو جيدًا بما يكفي، باقٍ تسع دقائق، هولاند تحدث عن معدات، والكشافات اليدوية هي الإضاءة الوحيدة المتاحة، لا يوجد حل آخر، ربما نيرانها ستكون أقوى مما يتوقع، الآن عليه إيجاد قداحة، تلفت ريتشر حوله، وذهب ليفتش هولاند للمرة الأخيرة، لم يرَه يدخن من قبل، لم يجد قداحات مع هولاند، ذهب عدوًا للسيارة وأمسك بالصندوق الصغير بداخلها وحاول فتحه، رماه أرضًا ثم هشمه بقدمه ونظر بداخله، لا قداحات، أخذ نفسًا ونظر داخل الصندوق الخلفي للسيارة، التمعت القداحة في الركن على انعكاس عينيه، التقطها وعاد مسرعًا، أشعل الكشاف الأول وانبثقت منه النيران الحمراء بقوة كأنها احتفال بيوم الاستقلال، لقد كان مخطئًا، تلك الإضاءة ستكون كافية، فقط عليه إيجاد الوقت لإشعال الباقي قبل قدومهم، جرى للكشاف الثاني وأشعله، مائة ياردة تفصله عن الكشاف الثالث، وباقٍ أقل من ثلاث دقائق، ركض نحو الكشاف وأشعله، ثم انطلق كالرمح ووصل للكشف،

انحنى ليشعله، انزلقت القداحة من يده وسط الثلج، انحنى وبحث عنها بسرعة، التقطها، أشعل الكشاف الأخير، **باقٍ من الزمن دقيقتان..**

سطعت الأنوار الحمراء في الممر.. الآن عليه العودة لموضعه قبل هبوط الطائرة، الخطط تذهب للجحيم عندما تنطلق الرصاصة الأولى، وخطته كانت الاختباء داخل القاعدة الجوية وقتلهم واحدًا تلو الآخر فور وصولهم للسراديب، لكنه لا يعتقد أنه سيصل للقاعدة من الممر قبل هبوط الطائرة، هناك حوالي ثلاثة أميال تفصله عن المبنى.. حاول الركض مرة أخرى لكن الأضواء سطعت في السماء وتغير مجرى الرياح، وظهرت الطائرة البوينج 737 في قلب السماء المظلم كطائر رخ عملاق وأسطوري، أطلق ريتشر سبة ثم توقف ونظر للأشجار الكثيفة على جانبي الممر، وانسل بينها بسرعة، ثم رفع رأسه وراقب الطائرة المقتربة، بدا له أن حجمها يكبر تدريجيًّا مع اقترابها المرعب، كائن عملاق يقترب من القاعدة الجوية، تحركت عجلاتها وبدأت في الانزلاق ثم لامسوا أرض الممر، شعر ريتشر كأن الطائرة قد مرت من فوق رأسه، وتحركت عيناه معها وهي تتدحرج فوق أرضية الممر ثم تبدأ في التوقف ببطء، هنا رأى أضواء ساطعة لشاحنتين تقتربان من على بعدُ، توقيتهم ممتاز، على الأقل سيجد وسيلة للخروج من هنا ولن يتجمد موتًا الآن بعد انتهائه منهم، أنا لا أخاف الموت، الموت يخاف مني،

كذا فكر لنفسه واسترسل في أفكاره، كن واثقًا دومًا من الفوز، سمع صوت سوزان تيرنر في رأسه وهي تقول : هذه ليست لعبة.

غمغم وهو مختبئ بين الأشجار : هي دومًا لعبة يا عزيزتي سوزان..

اقتربت الشاحنتان، في الأغلب سوف يستخدمونهم كوسيلة لتحميل الصناديق للطائرة، الشاحنة الأولى كانت تخص شركة وقود، باسم شيلي، والثانية كتب عليها كلمة «إسوزي» بالخط العريض، هنا عدل ريتشر من غطاء رأسه، وياقة معطفه ثم خرج وأوقف السيارة التي أوقفها بالعرض كأنه يسد الممر، لم يكن لأحد أن يتبين حالة السيارة المهشمة في الظلام، والمعطف الذي يرتديه يعود لوالد كيم بيترسون الذي كان من رجال القانون، وفقط رجال الشرطة يستخدمون سيارة مثل سيارة هولاند، وبالتأكيد هناك إخبارية لسائقي الشاحنات بوجود شرطي فاسد في انتظارهم، أوقف سائق الشاحنة عربته جوار ريتشر ونظر للأخير، لوح له ريتشر مبتسمًا، تفقده السائق لدقيقة ثم أشار له أن يعتلي متن الشاحنة، فهز ريتشر رأسه وصعد، وعاودت الشاحنة الحركة، متجهة بريتشر لمصير غامض وغير معلوم.

الساعة الثالثة صباحًا وسبع وعشرون دقيقة.. باقٍ من الزمن ثمانٍ وعشرون دقيقة.

الفصل الثالث والأربعون

توقفت الطائرة من طراز بوينج 737، وبدت كبيرة الحجم للغاية، راقبها ريتشر وهي تستقر في نهاية ممر الهبوط بينما تقترب الشاحنة منها رويدًا، بدا أنه هناك حوالي ستة رجال وصبي صغير قد خرجوا من الطائرة، ثم ميز ريتشر بلاتو بسهولة، كان قصير القامة مثل الأطفال لكنه لم يكن متقزمًا، بخلاف هذا فتقاسيم وجهه وبنيته كانت تناسب رجلًا كبيرًا، كان يرتدي سترة جلدية سوداء وسروالًا أسود، وغطاء رأس مماثلهم في اللون، في العقد الرابع أو الخامس من العمر، رجاله الستة ارتدوا نفس الملابس، سترة جلدية وسروالًا كلاهما أسود، قفازات جلدية وغطاء رأس يماثلهم في اللون، بلاتو كان يسير داخل درع بشري وسط الرجال الستة، ربما بحكم العادة، أو التباهي، لم يعرف ريتشر السبب، جميعهم يحملون بنادق آلية من طراز «هيكلير وكوخ» «م ب 5»، بنادق أوتوماتيكية معلقة على أكتافهم، وريتشر يعرف أن كل بندقية بها حوالي ثلاثين طلقة، ترجل سائق الشاحنة، ففعل ريتشر المثل ووقف وسط الرياح، بدا له أن بلاتو يشعر ببرد شديد، أما طاقم حراسة بلاتو فقد بدوا غير مصدقين لهذا الصقيع وبعضهم بدأ في الارتجاف بالفعل، فقد كانوا يعلمون بالفعل أنهم ذاهبون لمنطقة ثلجية لكن توقع الشيء والاحتكاك به أمران مختلفان تمامًا، كان بلاتو يتحرك يمينًا ويسارًا في نفاد صبر، لكن سائق الشاحنة قد أخطأ في

فهم لغة جسد الرجل الصغير وفسرها على أنها حماسة فقال مبتسمًا بعدما انضم لهم سائق الشاحنة الآخر : ها قد وصلنا.

نظر إليه بلاتو بوجه بلا تعبير وقال ببطء : وماذا بعد ذلك؟

- نحن نريد المزيد من المال.

قالها السائق بوضوح وبساطة، ومن الواضح أنه قد تناقش بشأن هذا المطلب مع زميله وهم يجلسان يجرعان الجعة في حانة ما، بنفس البطء قال له بلاتو : كم تريد؟ قالها بإنجليزية سليمة، بها قليل من اللكنة الغريبة، أجابه السائق : ضعف المبلغ المتفق عليه.

- الضعف؟

- نعم.

التفت بلاتو وقال شيئًا ما بالإسبانية للرجل الرابع من رجاله، قالها ببطء كافٍ لريتشر كي يفهم الجملة، أو السؤال بالأحرى، «هل تستطيع قيادة تلك الشاحنة والعمل على المعدات؟»، أجاب رجله: «أعتقد ذلك، لقد جربتها مع شاحنات الغاز، عدة مرات، لكن لم يكن هناك ثلج، لكن.. أعني.. لا أعتقد أن الأمر سيكون صعبًا و..»

قاطعه بلاتو : أجبني بنعم أو لا.

- نعم.

التفت بلاتو صوب سائقي الشاحنة ورفع البندقية الآلية المستلقية من كتفه وصوب فوهتها نحو سائقي الشاحنة وأفرغ رصاصها في صدورهم، فهموا في الثانية الأولى ما سيحدث عندما صوب بلاتو فوهة البندقية إليهم، في الثانية بدت حيرة على وجوههم هل هذا تهديد أم تنفيذ؟ ثم انطلقت الرصاصات، وتناثرت دماؤهم على وجه ريتشر، رغم لحظة صيحاتهم وتوسلاتهم بينما الرصاص يمزق كل موضع في أجسادهم قبل أن يخروا صرعى وسط الثلوج.. أعاد بلاتو تعبئة البندقية الآلية.. بينما الدخان يخرج من فوهتها، لم ينطق أحد بحرف ولم يبدُ أن أحدهم يبالي بما حدث، بينما نظر ريتشر بصمت لبلاتو، لم تهتز يده ولو للحظة واحدة، ولم يخطئ ولو برصاصة واحدة، دقة رهيبة في التصويب وخبرة بالقتل، التفت بلاتو صوب ريتشر وقال : لا بد أنك المأمور هولاند؟

- نعم، أنا هو..

- أخيرًا نلتقي..

- نعم.

- لماذا باب القاعدة مغلق والمعدات ليست بالخارج؟

لم يرد ريتشر، كان يفكر : أي معدات تلك؟

أردف بلاتو : ابنتك لا تزال تحت سيطرتي كما تعلم أيها

المأمور..

- أين هي؟

- أنت تعلم أنها قد انتقلت معهم، هي تحيا الحياة التي لطالما حلمت بها.

- هل هي بخير؟

- حتى تلك اللحظة، نعم، لكن حياتها رهن إشارتي، حتى لو لا تعلم هي هذا، والآن أجب عن أسئلتي.

- سيارتي تعطلت والمعدات في الصندوق الخلفي..

- أين سيارتك؟

- في الجهة الأخرى من الممر.

لم يرد بلاتو، وتلك من صفات القائد البارع، لا داعي للتذمر إثر اللبن المسكوب، فقط التفت لأحد رجاله وقال بالإسبانية : خذ الشاحنة وأحضر معداتنا من صندوق سيارة المأمور هولاند.

ذهب الرجل وصعد في الشاحنة ثم أدار محركها بعدما أخذ المفاتيح من جثة السائق وتحرك بها، استدار بلاتو وقال لريتشر : أين مفاتيح القاعدة؟ أخرج ريتشر المفاتيح من جيبه وتحرك بلاتو وسط درعه البشري وأخذها من ريتشر، الذي كان يفكر هل يغرز المفتاح في عين بلاتو أم يتركهم ليسقطوا أرضًا ليتسبب بتشتت قبل أن يبدأ بالهجوم عليهم، لكنه لم يفعل أيًّا من هذا، بلاتو ورجاله

يحملون بنادق آلية جاهزة للانطلاق في أي لحظة، تحركت الشاحنة مبتعدة والتقط بلاتو المفاتيح، ثم وقف بلاتو جوار ريتشر، فكر ريتشر في التقاط رأس بلاتو ودق عنقه، لا تزال فكرة سيئة، ربما يستل مسدسه ويفرغه في رأسه، لكن ستظل مشكلة البنادق الآلية القائمة، لم يفعل ريتشر شيئًا، قال له بلاتو : والآن تخلص من معطفك..

- ماذا؟

- تخلص من معطفك..

- لماذا؟

- لماذا تجادلني؟

ست بنادق آلية مستعدة للانطلاق، أجاب ريتشر : أنا لم أجادلك، لقد وجهت لك سؤالًا..

- لأنك ذاهب معي للسراديب..

- لماذا أنا؟

- لأنك ذهبت هناك من قبل وتعرف الطريق.. أنت مرشدنا المحلي..

- بإمكاني الذهاب معك مرتديًا معطفي.

- هذا صحيح.. هذا صحيح.

قالها بلاتو وهو يومئ برأسه قبل أن يضيف : لكنك ترتدي ثيابًا مدنية وليس الزي الرسمي للمأمور ولذا أنت لا

تحمل حزام الشرطة بالمسدس والرصاص أليس كذلك؟ وكما أرى فإن معطفك الثقيل والمغلق هذا يحمل أربعة مسدسات في جيوبه، أنا رجل ذكي، ولا أريد الدخول لمنطقة غير مألوفة مع عدو يحمل أربعة أسلحة.

- هل أنا عدو لك؟

كرر هولاند : أنا رجل ذكي والافتراض العقلاني أنك رجل يحتمل كونه حليفًا أو عدوًّا..

- الجو بارد.

- كذلك سيكون قبر ابنتك.

ست بنادق آلية مستعدة للانطلاق، خلع ريتشر معطفه وألقاه أرضًا معتذرًا لكيم بيترسون مرة أخرى داخل عقله، لم يبقَ وعده في الحفاظ على حياة أندرو أو العناية بمعطف أبيها، سقط المعطف أرضًا بالمسدسات الغلوك والسميث آند ويسون، الذي ورثته جانيت سالتر عن جدها، ظل بلاتو مكانه دون حركة، قريبًا ستعود الشاحنة، كان ريتشر يعلم أن السائق الجديد لتلك الشاحنة يريد الانتهاء من مهامه بسبب الطقس، وهذا يقلل من احتمالية كونه قد لاحظ أن سيارة هولاند قد تعرضت لحادثة مروعة، ربما لاحظ وافترض أنها حادثة قديمة، ربما ظن أن هولاند قد هشم الزجاج محنقًا عند تعطل السيارة، لكن لو الرجل قال لبلاتو شيئًا عن حال السيارة التي أخذ منها المعدات - التي لا يزال ريتشر يجهل ماهيتها

وكينونتها - فإن أمره سيكون قد انتهى تمامًا، الفرصة الوحيدة أن يدخل المبنى مع بلاتو قبل عودة الشاحنة، لأن بالتأكيد السائق سيصف حال سيارة هولاند لبلاتو، هنا قال الزعيم : لندخل..

وتحرك صوب مبنى القاعدة الجوية المهجور، **الساعة الثالثة صباحًا وثلاث وثلاثون دقيقة، باقٍ من الزمن اثنتان وعشرون دقيقة..**

الفصل الرابع والأربعون

تحرك السبعة رجال ببطء صوب المبنى، حيث كان بلاتو في المنتصف، ريتشر جواره، ويحيط بهم الدرع البشري من الرجال، بينما تشتد الرياح وتعصف، الثلوج تنهمر، وريتشر يسير بلا سلاح واحد وسط مجموعة من القتلة العتاة، جوار الرجل المسئول عن جانيت وأندرو، وصلوا للبوابة وأولج بلاتو المفتاح ثم أداره، انفتحت البوابة العملاقة، أشار بلاتو لأحد رجاله أن يدخل أولًا، وأضاء رجل كشافًا من طراز «ماج لايت» مصنوع في أونتاريو، كندا، كشاف فعال وساطع الإضاءة، أفضل بالكثير من الكشاف ذي البطارية المحدودة الذي كان مع ريتشر في زيارته الأولى، المكان بالداخل كان بالضبط كما رآه ريتشر في زيارته الأولى مع رجلين كلاهما موتى الآن، نظر بلاتو لريتشر وقال : بعدك أنت يا سيد هولاند..

وهذا قد خيّب آمال ريتشر، وقد كان يفكر في السيناريو الآتي، بلاتو يدخل أولًا قبل ريتشر، وبينما يهبط السلالم المستديرة للمخزن القابع تحت الأرض في السراديب، في تلك السلالم المستديرة الأشبه بسلالم رجال الإطفاء، يضربه ريتشر بحذائه طويل العنق في وجهه ويهشم عظامه ويتركه يسقط جثة صريعة أسفل الأرض، نعم فقد معطفه لكنه لم يفقد حذاءه بعد، إلا أن هذا السيناريو لن يحدث الآن لأنه سيسبق بلاتو بالدخول... وهذا الرجل حقًّا ذكي، تقدم ريتشر المسيرة ودخل المبنى، سمع بلاتو

يصيح بالإسبانية ملقيًا التعليمات لرجاله : أنت ستقف هنا، وأنت هناك في الشمال، والباقون سوف ينصبون المعدات فور أن تعود الشاحنة، تحركوا باستمرار كي لا تتجمدوا حتى الموت، هيا بنا..

ثم استدار بعدها وتبع ريتشر للداخل..

أدرك ريتشر أنه يتصرف فعلًا مثل هولاند ولا ينتحل شخصيته فحسب، هو يحاول الارتجال وقفًا للموقف الحالي بأي طريقة، ساروا عدة أمتار بالداخل، وبالخارج عادت الشاحنة محملة بالمعدات في صندوق آخر لم يرَه ريتشر في السيارة الخاصة بهولاند، قفز سائق الشاحنة خارجها برشاقة واستقر بحرفية وسط الثلوج رغم أن تلك هي مرته الأولى ثم حمل المعدات للرجال وبدءوا في نصبها، بينما وقف اثنان يحرسان جهتي الممر كما أمرهم بلاتو، المعدات كانت سلالم معدنية وحاملات تنسد فوقها لتسهل عملية نقل الصناديق للطائرة، وثبتوا طرفيها في الشاحنتين واستقرت الجهة بمدخل الحمولات الخاص بالطائرة، ولم يقل سائق الشاحنة شيئًا عن حال السيارة الفورد الخاصة بهولاند.

نظر بلاتو للسلالم المستديرة ثم لريتشر، وقال للرجل الذي دخل معهم : انتظرنا هنا.. ثم أشار ريتشر لكي يبدأ في الهبوط على تلك السلالم، المائتي درجة التي أحصاهم ريتشر من قبل، بدأ ريتشر في تسلقهم للأسفل، بسرعة، محاولًا الابتعاد عن بلاتو أو آملًا أن يحاول الأخير الزيادة

من سرعته فينزلق ويموت، لكن هذا لم يحدث، لقد تحرك بلاتو خلفه ولحق بريتشر كلما ابتعد عنه للأسفل وهو ينزل السلالم المستديرة، وبالخارج اقترب الرجل الذي كان يقود الشاحنة من زميله الواقف في نوبة حراسة، تبادل كلاهما نظرة سريعة ثم نظروا للخلف ليتأكدوا من كون الجميع مشغولين في نصب المعدات ورجل الحراسة الآخر يوليهم ظهره، ثم عادوا لتبادل نظرة أخرى قبل أن يخرج السائق هاتفه الخلوي الذي تلقى عليه رسالة «نفذ» من الرجل الروسي، وأدار الهاتف ليرى الرجل الآخر - الذي كان يجلس قبالته في الطائرة - الشاشة والرسالة النصية التي أرسلها السائق وهو في طريقة للعودة بعد التقاط المعدات وكان نص الرسالة كالآتي : سيارة المأمور محطمة، لا يوجد سبيل للخروج..

الرد من الطرف الروسي : سوف أضاعف أجرك.

لم يكن قد أجاب على تلك الرسالة بعد، ونظر لزميله في تردد ثم انتقلت أعينهم بسرعة للشاحنة، وسيلة تحرك بعد كل شيء حتى لو كانت بطيئة، كذا فكر كلاهما، ثم وصلته رسالة أخرى من الطرف الروسي : سأعطيك ثلاثة أضعاف أجرك، نفذ..

أومأ له زميله برأسه، هذا مبلغ كبير، واغتيالهم بلاتو سيكون سهلًا هنا، أرسل الآخر : موافق.

***

واصل ريتشر هبوط الأدراج وهو يحصيهم داخل عقله، باقٍ ثمانون درجة، ومن خلفه يتبعه بلاتو.

***

تحرك الرجل وترك زميله في نوبة الحراسة وذهب ليحرك الشاحنة لتكون في وضعية أفضل أمام الطائرة.

***

مثلما حدث في المرة السابقة، استقرت قدما ريتشر فوق الأرضية بالدور الأشبه بالأنفاق، ونصب قامته، شعر بفوهة بندقية تلتصق في ظهره والأخير يقول : تحرك..

تنهد ريتشر ثم سار للأمام وبلاتو يتبعه، انحنى وقوّس يديه على ركبتيه ثم بدأ الزحف داخل النفق المعدني، الذي يقود للسرداب الأول، وقال بلاتو : هل يقود هذا النفق للذهب؟ لم يجبه ريتشر، كان يفكر كالمحموم، بلاتو لم يكن فارع القامة، بينما ريتشر ضخم كالعمالقة، وهولاند ميت بالخارج، للحظة شعر ريتشر أن العالم كله قد دار رأسًا على عقب وأنه مرهق ويهذي، نعم بلاتو قصير القامة ولم يعامله أحد باحترام أو يلاحظه أو يعطيه معاملة حسنة إلا عندما أصبح ذا نفوذ وقوة، ولكن هنا في تلك الأنفاق، والأسطح الضيقة الشبيهة بالمناجم، الميزة ستكون في صالح الرجل قصير القامة وليس الرجل الطويل، كرر بلاتو : أين الذهب؟ بينما إصبعه يستقر على زناد البندقية، أشار ريتشر بإصبعه فور خروجهم من النفق للصناديق،

ووقف ريتشر محني القامة، هنا ومن فتحة علوية لم يرها ريتشر من قبل سقطت أكياس القمامة المتينة ومعها الحبل، رفع ريتشر حاجبيه فقال بلاتو : الأمر ليس مسألة رياضيات معقدة، سنعبئ الذهب والهيروين داخل تلك الأكياس وهم سوف يسحبونها وينقلونها بالشاحنة للطائرة، الطائرة ستحمل ستة عشر طنًّا، أمامنا وقت لا بأس في التحميل..

- هذا سوف يستغرق أسبوعًا كاملًا.

هز بلاتو رأسه وقال : كلا، عشر ساعات فحسب، بعدها سيحين موعد ظهور السجين ذي الدراجة البخارية بعد خروجه من مخبئه وتنطفئ سرينة إنذار السجن ولسوف يعود رجالك للبلدة.. وأنا رتبت مع آمر السجن أن يبقى رجالك هناك لمدة عشر ساعات.

لم يقل ريتشر شيئًا..

أضاف بلاتو : سوف نبدأ بالذهب، أين هو؟

كاد ريتشر أن يرد ثم توقف عندما سقط من الفتحة العلوية مثبت معدني مزود بحبل أسود آخر، وسمع إطارات شاحنة الوقود تتحرك، كرر بلاتو بنفاد صبر : أين الذهب؟

لم يجبه ريتشر، كان يقدر الوقت ويحسبه، أحد الرجال قادم إليهم، هو يسمعه، مائتا درجة، يعني دقيقتين أو ثلاث قبل وصوله إليهم، وهذا وقت كافٍ لقتل بلاتو،

«أين الذهب؟»

- لِمَ لا تجده بنفسك؟

صوت الأقدام يقترب.. كرر بلاتو مبتسمًا : أين الذهب؟ لم أحضرك هنا كي أجده بنفسي.

شعر ريتشر بالإعياء، وبطنين في أذنيه، وانساب ألم مفاجئ في ركبتيه، في الأغلب هو أصيب بعد انقلاب سيارة هولاند وقد بدأ جسده في استيعاب تلك المعلومة الآن، رفع بلاتو فوهة بندقيته بعدما تظاهر أنه ينظر لساعة يده ويتفقد الوقت ثم قال : فرصتك الأخيرة، أين الذهب؟

أشار له ريتشر في إجهاد وتبعه بلاتو، ثم وقف ينظر مشدوهًا لسبائك الذهب وبريقها ينعكس على عينيه وصاح : أحضر أكياس القمامة، ذهب ريتشر وجلب الأكياس ثم عاد لبلاتو الذي قال : أين «البودرة؟»

قاده ريتشر للصناديق التي تحتوي على المخدرات وتفقدها بلاتو، بينما خطوات الرجل القادم تقترب، قال بلاتو : جيد، جيد، حوالي الثلث، سنحمل حتى تمتلئ الطائرة.

- كنت أعتقد أنك قد بعت كل هذا للروس.

- تلك حقيقة.

- لكنك ستأخذ المخدرات والذهب رغم هذا.

- لن آخذهم كلهم.

- تلك خدعة..

- أنت قتلت ثلاثة أشخاص منهم صديق لك، لكنك متضايق من أجل شخص روسي لا تعرفه.

قالها بلاتو ضاحكًا فرد ريتشر : كنت أفضِّل أن تكون من النوع الملتزم بوعوده ليس أكثر.

- لماذا؟

- لأني أريد لابنتي أن تكون بخير..

- هي مع هؤلاء الرجال بإرادتها الحرة واختيارها، وعلى أي حال لا تقلق، سوف أختفي من حياتك بعد عشر ساعات.

- لن تكون بحاجة إليّ بعد هذا.

- سوف أتركك تحيا، أنت فعلت الكثير من أجلي، تأخرت في التخلص من الشاهدة اللعينة لكنك أنجزت الأمر في النهاية...

لم يقل ريتشر شيئًا، ابتسم بلاتو مضيفًا : أنا ملتزم بكلمتي، فقط ليس مع الروس..

وصل الرجل الخاص ببلاتو، بملابسه السوداء والبندقية الآلية والكشاف المزود أسفل فوهتها، كان يتفقد المكان بعدم اهتمام، مجرد رجل يقوم بوظيفته، والتقط فوهة أنبوب معدني تم إنزاله من الفتحة العلوية وبدأ يوصله في

خزان الوقود بالسردات، لبدء عملية ضخ الوقود في الطائرة، قال بلاتو لريتشر : اذهب وعبّئ الحقائب الورقية بالذهب أولًا..

تركهم ريتشر وابتعد ثم زحف عبر النفق عائدًا لسرداب صناديق الذهب، تلفت حوله، لم يتبعه أحد، فأسرع مبتعدًا عن صناديق الذهب، وهو يعلم جيدًا أن بلاتو لن يخرج من هنا حيًّا..

الفصل الخامس والأربعون

«نفذ» كلمة بسيطة من ثلاثة أحرف تحمل بين طياتها وعود بحياة ثرية وسعادة أبدية، ابتلع الرجلان ريقهما، وهما يفكران برسالة الروسي، لقد اقترب موعد التنفيذ، ونظر كلاهما لوسيلة الهرب، الشاحنة، ثم عادا لمواصلة أعمالهما مع باقي الرجال في ضخ الوقود للطائرة وانتظار خروج الشحنة لنقلها لطابق الحمولة بالطائرة..

***

باقٍ من الزمن إحدى عشرة دقيقة.

***

جلس ريتشر في نهاية النفق الأخير، فهو يحفظ تلك المتاهة جيدًا، لكن بلاتو لم يأتِ هنا من قبل، وفي النهاية سيلاحظ بلاتو أن ريتشر قد تأخر وسيأتي للبحث عنه تاركًا رجله يشرف على عملية ضخ الوقود من جهة السرداب، ولذا جلس ريتشر متربعًا في صمت بالظلام، ينتظر، بعد دقائق أتاه صوت بلاتو وهو يصيح : هولاند.. هولاند؟

تردد صدى الصوت، وجلس ريتشر في صمت دون رد..

هولاند، أحضر مؤخرتك وتعالَ، صفقتنا لم تنتهِ بعد، تذكر ابنتك، سأمزق وجهها وساقيها وأتركها تحتضر ببطء

وألم لأيام..

لم يقل ريتشر شيئًا.

مرت عشر ثوانٍ ثم صاح بلاتو : هولاند..

ظل ريتشر صامتًا، اللحظة التالية هي المراهنة الحقيقية، الحياة أو الموت، رجل ذكي مثل بلاتو سيخرج من السرداب ويرسل رجاله للبحث عن ريتشر، رجل ذكي متأثر بكبريائه مثل بلاتو واعتاد العمل بيديه سيذهب بنفسه للبحث عن ريتشر، هناك جانبان في بلاتو، الجانب القديم الذي صعد درجات الحياة تدريجيًّا، والجانب الجديد للقائد الثري، وريتشر يراهن على تغلب الجانب القديم لصالح القرار، ظل بلاتو مكانه، وصاح : أين أنت يا هولاند؟

وهناك قلق في صوته، رفع ريتشر يديه وكورهما حول فمه ثم صاح : هولاند ميت.

انتقلت العبارة عبر الجدران وتردد صداها حتى وصلت لبلاتو الذي توقف مكانه وصاح محاولًا تحديد مكان ريتشر : ما الذي قلته؟

بدأ ريتشر في التحرك بشكل دائري كي لا يتمكن بلاتو من تحديد مكانه وصاح مجيبًا : قلت لك إن هولاند ميت، لقد فجرت رأسه، والآن أنا قادم من أجلك.

- من أنت؟

- هل سيشكل هذا فارقًا؟

- أخبرني.

- صديق لجانيت سالتر.

- من؟

- الشاهدة، يا إلهي، حتى إنك لم تعرف اسمها.

- أنت ضابط الشرطة العسكرية.

- أنت بصدد معرفة هذا لا تتعجل.

الرجل الذكي كان ليهرب ويرسل رجاله، لكن ريتشر يراهن على الجانب القديم من شخصية بلاتو، بقي الأخير مكانه وصاح : هل تعتقد أنك تستطيع التغلب عليّ أنا؟

- بنفس السهولة التي يقضي بها الدب حاجته في الغابة.

- أنت لا شيء، وأنا كل شيء.

- استمر في إخبار نفسك بهذا.

صمت بلاتو، وشعر ريتشر بتحول تام في صوته، هو لم يعد رجل الأعمال ولا تاجر المخدرات ولا مهرب الذهب، هو مجرد قاتل بربري يريد حفظ ماء وجهه في تلك الآونة، صاح بلاتو : أين أنت؟

- خلفك مباشرة.

التفت بلاتو مسرعًا رغم بعد الصوت واعتلى الغضب

وجهه وهو يحدق بالفراغ، رفع فوهة بندقيته وبدأ يتحرك ببطء، مقتربًا من فتحة السردات المؤدي للمائتي درجة، وطفق ريتشر مكانه يستمع وينتظر، يحاول تبين خطوات بلاتو، هم يلعبون مزيجًا ما بين لعبة الأحجية والغميضة الآن، كلاهما يختبئ ويطارد الآخر في الآن ذاته، يلعبون أقدم لعبة في التاريخ..

***

اقترب أحد الرجلين اللذين عقدا الصفقة مع الروسي من فتحة التهوية ونظر للرجل بالأسفل الذي يشرف على عملية ضخ الوقود، سأله زميله : هل تستطيع قتله من هنا؟

- كلا، لا مجال للتصويب.

- إذن سوف أذهب إليه بالأسفل وأطعنه، لو رآني سأقول له إني أتيت لمساعدته، وتولَّ أنت أمر الرجال هنا.

صمت الرجل الآخر فتابع الأول : من أجل أمك وإخوتك وبناتك، تلك هي فرصتنا الوحيدة.

هز الرجل الثاني رأسه، واتجه جنوبًا صوب الرجال الذين يوصلون المعدات ويقيمون الممر بين الطائرة والشاحنة، في حين تسلل الأول للقاعدة الجوية، وركض صوب السلالم المستديرة قبل أن يبدأ في النزول..

***

لعبة الغميضة، أقدم لعبة في التاريخ..

أحنى ريتشر قامته، كارهًا حقيقة أنه غير مسلح، ثم نظر ليديه معتذرًا عن الاستهانة بهم، الحقيقة التي لم يواجه بنفسه لتلك اللحظة أنه لم يستطع العثور على الأسلحة القديمة من الحرب العالمية الثانية، البارود لا يموت رغم كل ما يقوله الخبراء، هو يعرف هذا جيدًا، لكنه لم يجد سبيل للوصول لتلك الأسلحة، خُيّل إليه في ثوانٍ أنه قد سمع جلبة قادمة من الأعلى، ربما أن الشاحنة تتحرك أو شيء كهذا، سمع بلاتو نفس الجلبة وتوقف عن حركته الحذرة ورفع رأسه لأعلى، ثم عاد للنظر أمامه بعينين متسعتين في وحشية وهو يبحث عن ريتشر، تحرك ريتشر للأمام كأنه في قصة «هانسل وجريتل» تاركًا أثره خلفه ليتمكن من العودة كي لا يفقد طريقه وسط تلك المتاهة، هل تلك أقدام تقترب من أعلى أم هذا يخيل إليه إثر ضوضاء الشاحنة والرجال أمام القاعدة الجوية؟ ركز يا ريتشر، إنه قانون الغاب الآن، كلاكما الصياد والفريسة، والوغد الذي تسبب بمقتل جانيت وأندرو يحمل سلاحًا ويبحث عنك، تذكر وعدك لكيم بيترسون الذي لم تفِ به، تذكر جسد جانيت سالتر في مكتبتها، بلاتو لم يعرف حتى اسمه، ركز يا ريتشر.. واصل ريتشر السير ببطء منحنيًا، بينما بلاتو ناصبًا قامته القصيرة بشكل أسرع...

ثم لمح بلاتو ظل ريتشر منعكس على الجدار الجانبي أمامي وابتسم بتوحش..

تحرك ريتشر للأمام، ببطء، محاولًا رفع رأسه، يداه

متأهبتان للقبض على عنق بلاتو وخنقه حتى الموت..

يقترب كلاهما من جهتين متجاورتين لنهاية الممر، لنقطة التلاقي..

وصل ريتشر أولًا، وانقض عليه بلاتو بكل وحشية فأسقطه أرضًا وهو يصيح منتصرًا بتوحش، وفي تلك الثانية أدرك ريتشر أنه بصدد قتال وحش مخبول، بلاتو لم يختبئ وينتظره ويطلق الرصاص، لقد أراد إسقاطه أرضًا أولًا بيديه قبل أن يرميه بالرصاص، جزء من الثانية لكي تبقى حيًّا يا ريتشر، فوهة بندقية بلاتو تتحرك صوب رأسك، وبداخلها تردد عبارة جانيت «سيكون لدي وقت كافٍ للقراءة عندما ينتهي كل هذا»..

قفز ريتشر بغضب عارم وجذب البندقية من فوق كتف بلاتو لكن غرز إصبعيه في عيني ريتشر الذي تراجع للخلف فلكمه بلاتو ثم أعقب اللكمة بضربة من مؤخرة البندقية، أطاحت الضربة بوجه ريتشر وسقط أرضًا للخلف، امتدت يد بلاتو ليعدل من اتجاه بندقيته، ركله ريتشر بقوة وسرعة وهو ساقط أرضًا، ارتد جسد بلاتو للخلف وسقط بدوره، الآن أصبح العالم كله مقلوبًا رأسًا على عقب، كل شيء أفقي أصبح رأسيًّا والعكس، رجلان ساقطان أرضًا يتصارعان في الأنفاق، اعتدل كلاهما بسرعة والتحما، انقض كل منهم على الآخر بسرعة ووجد ريتشر يرتد للخلف ويسقط أرضًا، جثم بلاتو فوقه وصرخ بجنون ثم عضه في عنقه قبل أن ينهال على وجهه

باللكمات، بلاتو كان قويًّا وصلبًا بدرجة لا تصدق بالنسبة لرجل في مثل حجمه، هوت لكمة أخرى ارتج لها رأس ريتشر وانبثقت الدماء من أنفه وفمه، ثم حاول بلاتو غرز أصابعه مرة أخرى في أعين ريتشر، لكن يدي ريتشر امتدت بسرعة وقبضت على يدي بلاتو، كان ريتشر الآن هو نفس الطفل في السادسة من العمر الذي يريد محاربة الوحش في الفيلم السينمائي، ثنى ريتشر أصابع بلاتو وكسرها ليصرخ الأخير في ألم، عاجله ريتشر بضربة من سيف اليد في عنقه فتحولت صرخة بلاتو لسعلة مكتومة وهو يجاهد كي يتنفس بصيحة متحشرجة، دفع ريتشر بجسده وأسقط بلاتو للخلف، حاول الأخير الانقضاض على ريتشر لكن الأخير لكمه بيساره فسقط بلاتو للخلف، انقض عليه ريتشر في ثوانٍ وأمسك برأسه بكلتا يديه وبدأ يضربها في الجدار الصخري، مرة، والثانية، والثالثة، والرابعة.. بكل قوة، ضربات كافية لقتل أي رجل، لكن بلاتو ظل حيًّا، يقاوم، ومد أصابعه السليمة صوب وجه ريتشر، فصاح الأخير وضغط بكلتا يديه على جانبي رأس بلاتو، بحظت عينا الأخير بقوة وتزايد احمرارهما، ثم طوّح ريتشر رأسه وضربها بالحائط بكل قوته.. لثانية همدت حركة بلاتو، كان ريتشر يتوقع تناثر دماء بلاتو وأجزاء من مخه على الجدار، لكن هذا لم يحدث، كل الخطط تفشل تلك الليلة فيما يبدو، ما حدث أن بلاتو انزلق من بين يدي ريتشر، ثم رفع رأسه لأعلى وضرب وجه ريتشر بمؤخرة رأسه، بوجه غارق في الدماء، ثم قفز ليستعيد

بندقيته، فجثم ريتشر وأحاط عنقه بذراعه، وبدأت عملية الخنق.. في نفس اللحظة التي سمعوا ما يبدو كأنه طلقات رصاص من أعلى، تلا ذلك عملية ضخ قوية لسائل ما تدفق من فتحات التهوية للسراديب..

تصلب جسد ريتشر ونظر لما يحدث، وخلص بلاتو عنقه من يدي ريتشر، وتدحرج جانبًا، ثم اعتدل وهو يبصق دمًا قبل أن يصيح : ما الذي يحدث؟ تسريب؟

- هذا ليس بتسريب..

كذا صاح ريتشر، فهتف بلاتو : إذًا ماذا يحدث؟

ظل ريتشر ينظر للسائل المتدفق من كل فتحات التهوية، وكرر بلاتو : ما الذي يحدث؟

- أنت خدعت الروس خدعة مزدوجة، ما يحدث الآن هو خدعة ثلاثية..

- ها؟

- صوت الطلقات بالأعلى، والأقدام بالأسفل، أعتقد أن رجلك هنا في السراديب قد مات، الروس ابتاعوا بعضًا من رجالك ليغتالوك ويحصلوا على كل الغنائم وربما مملكتك القذرة كلها...

- هم يعتقدون أنهم يستطيعون إغراقي؟

- كلا، هم لن يقوموا بإغراقك..

وتلفت ريتشر حوله، لا مجال لإغراق أحدهم في تلك السراديب، الأرض مرتفعة وهناك مساحات واسعة لكي تتمكن حقًّا من إغراق أحد، أردف ريتشر : هم سيقومون بحرقك حيًّا..

- هراء، كيف سيحرقونني حيًّا؟ سيلقون بعود ثقاب في السراديب بعد ضخ الوقود بها، سأكون قد خرجت أثناء كل هذا..

لم يقل ريتشر شيئًا..

زحف بلاتو مبتعدًا على ركبتيه، بأنف مكسور وعظام وجه مهشمة، الدماء تسيل من بين شفتيه، أسنانه مهشمة، إحدى عينيه قد تورمت وانغلقت، كلا حاجبيه مفتوحان، وصل بلاتو لبندقيته، قبض عليها والتف إصبعه حول الزناد، قبل أن يرفع يديه عن الزناد وينظر لريتشر الذي هز رأسه قائلًا : لا تفكر حتى بالأمر، شرارة واحدة ولسوف نحترق سويًّا..

كرر بلاتو وهو ينزف : كيف سيفعلونها؟

لم يقل ريتشر شيئًا، كان يفكر بصمت وحرص، فكِّر مثلهم، كن دوافعهم وأسبابهم ومخاوفهم، تبنَّ وجهة نظرهم، هم لن يستخدموا عود ثقاب، بلاتو محق في هذا، سينطفئ عود الثقاب فور رميه، إذًا ما هي خطتهم؟

***

بالأعلى، افترشت جثث الرجال الثلوج عدا الرجلين اللذين يعملان لدى الطرف الروسي، الوقود كان يضخ من الشاحنتين كالأنهار داخل فتحات التهوية، ثم قال أحدهم وهو يرمق المشهد للآخر : لنحضر الشعلات المتوهجة ذات الشرار الأحمر من الممر..

***

مسح بلاتو الدماء من على وجهه، وقال : ما الذي سنفعله الآن؟ نقتل بعضنا أم نحترق معًا؟

- فرصتك هي أن تعدو كالأرنب على تلك السلالم.

- أنا أسرع منك.

- هل ستهرب مني؟

نظر بلاتو لريتشر، وفكر الأخير «سيكون لديّ وقت كافٍ للقراءة بعد انتهاء كل هذا»..

قال ريتشر بهدوء : أنت لن تخرج من هنا حيًّا.

أومأ بلاتو برأسه، وقال: واحد منا فقط سيخرج حيًّا.. لكننا لن نحترق..

ورمى بندقيته بعيدًا، كان مجهدًا من صراعهم السابق، والدوار بدأ ينساب لرأسه، ريتشر كذلك كان يعاني من دوار يكتنف رأسه والآن في وجهه وظهره وساقيه، لكنه يعلم أن واحدًا فقط سيخرج حيًّا من هذا السرداب، من أجل جانيت سالتر..

صاح بلاتو وانقض على ريتشر فانحنى الأخير متفاديًا إياه ثم ضربه بكوعه في وجهه، ودار حول نفسه لينهي الأمر بضربة أخيرة أطاحت برأس بلاتو ودقت عنقه، سقط بلاتو دون حراك، لكن ريتشر تذكر ما حدث سابقًا وأراد التأكد من كونه ميتًا، جثم ريتشر فوق عنقه وأدار رأسه لأقصى اليمين حتى التوى تمامًا، ثم فعل المثل مع الجهة اليسرى، وتهشمت عظام عنق بلاتو تمامًا، وشعر ريتشر برأسه ينفصل عن جسده، فترك جثته الهامدة وارتمى للخلف.. أغمض عينيه للحظة ثم فتحهما، ونظر للمائتي درجة، في انتظاره كي يهرب من النيران الموشكة على التهام المكان، إذًا فالأمر يتعلق بعملية اغتيال بلاتو، وفي الأغلب الاثنان بالأعلى لا يعلمان بشأن الذهب والمخدرات في السراديب..

«الكل يخاف الموت»، كذا قالت له جانيت سالتر وكانت إجابته «يتوقف على الطريقة التي سنموت بها»..

وهو موشك على الموت محترقًا في تلك اللحظة..

بدأ ريتشر الركض.. صوب السلالم، بينما يتدفق الوقود، وبالأعلى عاد الرجلان حاملين المشاعل من ممر الطائرات..

بعد وهلة أدرك ريتشر أنه يزحف في إرهاق ولا يعدو حقًّا، وكلما اقترب من السلالم شعر أنها تبتعد عنه، أسقطه الدوار أرضًا، واعتصرت أصابعه الهواء في غضب،

أغمض عينيه وفكر بصوت سوزان تيرنر، ثم فتحهما وأجبر نفسه على الوقوف قبل أن يركض بحق تلك المرة، يصل للسلالم المستديرة، يبدأ في التسلق، التمرين الرياضي إياه، مائتي درجة، يصعد، واحدةً تلو الأخرى، بدا له أنهم لن ينتهوا أبدًا، ينظر للسطح، تلك الدائرة الصغيرة، الحياة، دائرة مستديرة تنتظر خروجه، هيا أنت تقترب، عشر درجات قد مروا وباقٍ مائة وتسعون، يقفز لأعلى، تنفلت يده فيسقط، تمسك بيده بالسلالم ويدفع بجسده لأعلى، يتسلق، يتوقف عن العد ويزيد من سرعته، دقيقة، اثنان.. ثلاث.. يقفز بجسده خارج الأنبوب المستدير وهو يسعل، يزحف على الأرض ثم يهب واقفًا ناظرًا للبوابة، يعدو، يسقط، يعتدل، يجري، يخرج، يلهث، ينظر للسماء..

***

يدير أحد الرجلين محرك الشاحنة ويدير المقود، يتراجع بها للخلف ثم يستدير بها ليواجه طريق الرحيل عن القاعدة الجوية، ثم ينظر في المرآة الجانبية لانعكاس زميله الذي وقف أمام فتحات التهوية حاملًا الشعلتين في يديه، رفعهما عاليًا، توقف لثانية ثم ألقى بهما، تدحرج أحدهما فوق الفتحة، وبدا أنه سوف يستقر هناك، ثم واصل التدحرج وسقط مشتعلًا، وكذا فعلت الشعلة الثانية، وتراجع الرجل ليقفز في الشاحنة ويرحل مع زميله..

التحمت الشعلة الحمراء مع نهر الوقود في السراديب، وبدأ

الحريق العظيم..

خمس دقائق قبل حلول الرابعة فجراً، وقد مرت إحدى وستون ساعة..

الفصل السادس والأربعون

تمكنوا من إخماد الحريق بعد أربعة أيام، وقد وصلت وكالات أمنية عدة للتحقيق، منهم وكالة الأمن القومي، والطيران الجوي والمباحث الفيدرالية، أول من وصل للمكان كان رجال الأمن القومي، تلى ذلك الطيران الجوي وبعدهم وصل محققو المباحث الفيدرالية، وشرطة رجال دورية جنوب داكوتا، وعدد من الخبراء الحكوميين، الذين ظنوا أن تلك صواريخ روسية انطلقت تهاجم قاعدة جوية قديمة من أيام الحرب الباردة في جنوب داكوتا.

تدخلت الاستخبارات المركزية وعم القلق بالبيت الأبيض وتفقدت وكالة «ناسا» الأقمار الصناعية، وأكد السفير الروسي للبيت الأبيض أن روسيا لم تطلق أي صواريخ، بعدها وصل الحرس الوطني للتحقيق على نطاق أوسع، وأقامت كل تلك الوكالات مخيمات أشبه بكبائن راكبي الدراجات ليقيموا بالقرب من الموقع ويسهل تواجدهم القريب هذا من تحقيقاتهم، لم يستطع أحد تفسير حالة الاختفاء كذلك لآمر سجن يدعى كيليب كارتر والفوضى والانبعاج في مكتب عمله بمنزله، ربما سيضاف هذا السؤال لخانة الأسئلة الغامضة الخاصة ببلدة بولتون التي ستترك دون إجابة مثل ما الذي دفع بشرطي يدعى كابلر ترك وظيفته في فلوريدا وهجر المدينة الكبيرة والانتقال لبولتون؟ أو سبب طلاق شرطي يدعى لويل من زوجته.

بعد تمركز قوات التحقيق الفيدرالية وصلت وكالات الأنباء والمسعفين والأطباء لموقع القاعدة الجوية المحترقة، بل إن علماء طاقة نووية وذرة أتوا لتفقد المنشأة المحترقة خوفًا من تكرار حادثة تشيرنوبل، وتم إجراء تحقيق واسع وصارم في الطيران الجوي، خوفًا من نظرية أن جنرالًا منشقًا يجري تجارب عسكرية ما داخل تلك المنشأة، أول ما وجدوه هو سيارة مهشمة من طراز فورد على جانب ممر الدخول للقاعدة الجوية، وجدوا أيضًا شاحنة معطلة على جانب الطريق بها جثتان لرجلين من أصل مكسيكي، فيما يبدو أن الرجلين كانا الناجيَيْن من المكان وقادا شاحنتهما مبتعدين عن المكان بعدما أحرقاه لكن انعدام خبرتهما في قيادة شاحنة كتلك وسط عاصفة ثلجية تسببت بمصرعهما بسبب التجمد حتى الموت إثر انقلاب الشاحنة وفقدانهم للوعي بداخلها، فعثروا عليهما جثتين مجمدتين داخل الشاحنة، ومن واجب الذكر أنه قد تم العثور على بنادق آلية مع الرجلين، واتضح بعدها أن السيارة الفورد تخص مأمور بلدة بولتون ويدعى هولاند، وقد كان يحقق في مقتل نائبه، أندرو بيترسون، بعد ذلك أبدى رجل إطفاء حاد الملاحظة، ملحوظة مهمة وهي وجود آثار لهبوط غير مصرح به في ممر القاعدة الجوية، أما خبراء الحريق فقد أدلوا بشهادة تفيد بأن انفجارًا قد وقع أمام القاعدة الجوية، ومع معاينة شظايا الانفجار تم التوصل إلى أنها تعود لطائرة، في الأغلب من طراز بوينج 737، وهناك بقايا آدمية بداخلها، ما لم يعرفه الخبراء أن الرجلين قاما بوضع

جثث زملائهما بعدما قتلاهم غدرًا وتركا وقودها ينساب للمبنى، وعليه ففور احتراق القاعدة انتقلت النيران لخزان وقود الطائرة لتنفجر بالجثث بداخلها، محاولين التخلص من آثار الجريمة، أما القاعدة الجوية فقد احترقت تمامًا عن بكرة أبيها، ولم يتبقَّ منها سوى رماد، لكن الخبراء أكدوا أن الحريق بدأ من تحت الأرض رغم غرابة تلك الفكرة، أعقب ذلك اكتشافهم للأنفاق والسراديب وما بدا أنه نوعية رماد مختلف كان يخص ذهبًا وفضة.

وأقام رجال المباحث الفيدرالية والأمن القومي بمخفر شرطة بولتون بعدها وأوصلوا الحواسب بشبكتهم الرئيسية في واشنطن وبنوا عدة محاكات إلكترونية للقاعدة الجوية والسراديب محاولين التوصيل لحقيقة ما حدث.

ومن سالف الذكر أنهم وجدوا بقايا آدمية لجثتين محترقتين داخل القاعدة الجوية.

***

تابعت سوزان تيرنر أخبار القضية أولًا بأول عبر الأنباء التلفزيونية والورقية، رجلها في الطيران الجوي لم يخبر أحدًا أنها كانت تتقصّى أمر تلك المنشأة الجوية وبهذا أصبحت مدينة له بخدمتين وليس واحدة، كانت تعلم جيدًا أنهم لو عرفوا أنها كانت تتقصى أمر تلك القاعدة الجوية قبل اندلاع الحريق فلسوف تجد نفسها في غرفة استجواب بلا أمل للخروج في غرفة الاستخبارات المركزية، ولذلك

أيضًا لم تتمكن سوزان من مطالعة تطورات الحدث بشكل رسمي عبر التقارير، ولذا لجأت للتلفاز والجرائد، وهي تتذكر جملة قالها لها ريتشر في محادثتهما الأخيرة، مفاداها أن جانيت سالتر ستظل بداخله للأبد، عادت سوزان لمتابعة الأخبار، اللغز الأعظم بالنسبة لجميع وكالات الأنباء كان سحب الدخان الغريبة التي تجمعت فوق بولتون، وكانت سوزان الوحيدة التي تعرف أن احتراق المخدرات هو السبب خلف تلك السحب السوداء العجيبة التي اعتبرها البعض ظاهرة كونية، في الوقت نفسه وبينما هي تطالع أخبار القضية كانت عيناها ترتكزان على الهاتف، بانتظاره كي يرن، بانتظاره لكي يتصل بها، لكن الهاتف لم يرن، في نفس الحين أصدر الطيران الجوي تقريرًا للعامة بأنهم كانوا يخزنون مخلفات من الحرب العالمية الثانية في القاعدة الجوية بالقرب من بولتون مثل ذخيرة وبارود، وقد تكون المخلفات هي السبب في تكون تلك السحب، وخرج الإعلاميون يشينون الموقف بغضب وينشرون الذعر بين المشاهدين عن تكرار كارثة تشيرنوبل، أما بالنسبة لخبراء الحريق، فقد أفادوا بشهادة أن الحديث لم يكن متعمدًا، وواصل رجال المباحث الفيدرالية والأمن القومي محاولة فك طلاسم لغز ما حدث والبقايا الآدمية التي عثروا عليها.

انتشرت بعدها شائعات بعدما سرب أحد رجال الإطفاء معلومة وجود بقايا آثار فضة وذهب في السراديب، كان الأمر كارثة وفضيحة سياسية، ولم تستطع

أي وكالة حكومية فهم ما حدث، الوحيدة التي كانت تعرف هي سوزان تيرنر، التي كانت تجلس بترقب وتنظر للهاتف الذي لم يرن، وإفادة محققي المباحث الفيدرالية التي صرحت بالآتي : رغم عثورنا على بقايا آدمية من الحريق لا توجد شبهة جنائية تشير إلى بجرائم قتل محتملة، الأمر كله حادثة.

***

انتقلت كيم بيترسون مع طفليها من بولتون بعدما استأجرت بيتًا في شلالات «سيوكس» كي تكون بالقرب من والدها وجدها، ووقفت تحتضن طفليها وهم ينظرون للشلالات من شرفتهم..

***

بعد أربعة أسابيع كانت سوزان تيرنر بصدد السفر في مأمورية لخارج البلاد، وفي اليوم الموافق لرحيلها عن فيرجينيا قامت بوضع ملف جاك ريتشر في درج مكتبها، أو مكتبه السابق، وأوصت أحد رجال فريقها بإعادة الملف لقسم شئون العاملين، ثم خرجت من مكتبها، وانعكست أشعة الشمس على وجهها بينما تسير متجهة لسيارتها..

***

النهاية

(1) البدو في الغرب يطلق عليهم اسم «نوماد» ويشير للقوم الذين يرتحلون من مكان لآخر لإيجاد أماكن طبيعية مكتظة بالخضرة والطبيعة لحيواناتهم.

(2) تعبير أمريكي بمعنى : أنا أوافقك الرأي.

(3) تعبير أمريكي بمعنى امتثل لقولك بالفعل.

(4) ملاحظة من المترجم: هناك وثائق تاريخية عدة عن حوادث مماثلة بعد سقوط برلين.

(5) كائن أو رمز يشير إلى مجموعة من البشر، مثل العائلة، أو العشيرة، أو نسب، أو قبيلة.